الطـائر الأزرق

قصص من أمريكا اللاتينية

الطائر الأزرق

المؤلف :
ماركيز وآخرون
ترجمة:
د. طلعت شاهين
الطبعة الاولى :
يناير 2006

رقم الإيداع:
١٢٠٥٩/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
84-931366-13-5

حقوق الطبع محفوظة

لوحة الغلاف:
أبراهيم البجلاتي
تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مكتب القاهرة :
ص.ب.: 22
الحي المتميز . مدينة 6 أكتوبر
مصر

Tel.:
(+20) 2 835 40 69
Mob.:
(+20) 12 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com

الطائر الأزرق

قصص من أمريكا اللاتينية

تأليف:

روبين داريو
خورخى لويس بورخيس
خوستو استيبان استيفانيل
ماريو بنيديتى
أرتورو أوسلار بيترى
سانتياجو راميرو ميرينو

جابرييل جارثيا ماركيز
خوان رولفو
خوليو كورتاثار
مانويل روخاس
خوان خوسيه أريولا
لويس أرتورو راموس

ترجمة وتقديم:

د. طلعت شاهين

تقديم

أمريكا اللاتينية قارة بكر، لا تزال ثمارها الناضجة معلقة على أشجار الأدب، وسكانها لا يملكون التمتع بهذه الثمار الطيبة نظراً للفقر، والأمية المنتشرين كالوباء، فالواقع مفجع دموى، والأسطورة، والخرافة، والرعب والموت تمتزج بكل دقائق الحياة، الحياة أسطورة، والأسطورة واقع حياتى معاش، الإنسان في تلك البلاد يولد منذوراً للموت، ومن ينجُ من الموت على أيدي العسكر، والدكتاتوريات العسكرية، يدخل مظلة الرعب اليومى، من يزرع لا يحصد، ومن يصنّع يحمل إنتاجه على ظهره ليسلمه للشركات المتعددة الجنسية، أو لتجار المخدرات، ومافيا التهريب، الذين يتحكمون في كل شيء، بل كثيرا ما يحلون محل الدولة في تقديم الخدمات البسيطة الرئيسية التي تساعد إنسان أمريكا اللاتينية على الاستمرار في الحياة ليواصل الإنتاج لصالح الغير.

وعندما تهب رياح ما يسمى بالنظم الديمقراطية، فإن ذلك يتم بشروط أولها التغاضى عن محاكمة مجرمي الماضى، والتعايش معهم تحت سقف واحد، سقف يجمع القاتل والقتيل، وإلا فإن العسكر لا يزالون يحملون السلاح وعلى استعداد للعودة في أي وقت، أي أن الديمقراطية هناك أقسى من الدكتاتورية، لأن الإمبريالية تتحكم في كل شيء وستظل تتحكم في كل شيء، لأن الإنسان محكوم عليه الحياة لصالح الآخر، ومن يتحدث له أن يختار الموت أو الموت. في هذا المناخ ولدت الكتابة، وفي هذا المناخ عاشت وستعيش، لذلك فالكاتب بطل، والقارئ أكثر بطولة، لأنه يقرأ نفسه، وحياته في كتابة هذا الكاتب.

دخلت الكتابة القصصية الرائعة، والروائية مرحلة نضوجها مع بدايات القرن العشرين، كنتيجة لانعكاس الأحداث التاريخية التي مرت بها بلاد تلك المنطقة، فقد حدث خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن

شهدت تلك المنطقة إعادة التركيب الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وظهور اتجاهات سياسية، وفكرية جديدة نمت مع النضال ضد الاستعمار الأوربي الذي كان يتصارع فيما بينه على هذه الأرض "الجديدة" ولكن تلك الفترة شهدت في مجال الكتابة القصصية سيطرة اتجاه "الواقعية – الطبيعية" الذي كان بدوره خالياً من التقنية أو الحرفية في الكتاب، وكان الكاتب في تلك الفترة واعياً بأنه يمتلك فقط خيوط لعبة الكتابة، وتحريك الشخصيات دون اهتمام كبير بجمالية الكتابة.

بالمقابل كان هناك تأثير يتمثل في "الحداثة elmodernismo" المحلية التي نشرت على الكتابة النثرية تجديداً، فهذه الحداثة التي ولدت على يدي الشاعر الكبير "روبين داريو Ruben Dario" الذي كان يوشيّ الكتابة بالشاعرية سواء في التعبير، أو الموضوع الذي يتناوله، مما أثرى الكتابة القصصية، والروائية في أمريكا اللاتينية، لأن كتّاب تلك المرحلة رفعوا شعار الشاعر الذي طلب بالعمل، والعمل الجاد من أجل تنقية اللغة "القشتالية" في أمريكا في نفس الوقت من خلال الكلمة والإيقاع، والتشكيل، والتجديد في المعاني.

كان هذا التجديد يعتمد على الموضوعية، والتفرد التشكيلي للمعاني التي تفردت بها أمريكا اللاتينية عن شبه الجزيرة الأيبيرية، مما أدخل العديد من التجديدات على هذه اللغة، وعلى الأخيلة، والمحسنات البديعية التي كانت تستخدمها، مما ساعد الكتاب على زيادة قدرتهم على الإبداع خارج نطاق القواعد المتعارف عليها حتى تلك اللحظة، فأدى ذلك إلى التجديد في إعادة تشكيل الجمل، وتجديد الإيقاع الموسيقي للكتابة النثرية.

وهذا أدي إلى أن يتمتع كتّاب الحداثة بقدرة فائقة على هضم وتمثل الثقافات الأخرى، وخلق إبداعات جديدة تتولد عن ما هضموه من قراءات في اللغات والآداب الأخرى، وعبر عن هذا "فيدريكو دى أونيس Fedrico de Onis" بقوله: "استطاع الكاتب في أمريكا (اللاتينية) أن يهضم في داخله كل ما جاء من الخارج، وتماما كما كانت شعوبه تهضم

الهجرات الخارجية القادمة إليها، والتى كانت تفد عليها خلال سنوات الحداثة مما أدى إلى حدوث امتداد سكانى ضخم لخليط من الأجناس كونت في النهاية تركيبة هذه الشعوب".

وتطور الكتابة القصصية في إطار الحداثة كان في مجال قوته الدافعة خلال الفترة من 1883و 1920، وكان في طليعة الموجة الأولي من كتَّابها: "مانويل جوتريث ناخيرا"، و"روبين داريو"، و"خوسيه مارتى"، و"خوليان ديل كاسال"، و"أمادو نيرفو"، أما الموجه الثانية فقد تمثلت في "مانويل دياث"، و"انخيل استرادا"، و"كليمنتي بالما" و"انريكيث جوميث كاريو".

لكن كتاب "قصص هشة Cuentos fragiles" للمكسيكي "جوتيريث ناخيرا" الصادر عام 1883 كان البداية لهذه الحركة الحداثية التي حاولت تحرير فن الكتابة وتجديده هناك فقد كانت هذه القصص تعتمد على التجديد اللغوي، والتركيز الدرامي اللذين تكررا فيما بعد في الكتابات التالية، التي نشرها الكاتب في كتب أخرى، أو من خلال ما كان ينشره في الصحافة اليومية المهتمة بالكتابة الأدبية.

ثم جاء كتاب "روبين داريو" "أزرق Azul" الصادر عام 1888 ليؤكد على هذا التجديد، ويبدأ الثورة الأدبية التي ذهب تأثيرها إلى أبعد من بلاده، ومن بعده قام "خوسيه مارتى" بالتأكيد على جمالية النثر الشعري في كتاباته خاصة "صداقة مشئومة Amestad runista" الصادر عام 1885، وجاء "أمادو نيرفو" ولينقل إلى كتاب المراحل الجديدة نظرية الكتابة في إطار الحداثة:

"حقيقة أنه لكتابة القصة القصيرة ليس من المفترض استخدام التخيل دائماً، فالكاتب يرى الحياة تجري من حوله، وقد يفاجئه مشهد، أو ملمح معين، فيقطف من هنا وهناك أشياء متفرقة، سواء كانت واقعية أو أشخاصاً من حوله، أما ما يحدث بعد ذلك في الكتابة فهو قليل: تنظيم تلك الملاحظات وتشكيل القصة منها".

وتبلغ الكتابة الحداثية قمتها عام 1908 بصدور كتاب "مجد دون راميرو" للكاتب الأمريكى "لاريتا"، وهي كتابة تعتمد على التجديد التعبيرى، ونضارة التخيل، وهو ما مهد الطريق أمام اللاتينية، والعالم كله باسم "الواقعية السحرية el realismo magico" .

لكن هذه الحركة الحداثية التي يرجع إليها الفضل في تجديد هذا الأدب، وامتد تأثيرها أيضا إلى إسبانيا الأم صاحبة هذه اللغة، واجهت معركة مع التجديد الأوربي التابع للحركة "الطليعية" التي شهدتها فرنسا وانتقلت بعد ذلك عبر البلدان الأوربية الأخرى، لكن التواصل مع هذه الحركة بين بلادهم، وأسبانيا باعتبارها البوابة الكبرى إلى العالم القديم، وفي عام 1910 واجهت الحداثية الأمريكية اللاتينية أول معركة مع التجديد القادم عبر المحيط، عندما تمرد الشاعر التشيلى "فيثنتى هويدوبرو" على الزخرفة الحداثية في محاولة لتشكيل لغة جديدة للكتابة الأدبية، والاقتراب بها من اللغة العالمية التي بدأت تتطور في بلاد أخري، وقدم هذا الكاتب نظريته في محاضرة ألقاها باللغة الفرنسية عام 1921 باتحاد كتاب الأرجنتين أطلق عليها اسم "الإبداع الصافي" وكان يهدف من هذه المحاضرة إيقاظ الذين سكنوا في اللغة الحداثية، ومن خلالها أيضا مارس دور الجسر بين كتاب تلك البلاد، والطليعية الفرنسية، والأسبانية الوليدة في ذلك الوقت، وساعده في دوره هذا اطلاع الكاتب الشاعر الأرجنتيني "خورخي لويس بورخيس" الذي كان يقيم في ذلك الوقت في مدريد، ومطلع على الحركة الأدبية الأوربية بشكل عام، والأسبانية بشكل خاص، وعند عودته إلى بلاده أدخل أيضا التفكير الذي حمله، ونظريات الأدب الجديدة التي ولدت في أوربا، خاصة أنه كان على علاقة مباشرة بتلك الحركة من خلال التعاون مع العديد من المجلات الأدبية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت. وأيضا استطاع أن يكون تأثيره أكبر من خلال إصدار مجلة "بريزما Prsim" التي كانت تصدر في الفترة من 1922 إلى 1925.

هذا العمل الذي قام "خورخي لويس بورخيس" جعل حركة "السريالية" الفرنسية أبطأ في الانتشار في أمريكا اللاتينية، ولم تجد لها أصدقاء وتابعين إلا في المكسيك بفضل التصاق الشاعر "أوكتافيو باث" بهذه الحركة أثناء مشاركته في الحرب الأهلية الأسبانية (1936- 1939) إضافة إلى فترة إقامة الشاعر الفرنسى " أندريه بريتون"(1937-1938) في المكسيك ونشره لبيانه "من أجل فن ثورى مستقل" الذي وقع عليه أيضا الفنان التشكيلى "دييجو ربيرا"، ووجود الزعيم الروسى المنفى " تروتسكى" في المكسيك أيضاً، ووجدت حركة السريالية كذلك لها أنصاراً في التشيلي، والإكوادور، وكولومبيا وبيرو، وفنزويلا بالطبع إضافة إلى المكسيك التي اعتبرت مركزها في أمريكا اللاتينية.

وإذا كان الطليعية بدأت مبكرا في الشعر فإنها دخلت إلى الكتابة النثرية من قصة، ورواية في مرحلة متأخرة، وحدث هذا بعد الحرب العالمية الأولى، ويرى بعض من أوربا باعتبارها تمثل ثقافة من يقتلون أنفسهم، لذلك حاول هؤلاء الكتاب الانكفاء على الذات والابتعاد عن الهمجية التي مثلتها أوربا في ذلك الوقت في حروبها المتكررة، وظهرت في تلك الفترة كتابات تمثل التحاور مع الذات، والتعامل مع الواقع الإقليمى بعيدًا عن عالمية أوربا، منها: عام 1922 "قصص ساخرة" للكاتب الفنزويلى "خوسيه رفائيل َبوكاتيرا"، وعام 1924 "انتقام الكوندور" للكاتب البيروانى "فينتورا جارثيا كالديرون"، وعام 1926 "رجل الجنوب" للتشيلى "مانويل روخاس".

يجب الإشارة أيضا إلى بعض الكتابات التي ظهرت في الوقت نفسه في منطقة وسط أمريكا اللاتينية التي حاولت الكتابة بلغة الحديث العادى وترصيع الإبداع بمكونات طليعية، كما فعل الكاتب السلفادوري "سلفادور سالازار" في قصصه "المسيح الأسود" الصادر عام 1926، و"قصص من الطين" الصادرة عام 1933، واستخدم البعض الآخر لغة المولدين من أبناء الزواج المختلط الأسباني والمحلي.

فيما بين الحربين سيطرت عدة اتجاهات على الكتابة، منها الكتابات التي تقدم على أنها شهادات على حركة المجتمع فتجمع ما بين الكتابة التاريخية، والعاداتية (نسبة إلى العادات والتقاليد) فكانت أبرز هذه الكتابات قصص وروايات "هوراسيو كيروجا" مثل "صحراء" و"المنفيون".

لكن منحنى تطور القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية يصل أقصى تقدم له خلال فترة الخمسينيات من القرن العشرين، حيث نجد أنفسنا في مواجهة فترة يطلق عليها النقاد "الفترة المدهشة" تلك الفترة شهدت تحول العديد من كبار الكتاب في الأنواع الأدبية الأخرى إلى الكتابة في مجال القصة القصيرة، إضافة إلى نوعية هذه الكتابة التي كانت في قمة إبداعها، فقد ظهرت عام 1951 أول مجموعة قصصية متكاملة للكاتب الأوروجواى "خوان كارلوس أونيتى" بعنوان "حلم متحقق وقصص أخرى"، وقدم الكاتب الأرجنتيني "خوليو كورتاثار" قصصه "بيستياريو"، ثم تبعها المكسيكي "خوان خوسيه اريولا"، و"روا باستوس"، ثم قصص الكاتب المكسيكي "خوان رولفو"، الذي قدم مجموعته الرائعة "السهل يشتعل" و"كاولوس فوينتيس" المكسيكي أيضاً، الذي قدم "الأيام المقنعة"، وجاء الكولومبى "جابرييل جارثيا ماركيز" ليقدم رؤيته لبلاده من خلال مجموعته القصصية "الوراقة الجافة" الصادرة عام 1955، ثم "ماريو بارجاس يوسا" بمجموعته "الرؤساء" الصادرة عام 1958 لينهى هذه المجموعة من الكتابات القصصية الكاتب الأرجنتيني "خوليو كورتاثار" بمجموعة "الأسلحة السرية".

يري كل النقاد تقريباً أن هذه الانطلاقة التي شهدتها القصة القصيرة هي التي مهدت الطريق أمام ما أطلقوا عليها في مجال الرواية اسم "البوم أو الانفجار" الذي بدأ خلال الستينيات، والتي تعتبر أكثر السنوات إبداعا في مجال الرواية التى انطلقت من منهج ما عُرف باسم "الواقعية السحرية".

شهدت الفترة التالية ظهور روايات كُتاب تلك الفترة التي صنعت شهرة هذه المنطقة كمنطقة إبداع لا ينفد، بظهور رواية "بدرو بارامو"

للمكسيكي "خوان رولفو" ورواية "عن الأبطال، والقبور" للأرجنتيني "ارنستو ساباتو" ورواية " عامل الترسانة" للكاتب الأوروجواي "خوان كارلوس أونيتي" ورواية "الكولونيل لا يجد من يكاتبه" للكاتب الكولومبي "جابرييل جارثيا ماركيز"، ليؤكد من بعدهم الكاتب المكسيكي "كارلوس فوينتيس" رسوخ هذه الحركة الروائية الجديدة بروايته "موت ارتيميو كروث" الصادرة عام 1962.

إلا إن الروائيين الذين مثلوا حركة الرواية الجديدة في أمريكا اللاتينية لم يتخلوا عن الكتابة القصصية، خاصة أنهم بدأوا بها، وبعضهم صنع شهرته على أساس إبداعه فيها، لذلك قدم "جابرييل جارثيا ماركيز" مجموعات قصصية جديدة خلال تقديمه لإبداعه الراوئي، فقدم "جنازة الأم الكبيرة" عام 1962، وقدم "كارلوس فوينتيس" مجموعته "غناء العميان" عام 1964، ولم تتوقف الكتابة القصصية لكثرة هؤلاء الكتاب، والتي لا تزال تقدم الجديد من الأعمال في هذا الفن الأدبي الجميل.

هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي يقدم نماذج متفرقة لعدد من كتاب القصة القصيرة في تلك القارة الرائعة، التي تعيش واقعاً يتفوق في واقعيته على أي إبداع أو أية نظريات تحاول التنظير لهذا الإبداع، وهؤلاء الكتاب يقدمون بحق النموذج الأمثل على سبق الإبداع للتنظير في كل مستوياته، وهؤلاء الكتاب لم يقدموا أنفسهم من فراغ، بقدر ما قدموا أنفسهم عبر التعبير الحقيقي الحي عن الواقع المعاش لشعوبهم، والفهم الجيد لتراثهم القديم، بل والحديث، ثم التفاعل مع التراث العالمي، والحركات الأدبية الأكثر حداثة، فكانوا ممثلين لشعوبهم، وثقافاتهم، وفي الوقت نفسه هم في طليعة المبدعين عالمياً، لأن عالميتهم نبعت من أرضهم، ولم تهبط عليهم من السماء.

حاولنا أن يضم هذا الكتاب نماذج تغطي المناطق الرئيسية من الإبداع الأدبي في أمريكا اللاتينية، لذلك قد يجد القارئ نفسه أمام بعض الأسماء الجديدة التي لم يسمع عنها من قبل، أو أنه لم يقرأ لها، وهذا لا يعني أنها

غير جديرة بالترجمة إلى اللغة العربية، ولكن معرفتنا بهؤلاء الكتاب تنبع من المتابعة المباشرة، وشبه اليومية للأدب في منطقة أمريكا اللاتينية، خلال فترة زمنية طويلة تزيد عن العشرين عاماً، هذا وبالطبع في الكتاب أسماء معروفة، ولها إبداعاتها التي لا تحتاج إلى تقديم، ولكننا حاولنا تعريف الجميع للقارئ من خلال معلومات مبسطة عن كل واحد منهم في مقدمة أعمالهم، وذكر أهم الأعمال التي قدمها في مسيرته الإبداعية.

د. طلعت شاهين

روبين داريو (*)

Rubén Darío

(*) – روبين داريو Rubén Darío (1867–1916) مولود في نيكاراجو، وتنقل في العديد من دول أمريكا اللاتينية، وعاش لفترات في كل من أسبانيا وفرنسا، يعتبره النقاد من مؤسسي الحداثة في أمريكا اللاتينية "المودرنيزم" تلك الحركة التي أحدثت تأثيرا لأول مرة في أوروبا على العكس من ما كان يحدث في السابق حيث كانت الحركات الأدبية والفنية ينتقل تأثيرها من أوروبا إلى أمريكا اللاتينية، ويعتبر كتابه "ازرق" الصادر عام 1888 الكتاب المؤسس لتلك الحركة.

الطائر الأزرق

باريس مسرح مسل ورهيب، من بين رواد مقهى "بلومبير" العديد من الشباب الطيبين والحازمين: فنانون، ومثالون، وكتاب وشعراء، نعم كلهم يبحثون عن تاج الغار الأخضر القديم، لكن لم يكن أي منهم محبوباً كما كان ذلك المسكين "جارثين"، كان حزيناً بشكل شبه دائم، مدمن على الشراب، حالم إلى درجة أنه لم يغب عن وعيه أبداً، كان بوهيمياً لا غبار عليه، وعفوي الخاطر.

بداخل الغرفة القديمة كانت هناك لقاءاتنا المرحة، التي يحتفظ بمرحها جص الحوائط، ما بين بقايا القهوة وملامح "ديلاكروا" المستقبلية، أشعار ومقاطع كاملة مكتوبة بأحرف مهملة لاسم رفيقنا: الطائر الأزرق.

لم يكن الطائر الأزرق سوى "جارثين". ألا تعرفون لماذا كانوا يطلقون عليه هذا الاسم؟ نحن من عمدناه بهذا الاسم.

لم يكن ذلك مجرد رغبة عابرة منا، لقد كانت لذلك الفتى الطيب ملامح النبيذ الحزين، وعندما سألناه عن السبب، وبينما كنا نضحك جميعاً بهزل أو كطفوليين، قطب جبينه ونظر بتعمق في السماء المسطحة، ثم أجابنا وعلى شفتيه ملامح ابتسامة مرة:

– يا رفاقي: عليكم أن تعرفوا أن في عقلي طائر أزرق، ولهذا السبب...

كل ما في الأمر أنه كان محباً للرفقة الجديدة، عندما يحين فصل الربيع، كان هواء الغابة ينعش رئتيه، كما كان يؤكد لنا الشاعر نفسه.

كان يعود من نزهاته محملاً بباقات الفيوليت، وبكراسات ضخمة مبكرة، مكتوبة تحت ضجيج الأوراق وأسفل السماء الواسعة الخالية من السحاب، كانت زهور الفيوليت لـ "تاني"، جارته، الفتاة الندية والمزهرة، لها عينان زرقاوان جداً.

الأشعار كانت لنا، نحن كنا نقرأها ونصفق لها، كل منا كان له إعجابه الخاص بـ"جارثين"، كان عبقرياً في حاجة إلى الشهرة، لكن سيأتي زمن قادم، آه، سيطير فيه الطائر الأزرق عالياً، برافو، برافو!، إيه أيها الفتى الغر، مزيداً من الشراب.

مبادئ "جارثين":

من الزهور، زهور الأجراس اللطيفة.

ما بين الأحجار الكريمة، يكون العصفر.

من المساحات الشاسعة،

السماء والحب،

أي، عينا "تاني".

ويكرر الشاعر: اعتقد أنه من الأفضل الإصابة بالاختلال العصبي عن الإصابة بالغباء.

كان "جارثين" يبدو أحياناً أكثر حزناً من المعتاد.

كان يسير في الحدائق، يراقب بلا اهتمام العربات الفارهة التي تجرها الخيول تمر من أمامه، والنساء الأنيقات الجميلات، حين كان يقف أمام واجهة عرض محل مجوهرات، يبتسم، لكن عندما يمر بالقرب من مخزن للكتب، يقترب من واجهته الزجاجية، وحين يشاهد الطبعات الأنيقة، يعلن بجزم عن إحساسه بالغيرة، يقطب جبينه، كنوع من التنفيس عن غيظه، يتوجه بنظره نحو السماء، ويتنهد بعمق،

يجري بإتجاه المقهى بحثاً عنا، مغتاظاً، وحانقاً، يطلب كأس شـــرابه، ويقول لنا:

- نعم، في قفص عقلي يوجد طائر أزرق يطالب بحريته...

كان هناك من يعتقد أنه مختل العقل.

وصفه أحد أخصائي الأمراض العصبية بعد أن أخبروه بحالتـــه، بأنه حالة عصبية خاصة، وأن دراسته تؤكد هذا بشكل قاطع.

بشكل قاطع، إذن "جارثين" البائس مجنون.

في يوم من الأيام تلقى من أبيه، عجوز ينتمـــي إلـــى مقاطعـــة نورمانديا، وتاجر فقير، تلقى رسالة تقول ما معناه، تقريباً:

"أعرف ممارساتك الجنونية في باريس، إذا استمر وضعك على هذا الحال، لن تحصل مني على سنتيم واحد، تعال لتأخذ كتبـــك مـــن مخزني، وعندما تحرقها، أيها الكسول، وكذلك تحرق كتاباتك البلهاء، سوف تحصل على مالي".

قرأ علينا هذه الرسالة في مقهى "بلومبير".

- هل ستذهب؟.
- بالطبع لن تذهب؟.
- هل تقبل؟.
- هل تستخف بهذه الرسالة؟.

نحييك يا "جارثين"، قام بتمزيق الرسالة، وقفـــزت الـــدماء فـــي عروقه، وارتجل بعض المقاطع، التي تنتهي، فيما أذكـــر بالأبيـــات التالية:

نعم، أنت كسول دائماً،

وهو ما أحييك عليه وأهنئك

مادام عقلي سيظل
قفصاً لطائرٍ أزرق.

تغير حال "جارثين" منذ ذلك الوقت، تحول إلى ثرثار كثير الكلام، وغرق في حالة من السعادة، اشترى سترة جديدة، وبدأ في كتابة قصيدة ثلاثية، تحمل عنوان، بالطبع: ***الطائر الأزرق.***

كل ليلة في لقائنا يقرأ علينا جزءاً جديداً من القصيدة، كانت رائعة، وخارجة عن المعتاد.

كانت السماء جميلة جداً، ورفقة لطيفة جداً، بلاد تنبت كما لو كانت سحر فرشاة "كورّوت"، وجوه أطفال تطل من بين الزهور، وعينا "تيني" دامعتان وكبيرتان، وبالإضافة إلى هذا، فإن الله الطيب كان يرسل طائراً أزرق يطير، يطير على كل هذا، ودون أن نعرف كيف؟ ولا متى، بنى عشه في عقل الشاعر، حيث بقي سجيناً. عندما كان يريد الطائر الطيران، ويفتح جناحيه، ترتطمان بجدار الجمجمة، يرفع عينيه إلى السماء، ويقطب جبينه ويشرب كأسه بقليل من الماء، مدخناً أيضاً، سيجارة من الورق.

إنها القصيدة هنا.

في إحدى الليالي جاء "جارثين" ضاحكاً، ومع ذلك كان حزيناً.

لقد حملوا الجارة الجميلة إلى المقابر.

- نبأ عاجل، نبأ عاجل، أغني لكم آخر جزء من قصيدتي:

"تيني" ماتت،
الربيع يأتي و"تيني" تذهب،
أوفر زهرات الفيوليت للرفاق.

وينقص الآن آخر جزء من القصيدة، اعرف أن الناشرين لـن يكلفوا أنفسهم ولا حتى مجرد قراءة أبيـاتي الشـعرية، وأنـتم ستنفضّون عني قريباً، إنه قانون الزمن، ونهاية القصيدة يجب أن يكون عنوانها هكذا:

كيف يطير الطائر الأزرق باتجاه السماء الزرقاء؟

كان الربيع في تمامه، والأشجار مزهرة، والسحابات وردية عند الشروق، وشاحبة وقت الغروب، الهواء الرقيق الذي يحـرك أوراق الأشجار، يثير الأفرع الجافة بحفيف خاص، لكن "جارثين" لم يـذهب إلى الحقل.

إنه هناك، قادم مرتدياً بدلة جديدة بإتجاه مقهانا المحبب "مقهـي بلومبير"، كان شاحباً، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.

– يا أصدقائي، عانقوني، عانقوني جميعاً، هكذا بقوة، ودعوني، بكل قلوبكم، بكل إحاسيسكم، ... فالطائر الأزرق يطير...

ثم بكى "جارثين" المسكين، صافحنا، وشد على أيدينا بكل قـواه وإيمانه.

قلنا له جميعاً:

– "جارثين"، الابن المدهش، يبحـث عـن أبيـه، النورمانـدي العجوز، يا ربات الإلهام، وداعاً، وداعاً، وشكراً، لقد قـرر شـاعرنا اختبار قواه، إيه، فلنشرب كأساً في نخب "جارثين".

جميعنا رواد مقهى "بلومبير" كنا في اليـوم التـالي، شـاحبين، مرتعبين، والحزن على الوجوه، التقينا في غرفة "جارثين". كان هـو في سريره، على الشراشف المخضبة بالدماء، وجمجمتـه حطمتهـا رصاصة واحدة، وكان على الوسادة بعض من مخه... كان رهيباً.

بعد أن أفقنا من ذهولنا، استطعنا أن نبكي أمام جسد صديقنا، ووجدنا إنه كان يحمل معه قصيدته الشهيرة. وفي الصفحات كتب الكلمات التالية:

"اليوم،

في اكتمال الربيع،

اترك باب القفص مفتوحًا للطائر الأزرق المسكين".

آي، "جارثين"، ما أكثر من يحملون في عقولهم الطائر نفسه.

الحورية

حكاية باريسية

كنا ستة من الأصدقاء في القلعة التي اشترتها "ليسبيا" مؤخراً، تلك الممثلة الطموحة والمجنونة التي شغلت العالم بتصرفاتها الغريبة، كنا نجلس إلى المائدة، فيما كانت "اسباسيا" تجلس على رأسها، كطفلة محبة للحلوى، تمضي وقتها في امتصاص قطعة من الحلوى السكرية الطازجة، البيضاء، بين أطراف أصابعها المحمرة. كانت الوقت ساعة تناول الشاي، فيما الأحجار الكريمة تنعكس على زجاج المائدة كحلم مجهض، وأضواء الشمعدانات تضيع في الكؤوس نصف المملوءة، التي تبقى فيها القليل من السائل الضارب إلى الاحمرار، والقليل من الشمبانيا الذهبية، والسائل التركوازي لشراب النعناع.

كانت تتحدث باندفاع فنان موهوب، بعد غداء طيب. كنا جميعاً فنانين، من بيننا من هو أفضل من الآخر، وبيننا حكيم ممتلئ يحمل على قمة استدارة كرشه العذري ربطة عنق ضخمة.

قال أحدهم: "آه، نعم، إنها "فرميت" ومن "فرميت" انتقلنا إلى حيواناتها، وأزميلها المحترف، وكلبين من البرونز، بالقرب منا، أحدهما يبحث عن الفريسة والآخر كما لو كان يتطلع إلى الصياد، يرفع رقبته ويحرك ذيله النحيل المستقيم القوي. من تحدث عن المتلصص؟ إنه الحكيم، الذي تلا بالإغريقية قصيدة: "أيها الصياد خذ صيدك بعيداً عن قطيع أبقارك، وإلا فإنك ستكون، كمن يتنفس كالبقرة المتلصصة، كما لو تريد أن تأخذها معك".

انتهت "ليسبيا" للتو من امتصاص سكرها، وقالت بقهقهة أرجنتينية:

- باه، هذه المسوخ أحب إليّ، كنت أريد أن أمنح الحياة لتماثيلي البرونزية، ولو كان هذا ممكناً، فإن عشيقي سيكون احد هؤلاء العوّائين أنصاف الآلهة. أنبهكم إلى إنني أعشق هذه الحيوانات أكثر من المسوخ، ومستعدة لترك نفسي بين يدي أحد هذه الوحوش القوية، فقط لأستمع إلى شكوى المخدوعين، وهم يعزفون على ناياتهم المليئة بالحزن.

قاطعها الحكيم:

- المسوخ والآلهة، والوحوش وعرائس البحر، وُجِدوا في الدنيا، تماماً كالسلمندرات وطائر الفينيق.

ضحكنا جميعاً، ولكن ما بين قهقهات المجموعة، كان صوت الجميلة "ليسبيا" مسموعاً بوجهها المشتعل كامرأة جميلة تبدو مشعة باللذة.

واصل الحكيم:

- نعم، بأي حق نُنكر نحن المحدثين واقعاً أكده القدامى؟ الكلب العظيم الذي شاهده الإسكندر، بارتفاع قامة إنسان، إنه حقيقة، تماماً كعنكبوت "كاركن" الذي يعيش في أعماق البحار. والقديس "انطونيو الناسك"، البالغ التسعين من العمر، ذهب بحثاً عن العجوز "بابلو" الناسك في الجبال، الذي يعيش في كهف. "ليسبيا"، لا تضحكي، فقد كان القديس يبحث عن العاقر، معتمداً على عكازه، دون أن يعرف أين سيعثر على مَنْ يبحث عنه. وبعد كثير من السير، هل تعرفون من دله على الطريق الذي كان عليه أن

يسلكه؟ إنه مسخ. "نصف إنسان نصف حصان"، كما يقول المؤلف، كان يتكلم مثل ممسوس، هرب بسرعة كبيرة حتى فقده القديس من أمام عينيه، وكان المسخ يتقافز، شعره في السماء وبطنه على الأرض. في تلك الرحلة نفسها، شاهد القديس "انطونيو" مسخاً، "إنسان له هيئة غريبة، كان بالقرب من جدول، انفه معقوف، وجبهته خشنة ومجعدة، وأسفل بطنه يعتمد على حوافر ماعز".

قالت "ليسبيا":

– تماماً، فقد كان "كوكورو" عضو المعهد المستقبلي.

واصل الحكيم:

– يؤكد القديس "خيرونيمو" إنه في زمن "قسطنطين الساحر" قاد إلى الإسكندرية مسخاً حياً، واحتفظوا بجسده بعد موته، إضافة إلى هذا، شاهده الإمبراطور "انتوكيا".

كانت "ليسبيا" قد ملأت كأسها بالنعناع من جديد، وبللت لسانها في الشراب الأخضر، تماماً كما يفعل حيوان من فصيلة القطط.

– يقول "البيرتو ماجينو" إنه في زمنه عثروا على اثنين من المسوخ في جبال الساكسون. ويؤكد "انريكو ثورمانو" إنه في بلاد التتار كان هناك رجال بساق واحدة، وبذراع واحدة في الصدر. وشاهد "فينثينو" في زمنه وحشاً جاءوا به إلى ملك فرنسا، له رأس كلب (تضحك ليسبيا)، وعضلاته وذراعاه ويداه عارية من الشعر مثلنا (تهتز ليسبيا كطفل يدغدغونه)، كان يأكل لحماً مطبوخاً، ويشرب النبيذ بشراهة.

صرخت ليسبيا:

– "كولومبين"!.

وجاء "كولومبين"، إنه كلب يبـــدو كما لو كان مكعباً من القطن. أخذته سيدته بين يديها، وما بين انفجار ضحكات الآخرين قالت:

– خذ، إنه المسخ الذي كان على شاكلته!

وقبلته في فمه، فيما كان الحيوان ينفخ أنفه كما لو كان مفعماً بالشهوانية.

أنهي الحكيم حديثه برقة:

– و"فيليجون تاليانو" يؤكد وجود نوعين من المسوخ، أحدها كالفيل.

قالت "ليسبيا" وقد أنهت كأس النعناع:

– كفى علماً، أنا كنت سعيدة، ولم أفتح شفتي بعد.

صرخت:

– أوه، بالنسبة لي إنها الحوريات، إنني متشوقة لرؤية تلك العاريات في الغابات والينابيع، لكن الحوريات أكذوبة!

انتهى هذا اللقاء السعيد بانطلاق ضحكة كبيرة.

قالت لي "ليسبيا"، وهي تحرقني بعينيها وصوتها الهامس حتى أسمعه أنا وحدي:

– وماذا بعد، الحوريات حقيقة واقعية، وستراهن أنت!

كان يوماً ربيعياً. كنت أتصعلك في حدائق القلعة، وتبدو عليّ هيئة حالم قاسي. والطيور تصرخ على زهور الليلك المتفتحة، وتهاجم جعارين تدافع عن نفسها بدروعها اللازوردية، ومنقايرها المذهبة المدرعة. وبين الزهور القانية، والأقحوانية، تصدر دوائر من العطر الجميل، تنتشر أقوى من القرنفلات، في جماعات كبيرة، بألوانها الوديعة العذرية. بعد ذلك، الأشجار العالية، والأفرع المتهدلة

المليئة بالزنابير، والتماثيل تحت الظلال، وتماثيل رماة الأقراص البرونزية، والمصارعون ذوي العضلات في تشكيلاتهم الهندسية المرعبة، والساحات الفواحة المغطاة بأبوابها المتداخلة، والجذوع المستنسخة الجميلة، والأعمدة المنحوتة الشهوانية البيضاء. كنت أتصعلك بين شراك تلك الروائع عندما سمعت ضجة، هناك بين ظلال الأشجار المتشابكة، في البحيرة حيث توجد الإوزات البيض التي تبدو كمنحوتات من الرخام، وأخريات نصف أعناقها بلون الأبنوس، كساق شفقية بجورب أسود.

اقتربت أكثر، ترى هل كنت أحلم؟، "نوما" لقد شعرت مثلك، عندما شاهدت "ايخيريا" لأول مرة في سجنها.

كانت في منتصف البحيرة، بين الضجة والإوزات الفزعة، جذعها كان على السطح الرغوي يبدو ذهبياً أحياناً بفعل انعكاس الضوء الشارد القادم من بين انفراجات الأوراق. آه، أنا شاهدت الليلك، والأزهار، والجليد والذهب، رأيت مثالاً في تشكل حياتي، وسمعت، ما بين زخات المياه التي تطلقها الحورية الجريحة، صوت ضحكة ساخرة ومتناغمة أشعلت دمي.

فجأة هربت الرؤية، لقد ظهرت حورية البحيرة، كانت تشبه في تموجاتها "آلة موسيقية"، تجمع خصلات شعرها، التي تتساقط منها قطرات لامعة، هرولتْ بين أشجار الورد، واختبأتْ خلف الليالك والقرنفلات، وراء الأشجار المتشابكة، حتى اختفت. آي، في منعطف بين الأشجار بقيت أنا الشاعر الغنائي، متحسراً، والطيور محيطة بي كما لو كانت تسخر مني، تمد إليّ أعناقها الطويلة بمناقيرها اللامعة.

بعد ذلك، كنت أتناول طعام الغداء مع رفاق الليلة الماضية، كان يجلس بين الجميع، مغتراً بكرشه وربطة عنقه الضخمة، المعلم السمين، عضو المعهد المستقبلي.

فجأة، وبينما كان الجميع يتحدث عن آخر أعمال "فيرميت" في الصالون، هتفت "ليسبيا" بصوتها الباريسي السعيد:

- أنت، كما يقول "تارتارين"، الشاعر أنت من شاهد الحوريات...

تأملها الجميع في ذهول، فيما كانت هي تنظر إليّ، تنظر إليّ بعيني قطة، وتضحك كطفلة يدغدغونها.

جابرييل جارثيا ماركيز (*)

(كولومبيا)

Gabriel García Márquez

(*) جابرييل جارثيا ماركيز Gabriel García Márquez ولد في شمال كولومبيا عام 1928. ترك دراسة القانون ليعمل في الصحافة وقد عمل مراسلا في أوربا لعدة صحف، ومجلات كولومبية، ومكسيكية. حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1982. أهم مؤلفاته: مائة عام من العزلة، خريف البطريق، الكولونيل لا يجد من يكاتبه، جنازة الأم الكبيرة، الورقة الجافة، وقائع موت معلن، حكاية ايرنديرا البرئية، إضافة إلى مذكراته الشخصية الصادرة بعنوان: أن تعيش لتحكي.

رجل عجوز جداً بأجنحة ضخمة

في اليوم الثالث من سقوط الأمطار، كانوا قد قتلوا في البيت، الكثير من الكابوريا، وكان على "بيلايو" أن يعبر الفناء الموحل ليلقي بها في البحر، فيما قضى الطفل المولود حديثاً الليل محموماً، وكان من المعتقد أن هذه الحمى نتيجة للوباء، كانت الدنيا تبدو حزينة منذ يوم الثلاثاء، والسماء تُعانق البحر في اللون الرمادي، وتلمع رمال الشاطيء تحت شمس مارس كتراب مشتعل، فتبدو كحساء من الوحل والمحار المتعفن، كان الضوء في منتصف النهار أليفاً جداً، وعندما عاد "بيلايو"، في طريقه إلى البيت، بعد أن ألقى بالكابوريا، بذل جهداً كبيراً ليرى ذلك الشيء، الذي كان يتحرك ويتأوه في آخر الفناء، وكان عليه أن يقترب كثيراً ليكتشف أن ذلك الشيء كان رجلاً عجوزاً، مكوماً، وفمه غارقٌ في الوحل. ورغم جهوده التي كان يبذلها، إلا إنه لم يكن قادراً على الوقوف، لأن جناحيه الكبيرين، كانا يعوقانه.

أصاب "بيلايو" الفزع من ذلك الكابوس، فركض بحثاً عن "أليسيندا"، زوجته، التي كانت تضع الكمّادات على جبهة الطفل المريض، وقادها إلى نهاية الفناء، فشاهدا معاً الجسد المُلقى في ذهول وصمت، لم يكن على ذلك الجسد سوى القليل من الخرق البالية، التي بدت كنسالات كالحة اللون على رأسه الأجرد، وفي فمه قليل من الأسنان، حالته السيئة جردته من كل هيبته، أما أجنحته الدجاجية الضخمة، فقد كانت قذرة ونصف خالية من الريش، وتبدو كما لو أنها

غُرست في الوحل إلى الأبد، راقباه طويلاً وباهتمام شديد، إلا إن "بيلايو" و"أليسيندا" سرعان ما استعادا رباطة جأشهما، وانتهيا إلى التآلف مع وجوده، وتجرآ على الحديث معه، فأجابهما بلهجة غير مفهومة، لكنها تنم عن صوت بحار لطيف، وهذا ما جعلهما يتغاضيان عن وجود تلك الأجنحة غير المناسبة، واستنتجا بحسن نية أنه غريق، وحيد، نجا من إحدى السفن الأجنبية التي حطمتها العاصفة. إلا إنهما استدعيا جارتهما التي تعرف أشياء كثيرة، عن الحياة، والموت، لتتفحصه، وما أن ألقت نظرة سريعة، حتى اكتشفت الخطأ الذي وقعا فيه، وقالت لهما:

- إنه ملاك... مؤكد أنه جاء من أجل الطفل، إلا إن المسكين كان عجوزاً جداً فصرعته الأمطار.

في اليوم التالي كان كل الناس، يعرفون أن في بيت "بيلايو"، ملاكاً أسيراً من لحم ودمّ، وعلى خلاف رأي الجارة العرافة، التي كانت ترى أن ملائكة هذا الزمان ليسوا سوى من تبقوا أحياء، ونجوا من مؤامرة سماوية، فإنه لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لقتله ضرباً بالعصي.

ظل "بيلايو" يراقبه طوال المساء من نافذة المطبخ، كان مسلحاً بالهراوة التي يمارس بها عمله كحارس في البلدية، وقبل أن يخلد إلى النوم، أخرجه، وجرجره في الوحل، وحبسه مع الدجاج، في الحظيرة التي تحيط بها الأسلاك. في منتصف الليل، عندما توقف المطر كان "بيلايو" و"أليسيندا" مستمرين في قتل الكابوريا. بعد قليل استيقظ الطفل، معافى من الحمى، ولديه رغبة في تناول الطعام، عندئذ شعرا بالشهامة، وقررا أن يضعا الملاك على طوف، مزود بماء حلو،

وطعام يكفيه لثلاثة أيام، وتركه لمواجهة قدره في أعالي البحار. لكن عندما خرجا إلى الفناء، مع بزوغ أضواء النهار الأولى، وجدا جميع سكان المنطقة أمام حظيرة الدجاج، يداعبون الملاك بلا خوف، ويلقون إليه بالأطعمة عبر فتحات الأسلاك، كما لو كان حيوان سيرك، وليس مخلوقاً غير طبيعي.

وصل الأب "جونثاجا" قبل السابعة صباحاً، وقد أفزعه الخبر المزعج. في تلك الساعة كان هناك العديد من الفضوليين، أقل إزعاجاً من أولئك الذين حضروا مبكراً، وناقشوا كل أنواع الفرضيات حول مستقبل ذلك الأسير، البسطاء منهم، اعتقدوا أنه سوف يتم ترسيمه رئيساً للعالم، آخرون من ذوى الأحاسيس الشحيحة افترضوا أنه سوف يتم ترقيته إلى درجة جنرال، بخمس نجوم، ليكسب جميع الحروب، أما بعض ذوي البصيرة النافذة، فقد توقعوا أن يتم الحفاظ عليه لاستعماله في إنجاب ذرية في الأرض، من الرجال المحنكين، ذوي الأجنحة، ليتولوا مهمة حكم الكون. إلا إن الأب "جونثاجا" الذي كان حطّاباً، قبل أن يتم ترسيمه قساً، ألقى نظرة عبر الأسلاك، وراجع كتاب أصول الدين للحظات، ثم طلب أن يفتحوا له الباب، ليتفحص ذلك الذكر المسكين عن قرب، والذي كان يبدو كدجاجة ضخمة، عاجزة، ترقد بين الدجاج الذاهل، كان العجوز مستلقياً في أحد الأركان، يجفف أجنحته المفرودة تحت أشعة الشمس، وتحيط به قشور الفاكهة، وبقايا طعام الإفطار التي ألقى بها إليه المبكرون في الحضور، وكان ذاهلاً عما يجري من حوله، ولم يكد يرفع عينية ويهمهم بلهجته شيئاً، حتى رأى الأب "جونثاجا" يدخل الحظيرة، ويلقى عليه تحية الصباح باللاتينية، بدت على القس علامات الشك الأولى، عندما تأكد من أنه لم يفهم لغة الله، ولا يعرف كيف يحيي مبعوثيه، ثم

لاحظ بعد ذلك أن مشاهدته عن قرب، تؤكد أنه أقرب إلى الإنسان، له رائحة قذارة لا تحتمل، وباطن الأجنحة مملوء بالطحالب الطفيلية، والريش الكبير أصابته ريح الأرض بالتلف، ولاشيء من طبيعته البائسة يتطابق مع جلال عظمة الملائكة، غادر القس الحظيرة وحذّر المتطفلين في خطبة قصيرة من أخطار السذاجة، وذكّرهم أن الشيطان لديه عادة سيئة، بلجوئه إلى فنون التنكر الاحتفالية، ليغش المندفعين، وذكّرهم بأنه إذا كانت الأجنحة لا تُعتبر الفارق الجوهري بين الباشق، والطائرة، فإنه لا يمكن اتخاذها سبيلاً للتعرف على الملائكة. لكنه وعد بكتابة رسالة إلى الأسقف، ليكتب هذا بدوره رسالة أخرى لرئيسه، وليكتب ذاك رسالة أخرى إلى صاحب القداسة البابا، حتى يأتي الحكم النهائي من الجهات العليا.

تحذير القس لم يجد آذاناً صاغية، فانتشر خبر الملاك الأسير بسرعة، لدرجة أنه في ساعات قليلة، تحوّل الفناء إلى سوق يموج بالزوار، مما تطلب معه إحضار قوات الأمن ذات الخوذات، لإبعاد الضجة التي كانت على وشك أن تهدم البيت، أما "أليسيندا"، التي أعياها إزالة قاذورات السوق، فقد طرأت على ذهنها فكرة طيبة، بإحاطة الفناء بسور، وتحصيل خمس سنتات كرسم دخول، لمشاهدة الملاك.

جاء الفضوليون من أقصى البلاد، وجاءت فرقة متجولة، تضم لاعب أكروبات طائر، طار عدة مرات فوق رؤوس الجموع، ولكن أحداً لم يعره انتباهاً، لأن أجنحته لم تكن لملاك بل أجنحة وطواط، وجاء المرضى من أقصى الكاريبي، بحثاً عن الشفاء، امرأة مسكينة كانت تُحصي منذ طفولتها عدد دقات قلبها، ولم تعد تعرف الأرقام التي وصلتها، ورجل جامايكي لا يستطيع النوم، لأن ضوضاء النجوم

تقلقه، ومصاب بداء السير أثناء النوم، كان يستيقظ أثناء الليل ليهدم ما صنعه أثناء يقظته، وغيرهم كثيرون لديهم أمراض أقل خطورة. في وسط كل هذه الفوضى التي كانت تزلزل الأرض، كان "بيلايو" و"أليسيندا" سعيدين بالتعب، لأنهما ملآ الغرف بالأموال في أقل من أسبوع، ولا يزال طابور الحجيج الذين ينتظرون دورهم للدخول، يصل إلى الطرف الآخر من الأفق.

كان الملاك هو الوحيد الذي لا يشارك في هذا الحدث، يمضي الوقت بحثاً عن أنسب مكان في عشه المؤقت، ليحتمي من حرارة جحيم قناديل الزيت، وشموع النذور التي يقربونها من الأسلاك. حاولوا في البداية أن يقدموا له زجاجات الكافور، كطعام لأن الجارة العرافة قالت إنه الطعام الخاص بالملائكة، إلا إنه كان لا يعيرها اهتماماً كما فعل مع أوراق الأغذية التي كانوا يلقونها إليه، ولم يُعرف على وجه التحديد، إن كان ذلك لأنه ملاك، أم لأنه عجوز، ثم انتهى إلى الإقبال على أكل سلاطة الباذنجان، ويبدو أن فضيلته الوحيدة غير الطبيعية هي الصبر، خاصة في الفترة الأولى، عندما كانت الدجاجات تنقره بحثاً عن الفطريات الطفيلية النابتة على أجنحته، وكان العجزة ينزعون ريشه ليلمسوا بها عاهاتهم، حتى الأناس الأكثر رحمة به، كانوا يقذفونه بالحجارة محاولين إجباره على الوقوف ليروا جسده كاملاً، المرة الوحيدة التي تمكنوا فيها من إثارته كانت عندما أحرقوا ضلوعه بقضيب من الحديد الساخن، من ذلك النوع الذي يضعون به علامات على الثيران، لأنه كان قد أمضى ساعات طوال دون حركة، فاعتقدوا أنه ميت، استيقظ فزعاً، هانياً في لغة مبهمة، والدموع تلمع في عينيه، وخبط بأجنحته خبطتين تسببتا في إحداث دوامة هوائية أثارت الروث، والتراب، وأحدثتا ريحاً من الفزع، لا يشبهها شيء في

هذا العالم، ورغم أن العديدين اعتقدوا أن ثورته لم تكن غضباً بل من شدة الألم، إلا إنه منذ ذلك الحين، احترسوا ألا يزعجوه، لأن الأغلبية فهمت أن سلبيته ليست صادرة عن بطل معتزل، بل صادرة عن بركان ساكن.

واجه الأب "جونثاجا" طيش الجموع الحاشدة بحل مُستلهم من المكان ذاته، إلى أن يصله حكم نهائي حول طبيعة الأسير. إلا إن بريد روما كان قد افتقد إلى حساسية السرعة، فقد أضاعوا الوقت في التحري عما إذا كان الملاك له حبل سري، أم أن لهجته لها علاقة باللغة الآرامية، أم إن كان بإمكانه أن يمر عدة مرات على رأس دبوس صغير، أم أنه ببساطة، ليس إلا بحاراً نرويجياً مجنحاً، تلك الرسائل الرصينة، كان يمكنها أن تذهب وتأتي حتى نهاية قرون من الزمان، ما لم يقع حدث إلهي يضع حداً لمحنة القس.

حدث أنه في تلك الأيام، من بين الألعاب الكثيرة لأعياد الكاريبي المتنقلة، أن جاء إلى القرية استعراض حزين، لامرأة كانت قد تحولت إلى عنكبوت لعصيانها أوامر أبويها، وتذكرة الدخول لمشاهدتها لم تكن فقط تكلف أقل من تذكرة الدخول لرؤية الملاك، بل إنهم كانوا يسمحون بأن يقوم الرواد، بتوجيه جميع أنواع الأسئلة إليها، ولمسها من جميع الجوانب، حتى لا يكون لدى أحد شك حول حقيقة مأساتها، كانت عبارة عن جدث مرعب، في حجم الجمجمة، ولها رأس فتاة حزينة، إلا إن الأكثر جذباً إليها، لم تكن صورتها المبالغ فيها، بل لهجتها الجادة، التي كانت تقص بها تفاصيل سوء طالعها: هربت من بيت أسرتها عندما كانت في سن الطفولة تقريباً، لتذهب إلى حفل

راقص، وعند عودتها عبر الغابة، بعد أن كانت قد رقصت طوال الليل دون إذن، هبت عاصفة مرعبة قصمت السماء إلى نصفين، ومن هذا الشق خرج برق كبريتي حولها إلى عنكبوت. كان غذاؤها الوحيد، كرات من اللحم المفروم الذي تقذفه في فمها الأرواح الطيبة. إن مثل هذا الاستعراض المشحون بالعديد من الحقائق الإنسانية، والعقاب المخيف، كان يمكنه أن يهزم ما يقدمه مشهد الملاك الساكن الذي يكاد لا يهتم بالنظر إلى البشر. إضافة إلى أن المعجزات القليلة التي تُنسب إلى الملاك، تدل على تشوش عقلي حقيقي، مثلاً ذلك الأعمى الذي لم يستعد بصره، ولكن نبتت له أسنان جديدة، والمشلول الذي لم يتمكن من السباحة، إلا إنه كان على وشك أن يربح اليانصيب، وحكاية الأبرص الذي نبتت في جروحه زهور عباد الشمس، تلك المعجزات القليلة لم تكن سوى نوع من الحكايات الساخرة التي تهدف إلى تزجية الوقت، كل تلك الحكايات كانت قد أساءت إلى سمعة الملاك، ثم جاءت المرأة التي تحولت إلى عنكبوت، لتقضي على سمعته تماماً. وهكذا فقد شُفي الأب "جونثاجا" من أرقه إلى الأبد، وعاد فناء "بيلايو" إلى عزلته كما كان في ذلك الزمن، الذي هطلت فيه الأمطار ثلاثة أيام متوالية، وكانت الكابوريا تتجول في جميع غرف النوم.

لم يتحسر أصحاب البيت على أي شيء، فقد بنوا بالأموال التي حصلوا عليها داراً من طابقين، بشرفات، وحدائق، ولها عتبات مرتفعة جداً، حتى لا تدخل الكابوريا في الشتاء، وعلى شبابيكها قضبان حديدية، تمنع الملائكة من التسلل إليها، وأقام "بيلايو" أيضاً،

بالقرب من القرية مزرعة لتربية الأرانب، وترك إلى الأبد عمله السابق كحارس في البلدية، واشترت "أليسيندا" أحذية مكسوة بقماش الستان، ولها كعوب عالية، والكثير من الفساتين من الحرير البراق، من تلك التي كانت ترتديها نساء تلك الأيام الطموحات، في أيام الآحاد، كانت الحظيرة المكان الوحيد الذي لم يحظ بأية عناية تذكر، وإذا كانوا قد غسلوها في بعض الأحيان، بمطهر، وبخّروها بدموع الصبر، فإن ذلك لم يكن تكريماً للملاك، بل لمنع انتشار الطاعون الذي كان يسري في تلك الأيام، كشبح يتنقل من مكان إلى آخر، وكان البيت القديم يبدو متهالكاً، عندما بدأ الطفل يتعلم المشي كانوا يحترسون ألا يقترب من الحظيرة، بعد ذلك بدأوا في نسيان الخوف، والاعتياد على وجود ذلك الحيوان، وقبل أن يبدّل الطفل أسنانه، دخل ليلعب في الحظيرة، التي كانت أسلاكها المتهالكة، تتساقط قطعاً قطعاً، والملاك لم يكن متجافياً معه، كما كان يفعل مع الآخرين، لكنه كان يتحمل الإهانات، ككلب مستسلم، فأصيب كلاهما بداء الحصبة في نفس الوقت، والطبيب الذي عالج الطفل، لم يستطع مقاومة إغراء فحص الملاك، فوجد شهيقاً عظيماً في القلب، وأصواتاً مزعجة جداً في الكُلى، مما يتعذر معه أن يكون صاحبهما على قيد الحياة. ومع ذلك فإن الذي أدهشه هو طبيعية أجنحته، فقد كانا طبيعيين في تركيبهما العضوي، لهذا الجسد البشري، لدرجة أنه لم يفهم لماذا لا يوجد مثلهما في أجساد البشر الآخرين؟!

عندما ذهب الطفل إلى المدرسة، كانت الشمس والأمطار قد خربتا الحظيرة، منذ فترة طويلة. وكان الملاك يزحف من هنا إلى هناك

كمحتضر لا صاحب له، يخرجونه من غرفة النوم، ضرباً بالمقشات، وبعد دقيقة واحدة، يجدونه في المطبخ، يبدو كما لو كان يوجد في أماكن متعددة في وقت واحد، حتى أنهم اعتقدوا إنه ينشطر، ويكرر نفسه في كل البيت، وكانت "أليسيندا" الحانقة، تصرخ بعصبية، بأنها مأساة أن تعيش في ذلك الجحيم الغاص بالملائكة، لم يكن الملاك يكاد يأكل، وكانت عيناه اللتان تشبهان عينيْ بائع عاديات، أصابهما الوهن، فيسير متعثراً في الأعمدة، ولم يعد في أجنحته سوى القليل من الزغب المنحول. غطاه "بيلايو" ببطانية، وأشفق عليه، فتركه ينام تحت السقيفة، وعندها انتبهوا إلى أنه كان يُمضي الليل هاذياً بكلمات غير مفهومة، كنرويجي عجوز، وكانت تلك واحدة من المرات القليلة التي أصيبوا فيها بالانزعاج، فقد اعتقدوا أنه على وشك الموت، ولم تتمكن الجارة العرافة من أن تقول لهم، ماذا يفعلون بالملائكة الموتى؟!

مع ذلك، فإنه لم يتمكن فقط من التغلب على أسوأ شتاء مر به، بل بدت عليه العافية مع سطوع شمس الأيام الأولى، ظل ساكناً في أقصى ركن من الفناء، أياماً طوالاً، حيث لا يستطع أن يراه أحد، ومع بدايات شهر سبتمبر، بدأ ينبت في أجنحته ريش كبير، لطائر ضخم عجوز، كان تبدو كعلامات الشيخوخة، إلا إنه ربما كان يعرف أسباب تلك التغيرات، لأنه كان حريصاً على ألا يلحظه أي إنسان، وألا يسمع أي شخص أغاني البحارة التي كان يغنيها أحياناً تحت أضواء النجوم، وفي صباح أحد الأيام كانت "أليسيندا" تقطع حلقات من البصل، لإعداد طعام الغداء، فدخلت المطبخ ريح تبدو كما لو

كانت تهب من أعالي البحار، حينئذ أطلت من النافذة وفاجأت الملاك في محاولاته الأولى للطيران، كانت محاولات متعثرة جداً إلى درجة أنه فتح بأظافره مجرى كالمحراث بين الخضروات، وكان على وشك أن يهدم السقيفة بضرباته التي انزلقت في الضوء، ولم تجد فرصة في الهواء، إلا إنه استطاع أن يحقق ارتفاعاً، عندها زفرت "أليسيندا" زفرة ارتياح من أجلها ومن أجله، وعندما شاهدته يمرق أعلى آخر البيوت وهو يضرب الهواء بضربات نسر عجوز، ظلت تتابعه حتى انتهت من تقطيع البصل، وظلت تتابعه إلى أن أصبحت رؤيته غير ممكنة، وعندما أصبح نقطة خيالية في أفق البحر، شعرت أنها تخلصت من عبءٍ كبير.

الموت دائماً بعد الحب

لم يتبق من الزمن سوى ستة أشهر وأحد عشر يوماً على موت السناتور "اونيسيمو سانشيث" عندما التقى بالمرأة التي حلم بها طوال حياته، تعرف عليها في "روسال ديل بيري" (حديقة زهور بيري)، -وهي قرية متخيلة- تتحول في الليل مرفأ لسفن المهربين التي تجوب أعالي البحار، وفي النهار منعطف لا قيمة له في الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا مدى له، بعيد عن كل شيء حتى إنه لم يعد يشك أحد في إمكانية تأثيره في مصير إنسان آخر، حتى اسم القرية كان مثيراً للسخرية، الوردة الوحيدة التي كانت هناك قطفها السناتور "أونيسميو سانشيث" في الأمسية نفسها التي تعرّف فيها على "لاورا فارينا".

كانت محطة توقف إجبارية أثناء الحملة الانتخابية التي تجري كل أربع سنوات، وصلت سيارات الركاب الصغيرة، تتبعها شاحنات تحمل هنوداً تم استئجارهم ليكونوا جزءاً من الجماهير التي تحضر للاستماع للخطابات السياسية التي تُلقى، بدأت الموسيقى تعزف قبل الحادية عشرة بقليل وانطلقت الصواريخ النارية، وصلت بعدها السيارة الوزارية الحمراء اللون، كان السناتور "اونيسميو سانشيث" يبتسم وهو جالس داخل السيارة المكيفة، لكن ما أن انفتح الباب حتى ضربته لفحة هواء حارق، فغرق قميصه الحريري في بحر من العرق، وشعر لحظتها أنه تقدم في السن عدة سنوات، كان عمره وقتها لا يزيد عن الثانية والأربعين، تخرّج بمرتبة الشرف ليكون

مهندساً للحديد والصلب في "جوتيجا"، وكان أكثر الناس حرصاً على القراءة رغم أنه لم يقرأ الكثير للمؤلفين الذين يكتبون باللاتينية الذين تُرجمت أعمالهم بشكل رديء، تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء، وكان الجميع يعيشون في سعادة، وكان هو أكثرهم سعادة حتى جاءت اللحظة التي قالوا له قبل هذا الموعد بثلاثة أشهر أنه سيموت في أعياد الميلاد المقبلة.

خلال الاستعداد لإلقاء خطابه، تمكن السناتور من البقاء ساعة كاملة وحيداً في المنزل الذي أُعد لاستراحته، وقبل أن يستريح وضع في كوب الماء وردة طبيعية تمكن من الحفاظ عليها يانعة وسط الصحراء، تناول غداءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب، أحضرها معه تفادياً لأكل المحمص، الطعام الذي كان ينتظره خلال ما تبقى من اليوم، تناول بعد ذلك بعض الأقراص المسكنة قبل الموعد المحدد لتناولها ليسبق بها تأثير الآلام المنتظرة، ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من السرير الشبكي المعلق، وتمدد عارياً في ظل الوردة لخمسة عشر دقيقة، خلال تلك اللحظات، حاول جاهداً أن يُبعد فكرة الموت عن ذهنه، لم يكن يعرف أحد أنه سيموت في زمن محدد سوى الأطباء، لأنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يُدخل على حياته أي تغيير، فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

شعر بالسيطرة الكاملة على قواه الذهنية عندما عاد للظهور أمام الجماهير في حوالي الثالثة بعد الظهر، وقد أكمل هندامه مرتدياً بنطلوناً من الكتان، وقميصاً ملوناً بأشكال الزهور، وكان هادئاً نتيجة تناوله الأقراص المسكنة، إلا إن الموت أثر فيه بشكل أقسى مما

تصور. شعر عند صعوده إلى المنصة باحتقار غريب تجاه هؤلاء الذين تزاحموا لمصافحته، ولم يشعر بالشفقة لهؤلاء الحفاة الذين لا يحتملون حرارة بلاط هذه الساحة القاحلة كما حدث في مرات سابقة. أسكت التصفيق بإشارة آمرة كأنها تعبر عن حنقه، وأخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وعيناه مثبتتان على البحر الذي كان يهتز بفعل الحرارة، صوته رتيب وعميق كالمياه الساكنة، لكن خطابه الذي كان يحفظه، وكرره كثيراً، لم يخطر على باله أن يعلن فيه الحقيقة إلا لمقابلة مصير محتوم في الكتاب الرابع لمذكرات "ماركو أوريليو".

بدأ خطابه بشكل غير تقليدي:

– نحن هنا لنهزم الطبيعة، ولن نكون بعد اليوم لقطاء الوطن أو لقطاء الله في مملكة العطش، والضياع، ولن نكون غرباء على أرضنا، سنكون أناساً آخرين، أيها السيدات والسادة، سنكون عظماء وسعداء.

كانت هذه هي الصيغة التي تُقال في سيركه الخاص، وفي الوقت الذي كان يتحدث فيه كانت بطانته تقوم بإلقاء عصافير ورقية في الهواء فتدور حول المنصة المرتفعة، وتذهب لتسقط في البحر. في الوقت نفسه يقوم آخرون بإخراج أشجار اصطناعية كديكور المسرح من السيارات وإقامتها خلف الجماهير، وأخيراً قام مساعدوه بتركيب حائط كرتوني به صور بيوت من الطوب الأحمر، ونوافذ زجاجية ليغطوا على ملامح الحياة اليومية البائسة.

استمر السناتور في إلقاء خطابه، وأطال بذكر عبارات باللغة اللاتينية حتى يوفر الوقت لاكتمال الملهاة، وعد بأن يأتي لهم بماكينات تصنع المطر، ووحدات متنقلة لتربية الحيوانات المنزلية، وأن يأتي لهم بزيت السعادة الذي يساعد على زيادة نمو البقوليات في

الأصص، وكذا زهور البنفسج المعلقة على النوافذ. وعندما أدرك أن عالمه الخيالي أوشك على الاكتمال أشار بإصبعه إلى رسوم الديكور، وقال:

- سنكون هكذا أيها السيدات والسادة، سنكون هكذا.

نظر الجمهور إلى الخلف فوجد سفينة من عابرات المحيطات مرسومة، وهي تمر خلف بيوت أكثر ارتفاعاً من أعلى البيوت في المدينة المتخيلة، لاحظ السناتور-وحده- أن كثرة التفكيك والتركيب لهذه اللوحة، والانتقال بها من مكان إلى آخر أدى أصابها بالتمزق والتلف، وأصبح يعلوها التراب، فتبدو كئيبة مثل قرية "روسال ديل بييري".

لأول مرة منذ اثنتي عشر سنة لم يذهب "نيلسون فارينا" لتحية السناتور، وفضّل الاستماع إلى الخطاب، وهو مستلق على سريره تحت وطأة القيلولة تحت سقف تكسوه الخضرة، وهو بيت مبني من الألواح الخشنة، بناه بنفس اليدين اللتين كان يعمل بهما صيدلانياً، وهي نفسها التي مزق بهما زوجته الأولى أرباً، كان قد هرب من سجن "كايينا" وظهر في "روسال ديل بييري" قادماً على متن سفينة محملة بالببغاوات البرية، وترافقه امرأة زنجية جميلة سليطة اللسان، التقى بها في "باراماريبو" وأنجب منها طفلة، إلا إن المرأة توفيت بعد قليل من الزمن، ولم يكن حظها مثل الأولى التي مزقها لتسميد حديقته، بل دفنها مكتملة الجسد في مقابر القرية، ووضع اسمها الهولندي الأصل على قبرها. ورثت الابنة عن أمها لون بشرتها وقامتها، وورثت عن الأب عينيه الصفراوين المندهشتين، كانت لهذا الأب أسبابه ليعتقد أنه يربي أجمل امرأة في الدنيا.

منذ أن تعرّف "تيلسون فارينا" على السناتور "اونيسيمو سانشيث" في أول حملة انتخابية له، وهو يتوسل إليه أن يساعده في الحصول على بطاقة هوية مزيفة تنقذه من أيدي العدالة، كان رد السناتور دائماً رقيقاً وواثقاً بالرفض، لم يستسلم "تيلسون فارينا" مع مرور السنوات، وفي كل مرة يرى فيها السناتور يكرر طلبه بطرق شتى، إلا إن الإجابة كانت دائماً واحدة، ولذلك ظل هذه المرة في مكانه بعد أن شعر بأنه سينتهي في ملجأ القراصنة هذا، عندما سمع التصفيق الختامي للحفل أطل برأسه من فوق السياج فرأى مشهد الملهاة الخلفي: المسامير المدعمة للبيوت، والأشجار المرسومة، والرجال الذين اختبأوا وهم يدفعون عابرة المحيطات، فبصق غيظاً. وقال:

- حثالة.

قام السناتور بعد الخطاب- كما هي العادة- بالتجوال في شوارع القرية سيراً على الأقدام ترافقه الموسيقى، والألعاب النارية، ويحيط به سكان القرية وهم يقصّون عليهم متاعبهم، ويستمع السناتور إليهم باهتمام، ودائماً ما يردد عبارات المواساة دون أن يعدهم بشيء، كانت هناك سيدة تصرخ بصوتها رغم الضجيج وصوت المفرقعات النارية. قالت:

- لا أطلب الكثير أيها السناتور، لا أطلب غير حمار أحمل عليه الماء من بئر "اوركادو".

نظر السناتور إلى الأطفال السقماء الستة وسأل:

- ماذا يعمل زوجك؟

أجابت المرأة بمرح:

- ذهب بحثاً عن رزقه في جزيرة "أوربا"، ولكن ما عثر عليه هناك كان امرأة من تلك اللاتي يضعن الماس في أسنانهن.

أثارت هذه الإجابة عاصفة من الضحك، فقال السناتور:
- حسناً، سيكون لك حمارك.

بعد قليل ذهب أحد مساعديه إلى بيت المرأة، ومعه الحمار الذي كُتِبَ على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى لا ينسى أحد أنه هدية من السناتور.

في المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات وإشارات، منها منح ملعقة صغيرة لأحد المرضى كان قد خرج من بيته، وهو على سريره لمشاهدة السناتور، وعلى ناصية الشارع الأخيرة رأى "نيلسون فارينا" بين ألواح السياج، وبدا له ذابلاً فحياه تحية فاترة.

- كيف حالك؟.

تحرك "نيلسون فارينا" في سريره المعلق ثم تركه غارقاً في نظراته الحزينة، وقال:

- أنا، أنتم تعرفون...

خرجت ابنته إلى الفناء عندما سمعت التحية، كانت ترتدي جلباباً بالياً من جلابيب الفلاحات، وشعرها ملفوف بكرات متعددة الألوان، ووجهها مدهون لحمايته من أشعة الشمس، ورغم أنها كانت على هذا الوضع إلا إنه كان من الممكن تصور إنه ليس هناك من هي أجمل منها في هذه الدنيا. وقف السناتور جامداً، وتنهد بدهشة:

- عجباً، تبارك الله الخلاق!.

قام "نيلسون فارينا" في تلك الليلة بتزيين ابنته بأفضل ما لديها من ملابس وأرسلها إلى السناتور، طلب منها اثنان من الحراس المسلحين

الجالسين على الباب تحت وطأة القيلولة أن تنتظر على الكرسي الوحيد الموجود في الممر.

كان السناتور مجتمعاً في الغرفة المجاورة مع كبار سكان القرية، الذين جمعهم ليحكي لهم بعض الأسرار التي لا يبوح بها في خطاباته، كان الحاضرون يشبهون كثيراً هؤلاء الذين يحضرون هذه الجلسات من أبناء القرى الصحراوية إلى درجة أن السناتور كان يشعر بالملل الشديد من الجلسة نفسها التي تتكرر كل ليلة، يذوب قميصه من العرق، وحاول أن يخفف القميص وهو على جسده بتعريض نفسه للهواء الساخن الذي تحركه المروحة الكهربائية التي ينتشر طنينها في أنحاء الحجرة.

قال:

– بالطبع نحن لا نأكل عصافير ورقية، تعرفون إنه في اليوم الذي توجد فيه أشجار وزهور، وحظيرة للتيوس، وفي اليوم الذي تختفي فيه الديدان والحشرات من الآبار، لن يكون لنا وجود نحن جميعاً هنا، ألا أقول لكم الحقيقة؟.

لم يُجب أحد، في الوقت الذي أخذ يتحدث فيه جذب ورقة من أوراق النتيجة الحائطية لهذا العام وصنع منها فراشة، وطيّرها دون اكتراث باتجاه الهواء الذي تدفع به المروحة، فطارت الفراشة في أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب، ظل السناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت.

قال:

– عندها، ليس من الضروري أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه جيدا! إن إعادة انتخابي أفضل شيء بالنسبة لكم أكثر مني، فأنا كما ترون مُتعب ومُثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم.

شاهدت "لاورا فارينا" الفراشة الورقية تخرج، ولم يرها أحد غيرها، لأن الحارسين الموجودين في الممر كانا قد غرقا في النوم وهما جالسان على كراسيهما محتضنين سلاحيهما.

بعد عدة دورات تفككت الفراشة الضخمة ثم اصطدمت بالحائط والتصقت به. حاولت "لاورا فارينا" نزعها بأظافرها، كان أحد الجنود قد استيقظ على صوت التصفيق في الحجرة ولاحظ محاولتها غير المجدية، وقال شبه نائم:

– لا يمكن نزعها، إنها مرسومة على الحائط.

عادت "لاورا فارينا" إلى الجلوس من جديد عندما بدأ الحاضرون في مغادرة الاجتماع، وظل السناتور على باب الحجرة، ويده على المزلاج، ولم ينتبه إلى وجود "لاورا فارينا" إلا عندما خلا الممر من الناس.

– ماذا تفعلين هنا؟.

قالت:

– جئت تنفيذاً لأوامر أبي.

فهم السناتور، نظر باتجاه الحارسين المتناومين ثم تأمل "لاورا فارينا" وجمالها الجذاب الذي تجاوز حدود آلامه، وقرر حينها أن يتخذ الموت قراره نيابة عنه.

قال لها:

– ادخلي.

فغرت "لاورا فارينا" فمها وهي تقف على باب الحجرة، كانت

هناك الآلاف من الأوراق النقدية تطير في هواء الحجرة، وكأنها فراشات، أوقف السناتور المروحة فسقطت الأوراق متناثرة فوق محتويات الغرفة.

قال مبتسماً:

– ها أنتِ ترين أن القذارة أيضاً تطير.

جلست "لاورا فارينا" كما لو كانت تجلس على مقعد مدرسي. بشرتها ناعمة، ومشدودة، ولونها كلون البترول، وشعرها مصفف على هيئة عرف، نظراتها أكثر شفافية من النور، تابع السناتور خط بصرها إلى أن وصل إلى الوردة التي خبا بريقها بسبب النترون.

– إنها وردة.

قالت وقد علت وجهها ملامح الدهشة:

– نعم، شاهدت مثلها في "ريو اتشا".

جلس السناتور على السرير وأخذ يتحدث عن الوردة بينما كان يفك أزرار قميصه، وبرزت أضلاعه التي يمكن تخيل القلب من خلفها، كان هناك وشم يرسم قلباً يخترقه سهم، ألقى بالقميص المبلل على الأرض، وطلب من "لاورا فارينا" أن تساعده في خلع الحذاء ذي الرقبة المرتفعة، جلست على ركبتيها أمام السرير بينما ظل السناتور يتأملها مفكراً، فيما كانت تفك رباط الحذاء كان يتساءل أي منهما سيكون الفأل السيئ للآخر؟

– لا تزالين صغيرة!

قالت:

– لا تظن ذلك، سأكمل التاسعة عشرة في ابريل.

أبدى السناتور اهتماماً.

- في أي يوم؟.

قالت:

- الحادي عشر.

شعر السناتور بالتحسن فقال مبتسماً:

- كلانا من برج "الجدي"، إنه برج العزلة والتوحد.

لم تبد "لاورا فارينا" اهتماماً بما يقول حيث كانت مشغولة بفك أربطة الحذاء، كما إن السناتور نفسه لم يكن يدري بما يجب أن يفعله مع "لاروا فارينا" فهو معتاد على أنواع الحب الطارئ، كما إنه كان واثقاً من أن ذلك النوع من الحب مُؤسس على عدم التكافؤ، وحتى يجد لديه متسعاً من الوقت ضغط على "لاورا فارينا" بركبتيه واحتضن خصرها وألقى بظهره على السرير، عندها أدرك أنها لا ترتدي ملابس داخلية، فقد ندت عن جسدها رائحة غامضة لحيوان بري، لكن قلبها كان يرتعد خوفاً، وانتشر على بشرتها عرق بارد.

تنهد:

- لا أحد يريدنا.

أرادت "لاورا فارينا" أن تقول شيئاً لكن الهواء لم يسعفها إلا للتنفس، جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الضوء وبقي المكان في ظل الوردة، تركت هي نفسها تحت رحمة قدرها، قام السناتور بتحسسها في بطء وبحث عنها بيده، وما أن لمسها حتى اصطدمت يده بقطعة حديدية في المكان الذي اعتقد أنها فيه.

- ماذا تحملين؟.

قالت:

- إنه القفل.

قال السناتور بغضب متسائلاً عن ذلك الشيء الذي يعرفه جيداً:

– يا له من تناقض!، وأين المفتاح؟.

تنهدت "لاورا فارينا" بارتياح وأجابت:

– إنه مع أبي، لقد قال لي أن أغلقه، وعلى حضرتك أن ترسل في البحث عنه، وأن ترسل أيضاً وعداً مكتوباً بأنك ستساعده في حل مشكلته.

انتابت السناتور حالة من التوتر، وغمغم باستياء:

– يا له من ديوث فرنسي".

ثم أغمض عينيه ليسترخي وألقى بنفسه في الظلام. تذكر:

– أنت أو غيرك ستموتون خلال وقت قصير، وبعد ذلك لن يتبقى منكم أي شيء حتى الاسم.

انتظر لحظة حتى تنتهي الرعشة، وسألها:

– اخبريني، ماذا تعرفين عني؟.

– هل تريد الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؟.

– نعم الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؟.

تجرأت "لاورا فارينا":

– حسناً، إنهم يقولون انك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف عنهم.

لم يبد السناتور أي علامة على الغضب، صمت طويلاً وعيناه مغلقتان، وعندما فتحهما كان يبدو كما لو عاد من غرائزه الخفية. وقال معترفاً:

– عجباً، قولي للديوث أبيك إنني سأساعده في حل مشكلته.

قالت "لاورا فارينا":

– إذا أردت، سأذهب بنفسي للبحث عن المفتاح؟.

أمسك بها السناتور، وقال:

– عليك بنسيان المفتاح، وتمددي إلى جواري لبعض الوقت، جميل أن يكون هناك رفيق عندما يشعر الإنسان بالوحدة.

تركته ينام على كتفها وعيناه متطلعتان إلى الوردة، فاحتضنها السناتور وامسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذي تفوح منه رائحة حيوان بري واستسلم للرعب. بعد ستة أشهر وأحد عشر يوماً سيموت على هذا الوضع نفسه، وقد بدأت تطارده فضيحة "لاورا فارينا"، وسيبكي غيظاً من موته وحيداً بدونها.

ليلة الكراون

كنا نحن الثلاثة نجلس حول المائدة، عندما وضع أحدهم عملة معدنية في ثقب ماكينة الموسيقى، فانبعث مرة أخرى نغمات الأسطوانة التي كانت تدور طوال الليل، ولم نجد الوقت لنفكر فيما حدث بعد ذلك، لقد وقع قبل أن نتذكر أين كنا، وقبل أن نتعرف على الاتجاه الذي حدّق فيه، مَدَّ أحدنا يده فوق الطاولة، (نحن لم نشاهد اليد، ولكنا سمعنا حركتها)، ارتطمت بكوب زجاجي، فسكن بكلتا يديه على السطح الصلب، حينئذٍ بحث ثلاثتنا عن المكان فوجدنا أنفسنا هناك، في مفاصل الأصابع الثلاثين المكدَّسة على الطاولة، قال أحدنا:

- هيا بنا.

وقفنا كأنما لم يحدث أي شيء، فلم يكن قد أتيح لنا الوقت لنتمالك أنفسنا. وعند اجتياز الممر؛ سمعنا الموسيقى القريبة تتحرك في اتجاهنا، وشعرنا برائحة النسوة الحزينات، وهن جالسات ينتظرن، وبينما كنا نتجه نحو الباب؛ شعرنا بالفضاء المتسع للممر قبل أن تلقانا الرائحة الأخرى، الرائحة الرديئة الصادرة عن المرأة الجالسة إلى جوار الباب، قلنا:

- نحن ذاهبون.

لم تنطق المرأة بأي كلمة، ولكنا سمعنا قرقعة الكرسي، عندما حاولت المرأة النهوض، شعرنا بوقع الأقدام الثقيلة على الألواح الخشبية، ثم شعرنا بعودة المرأة إلى مكانها مرة أخرى بعد أن أغلقت الباب خلف ظهورنا.

درنا حول المكان، في الخلف، كانت هناك ريح قارصة، وقوية لفجر خفي، و قال صوت:

- ابتعدوا، لقد ضقتُ بهذا.

تراجعنا إلى الخلف، وعاد الصوت يقول:

- إنكم ما زلتم أمام الباب.

حينئذٍ تحركنا نحو كل الاتجاهات، ولكننا التقينا بالصوت في جميع الأركان، قلنا:

- لا نستطيع الخروج من هنا ، لقد نقرت طيور الكروان عيوننا.

بعد ذلك سمعنا أبوابًا عديدة تُفتح، أفلتَ أحدنا يديه من أيدي الآخرين، وسمعناه، وهو يترنح في الظلام ويرتطم بالأشياء التي تحيط بنا، تحدث من مكان ما في الظلام.

قال:

- أعتقد أننا قريبون، هنا تفوح رائحة صناديق مكدسة.

شعرنا مرة أخرى بتلامس يديه، استندنا إلى الحائط، عندئذ مر بنا صوتٌ آخر، ولكنه مر في اتجاه عكسي:

قال أحدنا:

- أنها توابيت.

قال الذي ارتطم بالركن بعد أن عاد يتنفس من جديد إلى جوارنا:

- أنها صناديق، تعلمتُ منذ طفولتي أن أميز رائحة الثياب المخزونة.

ثم تحركنا نحو ذلك الاتجاه، كانت الأرض لينة وناعمة، مثل أرض مدكوكة، مدّ أحدهم يده، فشعرنا بملمس جلد طويل يفيض بالحياة، لكنا فقدنا الإحساس بالحائط المواجه لنا من الجانب الآخر.

قلنا:

- إنها امرأة.

الآخر الذي كان تحدث عن الصناديق، قال:

- أعتقد أنها نائمة.

اهتز الجسد تحت أيدينا، ارتعش، شعرنا به، وهو ينزلق مبتعدًا ولكن ليس كما لو كان قد ابتعد عن متناول أيدينا، بدا كما لو كان قد اختفى، ومع ذلك سمعنا صوتها بعد لحظة ظللنا فيها ساكنين متصلبين نستند كتفاً إلى كتف.

قالت:

- من يجوس هنا؟

أجبنا دون أن نتحرك:

- إننا نحن.

سمعنا الحركة في الفراش، سمعنا الفرقعة وحركة الأقدام التي تبحث عن النعلين في الظلام، فتصورنا المرأة جالسة تنظر إلينا.

قالت:

- ماذا تفعلون هنا؟

قلنا:

- لا ندرى، لقد نقرت طيور الكروان عيوننا.

قالت إنها سمعت بشيء من هذا القبيل، فالصحف قالت إن ثلاثة رجال كانون يحتسون البيرة في أحد الأفنية؛ حيث كانت هناك خمسة أو ستة من طيور الكروان، سبعة من طيور الكروان، وإن أحد هؤلاء الرجال غنى كالكروان مقلدًا الصوت.

قالت:

- أسوأ ما في الأمر أنه تأخر ساعة؛ وعند ذلك قفزت الطيور على المائدة ونقرت عيونهم.

قالت إن هذا هو ما قالته الصحف، ولكن أحداً لم يصدق، فقلنا نحن:

– لو ذهب الناس إلى هناك لشاهدوا طيور الكروان.

قالت المرأة :

– لقد ذهبوا في اليوم التالي، وكان الفناء مزدحمًا بالناس، لكن المرأة كانت قد نقلت طيور الكروان إلى مكان آخر.

عندما استدرنا، توقفت المرأة عن الحديث، فعثرنا على الحائط من جديد، فقط كنا نلتقي بالحائط بمجرد الدوران حول أنفسنا، بالنسبة لنا كنا نلتقي دائمًا بإحدى الجدران، ومرة أخرى انفلت أحدنا من أيدينا، وسمعناه يبحث عنا من جديد، متشمماً الأرض، قائلا:

– والآن لا أدري أين الصناديق؟ أعتقد أننا في مكان آخر.

قلنا:

– تعال هنا، شخص ما يوجد إلى جوارنا.

سمعناه وهو يقترب منا، وشعرنا به ينتصب واقفاً إلى جوارنا وتنفسه الدافئ يلفح وجوهنا من جديد.

قلنا له:

– هناك من يعرفنا، مد يديك إلى هناك.

يبدو أنه مد يديه في الاتجاه الذي أشرنا عليه؛ لأنه عاد بعد لحظة، ليقول لنا:

– أعتقد أنه صبى.

قلنا له:

– رائع ، سَلْهُ إن كان يعرفنا.

طرح السؤال . سمعنا صوت الصبي البسيط اللا مبالي الذي قال:

– نعم أعرفكم، أنتم الرجال الثلاثة الذين نقرت طيور الكروان

عيونهم . بعد ذلك تحدث صوت ناضج، كان صوت امرأة بدا أنها تختبئ خلف باب مغلق. قالت:

– أتحادث نفسك؟

قال الصوت الطفولي بلا مبالاة:

– لا ، إنهم الرجال الذين نقرت عيونهم طيور الكروان، جاءوا إلى هنا مرة أخرى.

سمعنا صرير مفصلة الباب، وبعد ذلك سمعنا الصوت الناضج الذي بدا أكثر اقتراباً من المرة الأولى.

قالت المرأة:

– قُدهم إلى ديارهم.

قال الصبي:

– لا أعرف أين يسكنون؟

قال الصوت الناضج:

– لا تكن وضيعاً، فالكل يعرف أين يسكنون منذ الليلة التي نقرت فيها طيور الكروان عيونهم.

ثم واصلت الحديث بنغمة مختلفة، وبدت كما لو كانت تُوَجِّه الحديث إلينا:

– ما حدث هو أن أحداً لا يصدق هذا الأمر، ويقولون إنه خبر كاذب لفقته الصحف لزيادة التوزيع، ولم يشاهد أحد طيور الكروان.

قال الصبي:

– لكن لن يصدقني أحد لو سرتُ بهم في الطريق.

لم نتحرك ، ظللنا في سكون تام نستند إلى الجدار، ونصغي لهما، قالت المرأة:

– لو أصطحبكم الصبي، فالأمر سيكون مختلفاً، فلن يكترث أحد بما يقوله الصبي.

قاطعها الصوت الطفولي:

– لو سرت معهم في الشارع، وقلت إنهم الرجال الذين نقرت عيونهم طيور الكروان، سيقذفني الصبية بالحجارة، والجميع في الشارع سيقولون إن هذا لا يمكن أن يحدث.

سادت لحظة من الصمت، وبعد ذلك أُغلق الباب، وعاد الصبي للحديث:

– وأيضاً فأنا أقرأ الآن رواية "تيري والقراصنة".

همس لنا شخص ما:

– سأقنعه.

سار باتجاه الصوت.

قال :

– أنا أحب هذه الرواية، قل لنا ما حدث لـــ"تيري" هذا الأسبوع.

اعتقدنا أنه يحاول كسب ثقته. لكن الصبي قال:

– هذا لا يثير اهتمامي، أنا أحب الألوان.

قلنا:

– كان "تيري" قد وقع في مشكلة.

قال الصبي:

– ذلك كان يوم الجمعة، أما اليوم فهو الأحد، وأنا أحب الألوان.

قال ذلك بصوتٍ فاترٍ لا مبالٍ وبلا اهتمام. وحينما عاد الآخر، قلنا:

– لقد ضللنا الطريق منذ ثلاثة أيام، ولم نسترح لحظة واحدة،

قال أحدنا:

– ليكن .. هيا نستريح لبعض الوقت، ولكن دون أن تفلت أيدينا.

جلسنا، وكانت هناك شمس خفيفة بدأت تبعث الدفء في أكتافنا، ولكن وجود هذه الشمس لم يثر اهتمامنا، شعرنا بها تنبعث من مكان

ما، لقد فقدنا الإحساس بالزمان، والمكان، والاتجاه، ومرت بنا أصواتٌ عديد.

قلنا:

– لقد نقرتْ طيور الكروان عيوننا.

– قال أحد الأصوات:

– هؤلاء يصدقون كلام الصحف.

تبددت الأصوات، وبقينا جالسين، هكذا، كتفًا إلى كتف، بينما كانت تمر بنا الأصوات، وكنا نتخيل أنه ستَمُر رائحة أو صوت معروف، ولكن الشمس واصلت الدفء، وقد علت رؤوسنا، قال أحدنا:

– هيا بنا نحو الحائط مرة أخرى.

قال الآخرون وهم لا يزالون في سكونهم، ورؤوسهم مرفوعة نحو الضوء الخفي:

– ليس الآن. لننتظر إلى أن تحرق الشمس وجوهنا.

نابو .. الزنجي الذي انتظرته الملائكة

"نابو" كان منبطحاً على وجهه فوق الحشائش، يتشمم رائحة الإسطبل البولية العالقة بجسده، متحسساً الجلد الأسمر اللامع، والجذوة الخابية لخيال اللخيول الأخيرة، لم يكن يشعر بالجلد، لم يكن "نابو" يشعر بأي شيء على الإطلاق، كما لو كان قد لبث نائماً منذ آخر ضربة حدوة في رأسه، لم يكن أكثر إحساساً بالوحدة مما هو عليه الآن، كان كمن يتخيل رائحة الإسطبل لأول مرة، تلك الرائحة العالقة بالحشائش، فتح عينيه، أعاد إغلاقها، استمر ساكناً، معتداً بنفسه، قوياً، كما لو كان يحلم طوال المساء، كان خارج الزمن، إلى أن قال له أحدهم من خلف ظهره: "هيا يا "نابو"، لقد نمت كثيراً" استدار ولم يشاهد أحداً، لم يشاهد الخيول، لكن الباب كان مغلقاً، كان عليه أن يتخيل مكان الدواب في الظلام، رغم أنه لم يكن يسمع ركلاتها الضجرة، تخيل أن السائس هو الذي حدثه من خارج الإسطبل، لأن الباب مغلق من الداخل، وموصد بالمزلاج، مرة أخرى قال الصوت من خلف ظهره: "نابو"، حقيقة لقد نمت كثيراً، ثلاثة أيام مرت وأنت نائم". فتح عينيه عن آخرهما وأجاب : "أنا هنا لأن الحصان ركلني".

لم يكن يعرف في أي ساعة يعيش، الأيام كانت تسير للخلف، كما لو أن أحد قد مرر إسفنجة رطبة على ذلك السبت البعيد، في تلك الليلة التي ذهب فيها إلى القرية، نسي القميص الأبيض، ضاع من ذاكرته أنه كان يملك قبعة خضراء، من القش الأخضر، وبنطلوناً قاتم اللون، وأنه لم يكن يملك حذاء، كان يذهب إلى الساحة ليلة السبت،

يجلس في أي ركن، صامتاً، لم يكن يذهب لسماع الموسيقى بل لمشاهدة ذلك الزنجي الذي يضع على عينيه عوينات سميكة، مربوطة إلى أذنيه، ويعزف الساكسفون أمام أحد المساند الخلفية، كان "نابو" يرى الزنجي لكن الزنجي لم يكن يرى "نابو"، لو أن أحداً شاهد "نابو" وهو ذاهب إلى الساحة في ليالي السبت ليشاهد الزنجي وسأله (بالطبع ليس الآن لأنه لن يستطيع أن يفهم سؤاله) إن كان الزنجي قد شاهده في إحدى المرات لأجاب بالنفي، بعد ذلك كان "نابو" هو الوحيد الذي يمشط ذيول الخيول.

في أحد أيام السبت، لم يكن الزنجي في مكانه بين أفراد الفرقة الموسيقية، في البداية كان على "نابو" أن يعتقد أن الزنجي لن يعود لعزف الألحان الشعبية، رغم وجود المسند في مكانه، ليس بالضبط من أجل هذا، لقد تذكر أنه ذهب متأخراً، واعتقد أن الزنجي سيعود إلى الساحة السبت التالي، استدار "نابو" إلى الجانب الآخر فشاهد الرجل الذي كان يحادثه، في البداية لم يتعرف عليه في ظلام الإسطبل، كان الرجل جالساً على نتوء بارز يتحدث وهو يضرب على ركبتيه، "لقد ركلني حصان" أعاد "نابو" قوله، بعد أن تعرّف على الرجل، قال الرجل "حقيقة!، الخيول غير موجودة هنا، ونحن ننتظرك في الجوقة" هز "نابو" رأسه، لم يكن قد بدأ التفكير بعد، لكنه تذكر أنه شاهد هذا الرجل في مكانه، الرجل قال إنهم ينتظرون "نابو" في الجوقة، "نابو" لم يفهم، لم يتذكر إن كان الرجل قد قال هذا، لأنه في تلك الأيام كان يمشط ذيول الخيول، كان يحب التسلي ببعض الأغاني، وبعد ذلك يغني ليسلي الطفلة الخرساء، بنفس الأغاني التي كان يغنيها أثناء تمشيط ذيول الخيول، لكن الطفلة الصغيرة كانت في عالم آخر،

في عالم الدهليز، كانت تجلس وعيناها معلقتان على الحائط، لـو أن أحداً قال إن "نابو" سينضم إلى الجوقة الموسيقية ما أبدى أحد دهشة، لكنه اندهش الآن قليلاً لأنه لم يفهم، كان متعباً، مخدراً، مستوحشـاً، قال: "أريد أن أعرف أن الخيل.."، قاطعه الرجل: "لقد قلـت لـك إن الخيل غير موجودة، فقط تشوقنا إلى سماع صوت مثل صوتك". لـو اقترب الرجل لسمع "نابو"، لكن الألم الذي تركته الحدوة في جبهته لم تجعله يفرق بين هذه الاطباعات السيئة، أعاد "نابو" رأسه إلى القـش ومكث نائماً.

على الرغم من غياب الزنجي عن الجوقة، إلا إن "نابو" ذهب إلى الساحة مرتين أو ثلاثًا، لعل أحداً يجيبه عن سؤاله عما حدث للزنجي، لكن "نابو" لم يسأل، واصل الحضور إلى أن حل رجل آخـر مكـان الزنجي، حينئذ أقنع "نابو" نفسه بأن الزنجي لـن يعـود، بعـد ذلـك انصرف ولم يعد إلى الساحة، عندما استيقظ، اعتقد أنه نـام برهـة، فمازالت حدة رائحة الحشائش الرطبة في أنفه، ما يزال في الـركن، ويواصل الخبط على ساقيه، قال الرجل بصوت هـادئ وغـامض: "نحن ننتظرك يا "نابو"، أنت تنام منذ عامين، ولا تريد أن تسـتيقظ". أعاد "نابو" إغلاق عينيه، ثم فتحهما، وواصل النظر نحو الركن، رأى الرجل مرة أخرى، كان تائهاً، حائراً، بعد ذلك تعرّف عليه.

عندما عرف أصحاب البيت ما فعله "نابو" فـي السـاحة ليـالي السبت، اعتقدوا أن ما قاله عن عدم ذهابه يرجع إلى أنه أصبح يملك موسيقاه في البيت، حدث هذا عندما اشتروا "الجرامفون" لتسلية الطفلة الصغيرة، وعندما كانت في حاجة إلى شخص ليحرسها فكـروا فـي

"نابو"، لقد استطاع أن يمضي معها طول اليوم تقريباً، فقد كان يظل معها الوقت الذي لم يكن يقضيه مع الخيول، كانت الصغيرة تبقى جالسة تستمع إلى الألحان الموسيقية، في مرات عديدة كانت الموسيقى مسموعة، كانت الصغيرة تهبط من مكانها، وتظل ناظرة إلى الحائط ولعابها يسيل، تزحف إلى غرفة الطعام، كان "نابو" يرفع إبرة الجهاز ويبدأ في الغناء. في البداية عندما جاء إلى البيت سألناه عن عمله، قال إنه يجيد الغناء، لكن هذا لم يكن مقبولاً من أحد لأننا كنا في حاجة إلى صبي يمشط الخيل، لبث "نابو" هادئاً لكنه واصل الغناء، كما لو كنا قد قبلناه من أجل الغناء، حتى تمشيط الخيول لم يكن خارج هذه التسلية التي يقوم بها، كان يؤدى عمله بنشاط كبير، واستمر في ذلك لأكثر من عام كامل، حتى تعوّدنا على فكرة أن الصغيرة لا تستطيع السير، ولا التعرف على أحد، تركنا الصغيرة كأنها ميتة، كانت تظل وحيدة تستمع إلى "الجرامفون"، وتنظر إلى الحائط بلا اهتمام، حتى نحملها من مكانها ونقودها إلى الغرفة، ورغم الحادث فإن "نابو" واصل اهتمامه بها وفياً للمواعيد، منتبهاً إلى "الجرامفون"، هذا في الأيام التي توقف فيها عن الذهاب إلى الساحة ليالي السبت. في يوم ما، عندما كان الصبي في الإسطبل، كنا نحن في الصالون، شخص ما نطق اسم "نابو" مع غناء "الجرامفون"، لم نهتم للأمر، لكن عندما سمعنا كلمة "نابو" للمرة الثانية رفعنا رؤوسنا وتساءلنا، قال أحدنا: "لم أشاهد أحداً يدخل". لكن عندما ذهبنا لاستطلاع الأمر لم نجد سوى الصغيرة على الأرض، منحنية أمام الحائط.

عاد "نابو" مبكراً، ونام، بعد السبت الذي ذهب فيه لرؤية الزنجي وبعد مرور ثلاثة أسابيع بعده، في يوم إثنين، بدأ "الجرامفون" في

الغناء بينما كان هو في الإسطبل، ، في البداية لم نهتم بهذا، لكن بعد ذلك شاهدنا الزنجي الصغير عائداً يغني وهو يصب الماء للخيول، قلنا له: "من أين أتيت؟" قال: "من الباب . كنت في الإسطبل منذ منتصف النهار". قلنا: "الجرامفون" يغني، ألا تسمعه؟ ثم سألناه عن الذي أدار الزنبرك، هز كتفيه وقال: "الصغيرة هي التي تديره منذ فترة".

هكذا كانت تمر الأشياء إلى اليوم الذي وجدنا فيه الطباشير، ولوح الكتابة في قش الإسطبل، مع حافة حدوة مرصعة من الأمام، وجدنا "نابو"، رفعناه من كتفيه، فقال: "أنا هنا لأن الحصان ركلني". لكن أحداً لم يهتم بالذي قاله، اهتممنا بالعيون الباردة الميتة، والفم الملىء بالزبد الأخضر، لقد أمضى الليلة باكياً، محترقاً بالحمى، يهذي، متحدثاً عن المشط الذي فقده في قش الإسطبل، هذا كان في اليوم الأول، وفى اليوم التالي عندما فتح عينيه، قال: "أنا عطشان". أحضرنا له الماء فشربه كله في جرعة واحدة، طلب أكثر من كوبين، سألناه ماذا يشعر، قال: "أشعر كما لو كان قد ركلني حصان". واصل الكلام طوال النهار، والليل، وفى النهاية جلس على السرير، مشيراً إلى أعلى بإصبع السبابة، وقال إن ركلة الحصان لم تدعه ينام طوال الليل، منذ أمس لم يعد يشعر بالحمى لكنه واصل الكلام حتى عندما وضعوا في فمه منديلاً، بدأ يغنى من خلف المنديل، قائلاً إنه سمع بأذنيه تنفس الخيول وهى تبحث عن الماء، عندما أخرجوا المنديل لإطعامه شيئًا، استدار نحو الحائط فاعتقدنا أنه نام، فمن المناسب له أن ينام قليلاً، لكن عندما استيقظنا لم يكن في السرير، كان مقيد اليدين والقدمين في ركن الغرفة، وكان يغني.

عندما تعرَّف "نابو" على الرجل قال له: "أنا لم أشاهدك من قبل". قال الرجل: "أنت كنت تراني في الساحة أيام السبت"، قال "نابو": "نعم". وأضاف "لكني أعتقد أنني رأيتك، وأنت لم ترني". قال الرجل: "أنا لم أرك أبداً، لكن بعد ذلك عندما انقطعتَ عن الذهاب شعرتُ كما لو أن أحداً قد انقطع عن مشاهدتي أيام السبت". قال "نابو": "أنت لم تعد بعد ذلك لأنني واصلت الذهاب ثلاثة، أو أربعة أسابيع".

ظل الرجل دون حركة يضرب على ركبتيه، قال: "أنا لا أستطيع العودة إلى الساحة رغم إحساسي بأنه الشيء الوحيد التي خسرته". تعب "نابو" من المناقشة فهز رأسه، وألقاها على قش الإسطبل، وواصل سماع الصوت البارد، المُصرّ، لم يكن هناك وقت، ولا حتى لمعرفة ما إذا كان نائماً في سبات عميق مرة ثانية، دائماً يحدث له هذا منذ أن ركله الحصان، ودائماً يُسمع الصوت الذي يقول: "نحن ننتظرك يا "نابو"، ألا توجد طريقة أخرى لقياس الزمن لديك سوى النوم؟".

مرت أربعة أسابيع منذ أن ترك الزنجي الفرقة الموسيقية، كان "نابو" يمشط ذيل أحد الخيول، لم يكن يفعل ذلك من قبل، ببساطة كان يمشطها وهو يغني، لكن يوم الأربعاء ذهب إلى السوق، وشاهد مشطاً، قال: "إن هذا المشط يصلح لتمشيط ذيول الخيول". بعد ذلك كان حادث الحصان الذي ركله، وتركه مخبولاً طوال حياته، عشرة أو خمسة عشر عاماً، شخص ما بالمنزل قال: " كان الأفضل له أن يموت في ذلك اليوم، ولا يظل هكذا لا دواء له، سيظل يهذي بقية حياته"، ولم يعد أحد يهتم به منذ اليوم الذي وضعوه فيه في الحبس، فقط نعرف أنه هناك، محبوس في الغرفة، ومنذ ذلك اليوم لم تعد الصغيرة تدير "الجرامفون"، لقد حبسناه كما لو كان حصاناً، كما لو

كانت الركلة قد أدت به إلى البلادة، ووضعت في صدره كل غباء الخيول الحيواني، وتركناه معزولاً بين أربعة جدران، كما لو كنا قد عزمنا على دفعه إلى الموت حبساً، لم تكن لدينا برودة دماء كافية لقتله بطريقة أخرى، هكذا مرت أربع عشرة سنة إلى أن كبر أحد الصغار وقال إن لديه شوق لرؤية وجه "نابو"، وفتحوا الباب.

عاد "نابو" للنظر إلى الرجل مرة أخرى وقال: "لقد ركلني حصان"، قال الرجل: "منذ قرون وأنت تقول هذا ومع ذلك مازلنا ننتظرك في الجوقة"، عاد "نابو" يهز رأسه، أغرق جبهته في القش، اعتقد أنه تذكر كيف حدثت الأشياء، قال : "كانت تلك المرة الأولى التي أمشط فيها ذيول الخيل". قال الرجل: "نحن أردنا ذلك لإعادتك للغناء في الجوقة". قال "نابو": "ما كان يجب شراء المشط". قال الرجل : "على أي حال أنت وجدته، نحن عرفنا أنك ستجد المشط وأنك ستمشط ذيل حصان". فقال "نابو": "لم أقف أبداً في الخلف." واصل الرجل هادئاً غير مبدياً ضجره: "لكنك وقفت خلف الحصان فركلك، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكي تنضم إلى الجوقة". "الحديث يوميّ، متواصل، لا يهدأ، إلى أن يأتي شخص إلى المنزل ليقول: "هذا الباب لم يُفتح منذ خمسة عشر عاماً"، كانت الصغيرة (لم تكن قد كبرت، لقد مر عليها ثلاثون عاماً، وظهر الحزن في الجفون) جالسة، تنظر إلى الحائط، عندما فتحوا الباب، أدارت وجهها بإتجاه الباب متشممة، وعندما أغلقوا الباب عادوا يقولون: "أصبح "نابو" هادئاً، لم يعد يتحرك في الداخل. في يوم ما سيموت، ولن نعرف إلا من رائحته." شخص ما قال: "سنعرف من الطعام، فإنه لن يترك تناول الطعام أبداً، هذا أمر جيد لنغلق عليه الباب ولا تدعوا أحداً يضايقه، الضوء يدخل جيداً من الباب الخلفي". الأشياء الباقية من هذا

النوع، الطفلة الصغيرة فقط هي التي واصلت النظر نحو الباب، متشممة البخار الذي يتسلل من أحد الشقوق، ظلت هكذا إلى الفجر عندما سمعنا ضجة لصوت معدني في الدهليز، وتذكرنا أنها نفس الضجة التي حدثت منذ خمس عشرة سنة، عندما كان يهتم "نابو" بالجرامفون، استيقظنا أضأنا اللمبة، وسمعنا الأنغام الخافتة للأغنية المنسية، الأغنية الحزينة التي كانت قد ماتت في الاسطوانات منذ زمن بعيد، الضجة كانت متواصلة، في كل مرة بصوت أعلى إلى أن سمعنا ضربة حادة، في اللحظة التي وصلنا فيها إلى الدهليز، وشعرنا أن الاسطوانة مازالت تواصل الغناء، وشاهدنا الصغيرة في الركن مع "الجرامفون" تنظر إلى الحائط، وفى يدها ذراع التشغيل مرفوعة إلى أعلى، منزوعة من الصندوق الصوتي، لم تتحرك، ظلت الصغيرة هناك، ولم تتحرك، ظلت هادئة، متصلبة، ناظرة إلى الحائط، ونحن لم ننطق بشيء، ولم نعد إلى الغرفة، تذكرنا أن شخصاً ما كان قد قال لنا إن الصغيرة تجيد إدارة الزنبرك، قررنا أن نبقى ساهرين، نستمع إلى الموسيقى المستهلكة من الاسطوانة التي واصلت الدوران بشطط الذراع المكسورة.

عندما فتحوا الباب في اليوم السابق، شاعت رائحة بقايا حيوية من الداخل، كانت رائحة جسد ميت، الذي فتح الباب صرخ: "نابو"، "نابو." لم يجبه أحد من الداخل، وتحت عقب الباب، كان الطبق فارغاً، ثلاث مرات في اليوم يعود الطبق فارغاً، لهذا كنا نعرف أن "نابو" مازال حيا، لا شيء أكثر من هذا.

لا توجد حركة في الداخل، ولا غناء، هذا ما كان يجب أن يحدث بعد أن أغلقوا الباب عندما قال "نابو" للرجل: "لا أستطيع الذهاب إلى الجوقة" سأله الرجل: "لماذا؟" قال "نابو": "ليس لدي حذاء"، رفع

الرجل قدميه قال: "هذا ليس بذي أهمية، لا أحد هنا يستخدم الأحذية". شاهد "نابو" باطن قدمي الرجل المتحجرتين، مرفوعة وقال: " أنا هنا منذ زمن بعيد"، "منذ دقيقة فقط ركلني حصان، سأضع قليلاً من الماء على رأسه، وسأدفعه للتنزه قليلاً". قال الرجل: "الخيول ليست في حاجة إليك، الخيول غير موجودة الآن، أنت يجب أن تأتي معنا". قال "نابو": "الخيول يجب أن تكون هنا" انتصب قليلاً، دفن يديه في القش قائلاً: "المشط كان هنا" قال الرجل: "الإسطبل مغلق منذ خمسة عشر عاماً وأصبح مليئاً بالحطام في يوم واحد، لن أتحرك من هنا قبل أن أجد المشط".

في اليوم التالي، بعد أن عادوا للتأكد من إغلاق الباب، عادوا بعد سماع حركة عسيرة في الداخل، لم يتحرك أحد بعد، ذُهلوا عندما سمعوا أصوات الصرير الأولى للباب الذي بدأ في السقوط، مدفوعاً بقوة هائلة، ندت من الداخل أصوات نحيب حيوان محاصر، في النهاية ارتفع صرير مفصلات الباب الصدئة، وهى تتحطم، عندها عاد "نابو" يهز رأسه قائلاً: "لن أذهب إلى الجوقة ما لم أجد المشط سأظل هنا". حفر في القش، مزقه، خطط الأرض، إلى أن قال الرجل: "حسناً يا "نابو" أنا أعتقد أن أحداً لن يستطيع إيقافك".

بعد ذلك انهار الباب، والرفس الحيواني الهائل، بالجرح الخشن المطبوع على الجبهة (على الرغم من مرور كل هذه السنوات) هبط متعجلاً، قفز فوق الأثاث، تعثر في الأشياء، متوعداً بقبضتيه المرفوعتين، اللتين كانتا تحملان ذراع "الجرامفون" المربوطة منذ سنوات مضت، (عندما كان صبياً أسود يحرس الخيول) كان يصرخ في الممرات، ثم اندفع مع الرجل كالعاصفة المدمرة، (قبل أن يصل إلى الفناء) الصغيرة التي بقيت جالسة، تذكرت كلمة واحدة عندما

شاهدت القوة السوداء محررة من السلاسل، كان قد وصل إلى الفناء، (قبل أن يجد الإسطبل) شُوهد مع الرجل يحملان معاً مرآة الدهليز، لكنه لم ينتبه إلى الصغيرة، ولا إلى بقايا "الجرامفون"، كان نقياً كوجه الشمس، وكانت عيناه مغلقتين عمياء لا تريان، اندفع بلا هدف لكن لم تمح من غريزته اتجاهات باب الإسطبل، بحث عنه، تاركاً خلفه الفاجعة، التفسخ، التشوش، كثور معصوب العينين في حجرة مليئة بالأضواء، إلى أن وصل إلى الفناء الخلفي، (لم يجد الإسطبل بعد) حفر الأرض بنفس الهياج الذي حمل به المرآة، وربما فكر في حفر القش معتقداً أن ذلك سيعيده مزروعاً من جديد، وقبل أن يصل تماماً إلى باب الإسطبل (الآن أكثر قوة من قوته المضطربة) دفع الباب، وسقط في الداخل على وجهه، ربما كان يحتضر، لكنه كان لا يزال مكسواً بهذه الوحشية الحيوانية التي كانت منذ نصف ثانية لا تصل إلى سمع الطفلة التي رفعت ذراع "الجرامفون"، عندما شاهدته يمر، تذكرت اللعاب، ولكنها كانت ساكنة بلا حركة، ولم تحرك الذراع في الهواء، تذكرت الكلمة الوحيدة التي تعلمت قولها في حياتها، وصرخت من الدهليز:

- "نابو"، "نابو"...

خورخي لويس بورخيس(*)

Jorge Luis Borges

(الأرجنتين)

(*) خورخي لويس بورخيس Jorge Luis Borges ولد عام 1899 بالأرجنتين ثم انتقل ليعيش مع والديه ما يبن فرنسا، وإيطاليا وسويسرا، وأسبانيا ثم أصيب في حادث عام 1938 فقد على أثره بصره مات عام 1986 في سويسرا. أهم كتبه : " كتاب الرمل" ، "ذهب النمور" الآخر، الألف، الجنوب، إضافة إلى كتابات أخرى كان ينشرها بأسماء مستعارة، منها قصة التصاوير الاثنتي عشر للعالم التي يضمها هذا الكتاب .
حاز على جوائز عديدة في الآداب، وكان مرشحا لنيل جائزة نوبل لعدة سنوات.

التصاوير الاثنتي عشر للعالم

-1-

الجدي، الدلو، الحوت، الحمل، الثور، هذا مـا كـان يفكـر فيـه "اكيليس موليناري" أثناء نومه، وبعدها أصابته حالة مـن التشـوش. شاهد الميزان والعقرب. انتبه إلى انه ارتكب خطأ، استيقظ منتفضاً.

لسعت الشمس وجهه، كانت هناك على المائدة المجاورة، بعـض أعداد من صحيفة "لا فيخا"، ومنبه "تيك تاك" تشـير عقاربـه إلـى العاشرة إلا عشرين دقيقة، ظل خلال تلك اللحظات مستمراً في تكرار أسماء أبراج التقويم بشكل متواصل. نهض "موليناري"، نظـر مـن النافذة، كان الرجل المجهول لا يزال هناك على ناصية الشارع.

ابتسم بخبث. اتجه نحو الداخل، عاد بماكينة الحلاقـة، وفرشـاة، وبقايا صابون أصفر، وإناء به مـاء مغلـي، فـتح النافـذة علـى مصراعيها، ونظر بجدية باتجاه الرجل المجهول وبدأ بحلاقـة ذقنـه ببطء شديد، مترنما بنغمات تانجو *"ورقة اللعب المغشوشة"*.

بعدها بعشر دقائق كان في الشارع مرتدياً حلته الكستنائية التي لم يدفع قسطيها الأخيرين لمحلات ملابس التفصيل الإنجليزية "رابوفي"، سار حتى الناصية، افتعل الرجل المجهول اهتمامـاً فجائيـاً بورقـة يانصيب، أما "موليناري"، المعتاد على طرق التخفي تلك، سار باتجاه ناصية شارع "هومبرتو" رقم 1، وصل الأتوبيس على الفور، صـعد "موليناري"، وتسهيلاً لعمل متتبعه، جلس في أحد المقاعد الأماميـة.

استدار إلى الخلف بعد ثلاث أو أربع محطات، الرجل المجهول الذي يمكن التعرف عليه بسهوله من نظاراته السوداء كان يطالع الصحيفة، قبل الوصول إلى وسط المدينة كان الأتوبيس كامل العدد، تمكن "موليناري" من أن يهبط منه دون أن ينتبه إليه الرجل المجهول، لكن خطته كانت أفضل من ذلك. استمر في السير حتى بار "باليرمو"، بعدها، ودون أن يستدير، اتجه شمالاً، حتى وصل إلى محطة السجن، دخل الحديقة، بدا هادئاً، لكن قبل أن يصل إلى بوابة الحراسة، ألقى بسيجارة أشعلها قبل قليل، تحدث بحديث تافه مع أحد العاملين المُسِمر عن أكمام قميصه، رافقه أحد حراس السجن حتى الزنزانة رقم 273.

قبل أربعة عشر عاماً، أصيب الجزار "اغوستين ر. بونورينو" بضربة بزجاجة في رأسه أثناء حضوره حفلاً تنكريا، لم يغب عن بال أحد أن الزجاجة جاءت من أحد فتيان رواد بار "باتا سانتا"، ولكن لأن بار "باتا سانتا" معروف بأنه أحد عناصر الانتخابات المهمة، أكد البوليس أن المذنب في هذه القضية هو المدعو "ايسيدرو بارودي"، الذي أكد بعضهم أنه فظ، وأيضاً أنه روحاني، لكن الحقيقة أنه لم يكن لا هذا ولا ذاك، كان يمتلك محلاً للحلاقة في حي الجنوب وارتكب خطأ بتأجير شقة لكاتب بنقطة البوليس رقم 18، الذي لم يدفع له الإيجار منذ سنة، هذه الأوضاع المتداخلة والسلبية حكمت على "بارودي": أقوال الشهود (من الشباب المتردد على بار "باتا سانتا") اتفقت على إلصاق التهمة به، وحكم عليه القاضي بواحد وعشرين سنة سجناً مع النفاذ. أثرت الحياة الهادئة والمستقرة على القاتل رقم 1919: اليوم هو رجل أربعيني، حكيم، ممتلئ، حليق الرأس وعيناه تشع منهما الحكمة، تنظر تلك العينان الآن نحو الفتى "موليناري":

– أية خدمة يمكنني أن أقدمها لك يا صديقي؟

لم يكن صوته ودوداً بشكل واضح، لكن "موليناري" كان يعرف أن تلك الزيارة لن تكون مريحة، إضافة إلى أن ردة فعل "بارودي" لم تكن تهمه أكثر من عثوره على كاتم أسرار، أو ناصح، ببطء وثقة، كان العجوز "بارودي" يرشف مشروباً من إناء أزرق عرضه على "موليناري"، هذا رغم إنه كان متعجلاً لشرح مغامرته التي عقد العزم عليها والتي أثرت على سير حياته بشكل كبير، كان يعرف إنه من غير المفيد استعجال "ايسيدورو بارودي"، لذلك بدأ بهدوء حواراً حول سباقات الخيل، التي يرى أنها شرك خداعي خالص لا يعرف أحد من الفائز فيها، لم يهتم السيد "ايسيدورو" به، فعاد إلى ركنه المفضل: بدأ في شن هجوم على الإيطاليين، الذين انتشروا في كل مكان، ولم يحترموا، ولا حتى السجون.

– السجن ملئ الآن بالأجانب من مرتكبي جميع أنواع الجرائم، ولا يعرف أحد من أين يأتون.

"موليناري"، المعروف بميوله الوطنية الضيقة، شارك في هذه الشكاوى وقال انه سأم من الإيطاليين والدروز، دون أن يشير إلى الرأسماليين الإنجليز الذين زرعوا البلاد بالسكك الحديدية والثلاجات. فقط لأنه حدث في مساء أمس أنه دخل إلى محل البيتزا وأول ما وقعت عليه عيناه هو أحد الإيطاليين.

– هل الإيطالي أم الإيطالية هو ما يسيئك؟

قال "موليناري" ببساطة:

– لا الإيطالي ولا الإيطالية، يا سيد "ايسيدرو"، لقد قتلت رجلاً.

– يقولون أنني أيضا قتلت أحدهم، ومع ذلك ها أنت تجدني هنا، تحكم في أعصابك، فمسألة الدروز تلك مسألة معقدة، لكن ربما تنفذ بجلدك إن لم تكن لك علاقة سيئة بكاتب في نقطة البوليس رقم 18.

نظر إليه "موليناري" مذهولاً. تذكر بعدها أن اسمه ارتبط بحادثة مجموعة "ابن خلدون"، في مقال لصحيفة من صحف الإثارة –وهي صحيفة مختلفة جداً عن صحيفة "كوردوني" الجادة التي يكتب هو تعليقاتها الرياضية– تذكر أن "بارودي" لا يزال يتمتع بقواه الروحية، وبفضل حيويته وتغاضي نائب المفتش "جوروندونا" فقد كان يقرأ جميع صحف المساء. بالضبط، لم ينس السيد "ايسيدرو" قضية اختفاء "ابن خلدون"، مع ذلك طلب من "موليناري" أن يقص عليه الوقائع، لكنه حذره من الحديث بسرعة، لأنه أصبح ثقيل السمع بعض الشيء، بدأ "موليناري"، بهدوء تقريباً يقص له الحكاية:

– صدقني، أنا شاب "مودرن"، ابن عصري، عشت حياتي ولكني أحب التأمل أيضاً، أنا اعرف أننا تخطينا زمن المادية. كما قلت لي في مرة سابقة، وصدقني أن حكمك لم يذهب سدى، لكني أريد أن استوضح بعض الأشياء، بص، الفقير الهندي وأتباع اليوجا، بتدريباتهم التنفسية وتعذيبهم لأجسادهم يعرفون جزءاً من الحقيقة ولكن ليس الحقيقة كلها، يجب الاعتراف بأن الدروز يشكلون جماعة تقدمية، وهم اقرب إلى السرية منهم إلى ممارسة الطقوس الدينية بشكل منقطع، فقد عرفت فجأة أن الدكتور "ابن خلدون" له جماعة تجتمع في فيلا "ماتزيني"، التي تضم مكتبة عجيبة، تعرفت عليه في إذاعة "فينيكس"، يوم الاحتفال بعيد الشجرة، يومها ألقيت أنا كلمة موضوعية وأعجبته بعض الجمل التي قلتها، فأرسل لي بعضهم، طلب مني مرافقته إلى بيته، وأعارني مجموعة من الكتب الجادة ودعاني إلى حفلات كان يقيمها في مقره، كان ينقصها العنصر النسائي، لكنها كانت أشياء ثقافية، أقسم لك على ذلك. يقول البعض انه من المعتقدين في الزعامة. يوجد في الصالون تمثال لثور معدني

يفوق ثمنه ثمن ترام. يجتمع حوله كل يوم جمعة مجموعة معينة، يمكننا القول أنهم المبتدئون. وحاول الدكتور "ابن خلدون" منذ فترة أن أبدأ معهم. وما كان لي أن أرفض، كنت أريد أن أكون على علاقة طيبة مع ذلك العجوز، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، الدروز جماعة مغلقة على نفسها جداً، وبعضهم لا يعتقد أن غربياً يمكنه أن يكون لائقاً لدخول حلقتهم. مثل، "أبو الحسن"، مالك أسطول شاحنات لنقل اللحوم المصنعة، طالب بأن يكون عدد المختارين محدداً، ولا شرعية لانضمام من هم ليسوا من أصول درزية، واعترض أيضاً أمين الصندوق "عز الدين"، إلا إن هذا التعس الذي يمضي وقته بين دفاتر الحسابات، ودائماً ما يسخر منه الدكتور "ابن خلدون" ومن دفاتره. رضخوا في النهاية.

في الحادي عشر من أغسطس تلقيت رسالة "ابن خلدون" يخبرني فيها إنه في الرابع عشر سيخضعني لاختبار صعب بعض الشيء، ولذلك يجب أن أستعد لاجتيازه.

قاطعني "بارودي":

– وكيف لك أن تستعد؟

– وكما تعرف يجب أن أعيش ثلاثة أيام فقط على احتساء الشاي، وأن أحفظ عن ظهر قلب ترتيب الأبراج، تماماً كما هي مذكورة في تقويم "بريستول". قدمت شهادة مرضية للتأمين الصحي التابع له عملي الصباحي، فاجأني في البداية أن يكون الحفل يوم الأحد وليس الجمعة، لكن الرسالة شرحت بأن الاختبار مهم جداً، ولذلك يجب أن يُجري يوم العطلة الدينية. كان يجب علي أن أكون في الفيلا قبيل منتصف الليل، أمضيت الجمعة، والسبت في هدوء،

لكني استيقظت الأحد عصبياً. بص يا سيد "ايسيدرو"، أنا أفكر الآن أنه كان لدي إحساس بما سيحدث، لكني لم أتراجع، ظللت أطالع الكتاب طوال النهار، كان شيئاً مثيراً للسخرية. كنت أنظر إلى الساعة كل خمس دقائق، لأرى إن كان يجب علي أن أتناول كوباً آخر من الشاي، لم أكن أعرف في الحقيقة لِمَ أتطلع إلى الساعة، على أي حال كان يجب تناول الشاي، حلقي كان جافاً، وكنت في حاجة إلى سوائل. رغم انتظاري للاختبار إلا إنني وصلت متأخراً فقد كان عليّ أن استخدم قطار الساعة 23 و18، بدلاً من السابق عليه.

رغم أنني كنت مستعداً جداً، إلا إنني ظللت أراجع التقويم في القطار. وأصابني الغضب بسبب وجود بعض الأوغاد الذين كانوا يناقشون فوز فريق "المليوناريوز" على "شاكاريتا جونيور"، وصدقني لم أكن أفهم شيئاً عن كرة القدم. هبطت في محطة "بيلجرانو"، والفيلا تبعد عنها بحوالي ثلاثة عشرة ناصية، اعتقدت أن السير يمكنه أن ينعش ذاكرتي، لكن المسافة قضت على قواي. وتنفيذاً لتعليمات "ابن خلدون" اتصلت به تليفونياً من حانوت بشارع "روسيتي".

كان هناك صف طويل من السيارات أمام الفيلا، وكان البيت يغط بالأضواء، ويُسمَعُ صوت الناس من بعيد، كان "ابن خلدون" في انتظاري أمام البوابة، شعرت أنه أكثر مشيباً. كنت شاهدته كثيراً خلال النهار ولكني انتبهت هذه الليلة إلى إنه يشبه "ريبيتو"، ولكن بلحية، إنه سوء الحظ، كمن يقول: إنني الليلة كنت أخشى ذلك الاختبار المجنون، وأني انقدت إليه بلا مقاومة، سرنا على الطريق القرميدي المحيط بالبيت ودخلنا من الجانب الآخر، كان "عز الدين" يقف على السلم المؤدي إلى الأرشيف.

– أربعة عشر عاماً وأنا أتردد على الأرشيف، لكني لا أعرف هذا الأرشيف. صف لي المكان.

– بص، ببساطة جداً، قسم السكرتارية موجود في الطابق العلوي، ينزل منه سلم يؤدي إلى قاعة الاجتماعات بشكل مباشر، حيث يوجد الدروز، حوالي مائة وخمسين، يرتدون جميعاً عباءات بيضاء، يحيطون بالثور المعدني، والأرشيف عبارة عن غرفة صغيرة ملاصقة للسكرتارية، غرفة داخلية، وأنا أقول دائماً أنها غرفة بلا نوافذ مثل خلق الله، فهي غير صحية على المدى البعيد. ألا تشاركني الرأي؟.

– لا تسألني، منذ أن سكنت الشمال وأنا تعبٌ من تلك المباني. صف لي قسم السكرتارية.

– إنها غرفة كبيرة، بها مكتب من البلوط، وآلة كاتبة ماركة "اوليفيتي"، وبعض الكراسي المريحة جداً، التي تغرق فيها عند الجلوس عليها، ونارجيلة تركية قديمة، لكنها ثمينة جداً، وخيوط عنكبوتية رهيفة، وسجادة فارسية، عليها رسوم مستقبلية، وتمثال نصفي لنابليون، ومكتبة بها كتب جادة: التاريخ العالمي للمؤرخ "سيثار كانتو"، وعجائب العالم والإنسان، ومكتبة للأعمال الأدبية العالمية الشهيرة، والمجلد السنوي لصحيفة "لا راثون"، والحدائق المزينة لـ "بيلوفو"، وكنز الشباب، وسيدة ديلنكيتي، لمؤلفه "لامبروزو"، وأشياء أخرى لا أتذكرها الآن.

كان "عز الدين" عصبياً، اكتشفت هذا على الفور لأنه عاد إلى الحديث عن ثقافته، كانت أمامه كومة ضخمة من الدفاتر، كان الدكتور قلقا من اختباري، وكان يريد التخلص من "عز الدين" فقال:

– لا تقلق سأطالع دفاترك الليلة.

لا أعرف إن كان الآخر قد صدقه، فقد بدأ في ارتداء عباءته ليدخل قاعة الاجتماعات، دون أن يلقي نظرة واحدة عليّ. وما أن بقينا وحدنا حتى قال الدكتور "ابن خلدون":

– هل صمت عن الطعام حقيقة؟ هل حفظت صور العالم الإنتثي عشر؟.

أكدت له أنني منذ العاشرة من مساء الخميس وأنا أعيش فقط على الشاي.

طلب مني "ابن خلدون" بعد ذلك أن أكرر عليه أسماء الصور الاثنتي عشر، قلتها دون خطأ واحد، طلب مني أن أكرر تلك القائمة خمس أو ست مرات. وأخيراً قال لي:

– أرى أنك نفذت التعليمات، لكن هذا لن ينفعك شيئاً إلا إذا كنت شجاعاً، وأنا أعرف أنك كذلك، لقد فندت أقوال كل من حاولوا التشكيك في قدراتك، ولذلك سأختبرك اختباراً واحداً، وهو الأصعب بينها جميعاً، مررت به أنا بسهولة في جبال لبنان قبل ثلاثين عاماً، لكن المعلمين اختبروني قبلها عدة اختبارات سهلة، اكتشفت قطعة معدنية في عمق البحر، ألقوها من الهواء، أما أنت ستبحث عن أربعة أشياء سحرية تشكل مجسم الشكل الإلهي، والآن، هناك جماعة من الإخوة يحيطون بالثور المعدني، يُصلّون مع أخوتهم، إنهم الأخيليون، يرتدون العباءات مثلهم، ولا توجد علامات تميزهم، لكنك ستتعرف عليهم، أنا آمرك أن تحضر لي "يوسف"، تهبط إلى قاعة الاجتماعات، عليك أن تتخيل نظام الأبراج السماوية الصحيح، وعندما تصل إلى الشكل الأخير، شكل "الحوت"، تستدير في أول دورة، حيث يوجد برج "الحمل"، ثم تواصل وتدور ثلاث دورات حول الأخيليين فتأخذك خطواتك باتجاه "يوسف"، وإذا لم تخطيء ترتيب الصور قل له: "ابن

خلدون يريدك"، وتأتي به إليّ هنا. بعدها سآمرك أن تأتي بالمعلم الثاني، وبعدها الثالث، ثم الرابع.

بعد أن قرأت وكررت القراءة انطبعت صور الأبراج في ذهني، لكن ما أن يقولون لك لا تخطئ حتى تخشى الخطأ، لم أكن متأكداً، لكن كان لدي إحساس داخلي بذلك، شدّ "ابن خلدون" على يدي، وقال لي أن صلواته تحرسني، هبطت السلم المؤدي إلى قاعة الاجتماعات. كنت مشدوهاً بالتماثيل، إضافة إلى تلك الأفقية البيضاء، وتلك الرؤوس الخاشعة، والأحجبة السيالة، وذلك "الثور" المقدس الذي لم أشاهده من قبل بمثل هذا القرب، كانت تقلقني، إلا إنني درت ثلاث دورات مثل الجمع فوجدت نفسي خلف أحد الملتفين بعباءاتهم، كنت أرى أنه يشبه الآخرين، ولكن بما إنني كنت تحت سيطرة تخيل تصاوير الأبراج، فلم يكن لدي الوقت للتفكير وقلت: "ابن خلدون يريدك"، تبعني الرجل، كنت دائماً خاضعاً لتخيل الأبراج، صعدنا الدرج ودخلنا قسم السكرتارية، كان "ابن خلدون" يصلي، أمرني بإدخال "يوسف" إلى الأرشيف واستدار إليّ على الفور وقال: "آتني الآن بإبراهيم"، عدت إلى القاعة، ودورت دوراتي الثلاث، وتوقفت خلف ملتف بعباءته وقلت له: "ابن خلدون يريدك". وعدت به إلى السلم.

قال "بارودي":

– توقف قليلاً، هل أنت متأكد أنه لم يخرج أحد من السكرتارية عندما كنت أنت تدور دوراتك؟.

– بص، أؤكد لك أنه لا، صحيح أنني كنت مشدوداً إلى تصاوير الأبراج، لكني كنت واعياً، لم أرفع عيني عن الباب أبداً، لم يدخل أو يخرج أحد.

أمسك "ابن خلدون" ذراع "إبراهيم" ودخل به إلى الأرشيف، وقال لي بعدها: "هات عز الدين"، إنه لشيء غريب يا سيد "ايسيدرو"، كنت في المرتين الأوليتين واثقاً من نفسي، في هذه الدورة كنت مرتبكاً، هبطت السلم، وسرت ثلاث مرات حول الدروز، وعدت برفقة "عز الدين". كنت متعباً، غامت عيناي على الدرج، كنت أعتقد أنه تأثير الكُلى، كان كل شيئ مختلفاً، حتى رفيقي. "ابن خلدون" نفسه، الذي كان يثق فيّ كثيراً، بدلاً من الصلاة بدأ في لعب الورق، أخذ "عز الدين" إلى الأرشيف وقال لي بصوت أبوي:

– أتعبك هذا الاختبار، سأبحث أنا عن المبتدئ الرابع، وهو "خليل".

التعب هو عدو الذاكرة، ما أن خرج "ابن خلدون" حتى أضأت القاعة، وبدأت في متابعته، دار الرجل دوراته الثلاث وامسك "خليل" من ذراعه وجاء به، قلت لك إن الأرشيف لم تكن له أبواب أخرى. دخل "ابن خلدون" ومعه "خليل" من ذلك الباب، وخرج بعدها على الفور الدروز الأربعة المتدثرين بعباءاتهم، أشار بإشارة الصليب، إنهم أناس مؤمنون جداً، قال لهم بلغتِنا أن ينزعوا عباءاتهم، قد تقول لي أنني كذاب، لقد وقفوا أمامي: "عز الدين" بوجهه الغريب، و"خليل" نائب مدير الشركة، و"يوسف"، و"إبراهيم" الذي كان شاحباً شحوب الموت، وكث اللحية، إنه شريك "ابن خلدون"، هل تعرف، مائة وخمسون من الدروز المتشابهين، ومع ذلك كان الزعماء الأربعة يقفون أمامي.

كاد الدكتور "ابن خلدون" أن يعانقني، لكن الآخرين كان يبدو عليهم التمرد، لم يتراجعوا عن موقفهم مني وهمهموا بالدرزية، حاول "ابن خلدون" المسكين إقناعهم لكنه استسلم أمامهم في النهاية، قال إنه

سيجري لي اختباراً آخر صعب جداً، ولكن قد يتعلق بهذا الاختبار مستقبلهم جميعاً، بل مستقبل العالم كله. أضاف:

– سنعصب عينيك بهذا المنديل، ونضع هذه العصا في يدك اليمنى، ويختبئ كل منا في ركن من أركان البيت أو الحديقة، عليك أن تنتظر هنا حتى تدق الساعة الثانية عشر. بعدها عليك أن تعثر علينا واحداً بعد الآخر من خلال تتبعك للتصاوير. إن تلك التصاوير تحكم العالم، خلال فترة الاختبار، نحن نضع العالم بين يديك، إذا لم تغير نظام الأبراج فان مستقبلنا ومستقبل العالم يسيران في طريقهما المرسوم، إذا أخطأت ذاكرتك، إذا تخيلت أن "الميزان" بعد "الأسد" وليس "العقرب" فان المُعلم الذي تبحث عنه سيُقتل، وسيعرف العالم خطر الهواء، والماء، والنار.

وافقنا جميعا عدا "عز الدين" الذي كان قد أكل كثيراً، وتكاد عيناه تُغلقان من النعاس، وكان تائهاً إلى درجة أنه عندما خرج صافحنا جميعاً واحداً بعد الآخر، وهذا شيء غير مسموح بعمله أبداً.

قدموا لي عصا من البامبو، ووضعوا العصابة على عيني وبقيت وحدي، يا له من تشوق ما كنت أشعر به، كان عليّ تخيل التصاوير دون تبديل لنظامها، أن أنتظر دقات الساعة التي لا تريد أن تدق أبداً، الخوف من أن تدق وأبدأ في السير في هذا البيت، كل هذه الأشياء بدت لي لا تنتهي وغريبة عني. فكرت دون قصد في السلم والردهات، والأثاث الذي سيكون في طريقي، في الأقبية والفناء، في الكوات وأشياء أخري. بدأت أسمع أصواتاً كثيرة: حفيف فروع الأشجار في الحديقة، نهايته، ذهبوا جميعاً فيما بقيت وحدي في هذا البيت الكبير، وهؤلاء الدروز المختبئون في أماكن لا أعرفها، وما أن

بدأت دقات الساعة حتى أصابني الرعب، خرجت بعصاي، أنا، الشاب الفتي، الوافر الحيوية، أسير كعاجز، كأعمى، اتجهت إلى اليسار على الفور، اعتقدت أنني سأعثر على عديل المعلم تحت المنضدة، فيما كنت أتخيل طوال الوقت برج "الميزان"، وكذلك "العقرب" و"القوس" وكل تصاويرها، نسيت أول استراحة على الدرج، وواصلت الهبوط، دخلت بعدها الحديقة الشتوية، فجأة ضاعت خطاي، لم أعثر على أي باب أو حائط. أيضاً نسيت أنني ظللت خلال ثلاثة أيام أعيش فقط على الشاي وحده، وما يمكن أن يؤثر على ذاكرتي خلالها. رغم ذلك سيطرت على الموقف واتجهت نحو المطبخ معتقداً أن أحدهم يمكنه أن يكون قد اختبأ في مدخل الفحم، لكن هؤلاء الدروز مهما كانت قدرتهم على التعلم لا يفكرون مثلنا نحن أبناء هذه البلاد، بعدها عدت إلى القاعة، تعثرت في طاولة بثلاثة قوائم، يستخدمها بعض الدروز الذي لهم توجهات روحية، كما لو كانوا في القرون الوسطى، شعرت كما لو كانت عيون جميع اللوحات تراقبني (عندما تذهب إلى هناك ستسخر مني، فأختي تقول لي دائماً أن لدي بعض المجنون، أو أنني شاعر)، لكني لم أتوقف فقد عثرت على الفور على "ابن خلدون": مددت ذراعي ولمسته. بلا أدنى صعوبة عثرت على السلم الذي كان أقرب مما تخيلت، خلال صعودنا لم ننطق بكلمة واحدة. كنت مشغولاً بالتصاوير، تركته وخرجت بحثاً عن درزي آخر، سمعت ضحكة مكتومة، داخلني الشك لأول مرة، وفكرت أنهم يسخرون مني. بعدها سمعت صرخة، أقسم لك أنني لم أخطئ التصاوير، لكن أصابني الغضب والمفاجأة، واعتقدت أنهم أخطأوني، أنا لا أنفي حدوث هذا، استدرت وتحسست طريقي بالعصا

حتى دخلت السكرتارية، تعثرت في شيء على الأرض، انحنيت لمست شعراً بيدي، لمست أنفاً، عينين، ودون أن أنتبه لما كنت أفعل، رفعت العصابة عن عيني.

كان "ابن خلدون" منطرحاً على السجادة، كان فمه غارقاً في الدم، لمسته، كان لا يزال دافئاً. لكنه كان جثة هامدة، لم يكن هناك أحد في الغرفة، نظرت إلى العصا التي كانت في يدي فوجدت بها دماً، فكرت أنني أنا من قتله، لا شك في ذلك، عندما سمعت الضحكة والصرخة فقدت التركيز على منظومة التصاوير، وكان ذلك سبباً في قتل الرجل، ربما كانت مسألة المعلمين الأربعة... خرجت إلى الخارج وناديت عليهم، لم يجبني أحد، رعبي دفعني إلى الهرب إلى الداخل، كنت أردد بصوت خفيض الثور حتى لا يسقط العالم، وسريعاً وصلت إلى القلعة، كانت الفيلا تصل إلى ثلاثة أرباع الناصية، قفزتها بقفزة واحدة رغم أن ارتفاعها حوالي المترين، انطلق من الفيلا دخان أسود كثيف. جريت كما لو كنت في أول شبابي، وعندما وصلت إلى شارع روسيتي استدرت، شاهدت في السماء ضوءاً كما لو كنا في احتفالات 25 مايو فقد كانت الفيلا تشتعل. هناك كان معنى تغير منظومة التصاوير، ما أن فكرت في ذلك حتى جف حلقي، رأيت أحد رجال البوليس على الناصية، عدت مبتعداً إلى الخلف دخلت بعدها إلى الحديقة العامة مرتعباً من بعض الكلاب الضالة فيها، كان يكفي أن ينبحني أحدها حتى تتبعني جميعاً. حاولت التخفيف من رعبي عندما وجدتني في شارع "تشارلوني"، درت عدة دورات حتى وصلت إلى محطة "تشاكاريتا"، بعض التعساء كانوا هناك وبدءوا في رفع أصواتهم "الجدي، الثور"، ويصدرون ضجيجاً مزعجاً، لم أعرهم

انتباهاً، ومررت بعيداً عنهم، اعتقد أنني كنت أنا من أردد منظومة التصاوير بصوت مرتفع، وحاولت الاختفاء، فأنت تعرف إنه في تلك المناطق لا يحبون من يرتدون ملابس متحضرة، وشوارعها تتشابك بالشراك، لم أفكر لحظة واحدة في البحث عن سيارة، وصلت البيت وحذائي قد تحول إلى شيء بائس، وصلت ساعة خروج عمال النظافة، أصابني التعب فجر هذا اليوم، وأعتقد أن درجة حرارتي كانت مرتفعة، ألقيت بنفسي على السرير لكني قررت عدم النوم، حتى لا أنسى منظومة التصاوير.

في الثانية عشرة من منتصف النهار أرسلت تقريراً إلى إدارة الصحيفة وللإدارة الطبية، بعدها جاء زميلي في السكن وهو بائع متجول عرف الكثير من العالم، حاول أن يأخذني في حوارات عن الدنيا لم أكن مستعداً لها، صدقني، تركته وذهبت إلى غرفتي، ولم أخرج منها طوال النهار، مع ذلك فأنا لست راهباً ولكن ما حدث بالأمس أزعجني، طلبت من صاحبة البنسيون أن تأتيني بصحيفة "لاس نوتيثياس"، ودون أن ألقى نظرة على الصفحة الرياضية، انغمست في صفحة الأحداث البوليسية، شاهدت صورة الحريق: في الساعة 0.23 فجراً اندلع حريق ضخم في فيلا الدكتور "ابن خلدون" الواقع في منطقة "ماتزيني"، وعلى الرغم من التدخل السريع لرجال المطافئ فقد احترقت الفيلا بكاملها، وراح ضحية الحريق صاحبها، الذي يعتبر من أبرز شخصيات الجالية السورية اللبنانية، الدكتور "ابن خلدون"، أحد أوائل العاملين في مجال استيراد التيل، أصابني الرعب، فزميلي "باوديزمو" كثيراً ما يهمل الكتابة في صفحته، لقد ارتكب أخطاء: مثلاً، لم يذكر شيئاً عن الاحتفال الديني، وقال إنهم اجتمعوا

هذه الليلة للإطلاع على الحسابات السنوية، وتجديد مجلس إدارة المجموعة، غادر الفيلا قبيل الحريق بقليل كل من "خليل" و"يوسف" و"إبراهيم"، وان هؤلاء صرحوا بأنهم كانوا في الفيلا حتى الثانية عشرة مع الفقيد، وإنهم لم يتوقعوا حدوث مثل هذه الكارثة التي قضت على المكان، وحولته إلى كومة من الرماد.

أنا يرعبني مثل هذا العمل، منذ تلك اللحظة لم أعد إلى العمل ولا حتى إلى المكان نفسه، كانت حالتي النفسية سيئة جداً، بعد يومين جاء لزيارتي شخص لطيف جداً، استجوبني حول مشاركتي في عملية شراء بعض لوازم كافيتيريا العاملين في شارع "بوكاريللي"، بعدها غيَّر الحديث وتحدث عن الجاليات الأجنبية، وأبدى اهتماماً خاصاً بالجالية السورية اللبنانية، ووعد بتكرار الزيارة، ولكنه لم يعد بعدها مرة أخرى، لكن شخصاً غريباً بدأ يرابط على الناصية، ثم بدأ يتابعني في جميع تحركاتي. أنا أعرف أنك ليس بالشخص الذي لا يسمح لنفسه بالتدخل في شئون بوليسية أو غيره، أنقذني يا سيد "ايسيدرو" فأنا على وشك الانهيار:

– أنا لست ساحراً ولا عرافاً حتى أحل الألغاز، ولكني لن أرفض مد يد المساعدة لك، هذا إذا، وعدتني بتنفيذ ما أنصحك به.

– لك ما تريد يا سيد "ايسيدرو".

– حسن جداً، لنبدأ الآن وعلى الفور، قل لي منظومة تصاوير الأبراج.

– الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان.

– لقد خرجت منها ببعض المتقاطعات. أطلب منك أن تغير حال المنظومة، وأن تقول لي المنظومة بالطريقة التي تريدها أنت.

– أن أغير نظامها؟ أنت لم تفهمني يا سيد "ايسيدرو"، هذا لا يمكن عمله...

– لا؟ أذكر لي أول برج، وآخرها وما قبل الأخير.

خضع "موليناري" للأمر مرتعباً. نظر بعدها من حوله.

– حسن، والآن بعد أن أخرجت من رأسك ذلك الشبح، ستذهب إلى الصحيفة، ولا تفعل أي شيء.

خرج "موليناري" من السجن صامتاً ومنهكاً، وفي الخارج كان ذلك الشخص في انتظاره.

-2-

بعد أسبوع، لم يحتمل "موليناري" تأخير الزيارة الثانية للسجن، إلا إنه، كان يشعر بالامتعاض من الحوار مع "بارودي"، الذي تدخل في قناعاته الشخصية، رجل متحضر مثله كيف يترك نفسه يقع ضحية لخداع لبعض الأجانب المتعصبين! ظهور هذا الرجل اللطيف تكرر بكثرة وأصبح مقلقاً، فلم يكن يتحدث عن السوريين واللبنانيين فقط بل عن دروز لبنان، وامتلأت حواراته بموضوعات جديدة، مثلاً: إلغاء التعذيب في عام 1813، فوائد أداة جديدة استوردها السيد "بوتشنوالد".

في صباح ممطر استقل "موليناري" الأتوبيس من ناصية "هومبرتو 1"، وعندما هبط في محطة "باليرمو" هبط بعده الرجل المجهول، الذي غير تنكره بالنظارات ولحية شقراء.

استقبال "بارودي" له كما كان دائماً بجفاء ظاهر، لم يقترب في حديثه من موضوع فيلا "ماتزيني"، تحدث كما هو معتاد منه، ما

يمكن أن يفعله له علاقة وثيقة بأوراق اللعب، تذكر مانشيت "ليـنس ريفالرولا" الذي أصابته ضربة كرسي في رأسه لحظة خداعه بورقة لعب متكررة، من خلال طريقة خاصة أخرجها بها من كمه. لإكمال تلك الحادثة، أخرج من أحد الأدراج أوراق لعب مبقعـة بالشـحوم، وطلب من "موليناري" أن يستخرج منها ورقة معينـة، وأن يضـعها على الطاولة، على أن يكون وجه الصورة إلى أسفل، وقال له:

– صديقي، أنت ساحر، عليك أن تقدم لهذا العجوز الماثل أمامك ورقة الكؤوس الأربعة.

تردد "موليناري":

– أنا لم أرغب أبداً في أكون ساحراً، يا سيد... أنت تعرف أنني قطعت كل علاقة لي مع أولئك المتعصبين.

– قطعت وفنطت، اعطني ورقة الكؤوس الأربعة، لا تخف، إنها الورقة الأولى التي ستمسك بها.

مد "موليناري" يده وأخذ ورقة غير محددة وأعطاها لـ"بارودي". نظر هذا إليها وقال:

– أنت بارع، والآن ستعطيني ورقة السيف.

أخرج "موليناري" ورقة أخرى وقدمها له.

– والآن ورقة السبعة.

قدم له "موليناري" ورقة.

– أنت تعبت من هذه العملية، أنا سأخرج لك الورقة الأخيـرة، إنها الملك.

أخذ ورقة بطريقة خادعة، وضمها إلى الثلاث الأخريات، بعدها طلب من "موليناري" أن يستدير، كانت الملـك، والكـؤوس السـبعة والسيف والكؤوس الأربعة.

قال "بارودي":

– أنت لا تفهم في العيون كثيراً، بين كل هـذه الأوراق واحـدة عليها علامة مميزة، طلبت منك الكؤوس الأربعة، فقدمت لي السيف، وطلبت منك السيف قدمت لي الكؤوس السبعة، وطلبت منك الكؤوس السبعة قدمت لي الملك، قلت لك أنك متعب وأنني سـأخرج الورقـة الأخيرة بنفسي، التي هي الملك، أخرجت الكؤوس الأربعة التي توجد عليها تلك النقاط السوداء الصغيرة.

لقد فعل "ابن خلدون" الأمر نفسه، قال لك أن تبحث عن الدرزي رقم 1، قدمت له أنت رقم 2، وطلب منك إحضار رقم 2، أحضـرت له رقم 3، قال لك أن تأتي برقم 3، أتيت أنت له برقم 4، قال لك أنه سيبحث بنفسه عن الرقم 4، واحضر الرقم 1، الرقم 1 كان "إبراهيم". صديقه الحميم. يمكن لـ"ابن خلدون" أن يتعرف عليه من بين مئـات الأشخاص، هذا هو ما يحدث لمن يتدخل في شئون الأجانـب، أنـت نفسك قلت لي أن الدروز منغلقون على أنفسهم وهـذا طيـب منـك، والأكثر انغلاقاً بينهم جميعاً كان "ابن خلدون"، عميد الجالية. الآخرون يخشوننا نحن أبناء البلد الأصليين، ولكنه هو أراد أن يستخدمها كنوع من التسلية، طلب منك أن تذهب يوم أحد وأنت نفسك قلـت لـي أن الجمعة هو يوم صلاتهم، وحتى لا تسيطر على أعصابك، طلب منك أن تظل أياماً لا تتناول غير الشاي وتستذكر تصاوير الأبراج. أجبرك على السير لمسافة طويلة ووضعك في اختبار بـين دروز مـدثرين بعباءات حتى تخطئ بفعل الخوف. لقد اخترع تصاوير الأبراج، كان الرجل يتسلى، وعندما دخلت أنت لم يكن قد راجع دفـاتر حسـابات "عز الدين" بعد، كانوا يتحدثون عن تلك الدفاتر عندما دخلـت أنـت، واعتقدت أنت أنهم كانوا يتحدثون عن روايات وأشعار، من يعرف ما

ارتكبه المحاسب من أخطاء، ولكن الحقيقة إنه قتل "ابن خلدون" وأحرق البيت حتى لا يطّلع أحد على الدفاتر. ودَعكم جميعاً، ودَعكم بالسلام باليد (شيئ لم يفعله إطلاقاً من قبل) حتى تقتنعوا بأنه غادر المكان، لكنه اختبأ بالقرب منكم، انتظر حتى خرج الآخرون الذين كانوا قد سئموا اللعبة، وعندما دخلت أنت بعصاك، والعصابة بحثاً عن "ابن خلدون" عاد هو إلى السكرتارية وشاهداك معا هو و"ابن خلدون" وان تسير كالأعمى، عندما خرجت أنت بحثاً عن الدرزي الثاني تبعك "ابن خلدون" حتى تعثر عليه من جديد، لقد كنت تأتي دائماً بالشخص نفسه، عندها قام المحاسب بطعنه من الخلف، وأنت سمعت الصرخة، وعندما عدت إلى القاعة متحسساً طريقك، كان "عز الدين" قد هرب، وأشعل النار في الدفاتر، بعدها أشعل النار في البيت كله حتى يبرر اختفاء الدفاتر.

الآخـــر

وقع هذا الحدث في شهر فبراير من عـــام 1969، فـــي شـــمال بوسطن، لم أسجله في حينه، لأن تفكيري الأول اتجه نحـــو نســـيانه، حتى لا أنسى سببه، والآن في عام 1972 أفكر في كتابته، الآخرون سيقرأون هذا الحدث كقصة، وبمرور الزمن ربمـــا يصـــبح كـــذلك بالنسبة لي.

أعرف أنه كان فظيعاً أثناء حدوثه، والأفظع هو أرق الليالي التي تلت حدوثه، بمعنى أن روايته قد تؤثر في شخص ثالث، أو لا تؤثر.

كانت الساعة العاشرة صباحًا، كنت أتكئ على مقعد أمـــام نهـــر تشارلز، وعلى بعد خمسمائة متر من يميني كان هناك مبنى مرتفـــع من قطع الثلج الكبيرة، فجعلني النهر أفكر فيه بشكل حتمي، وأفكر في الزمن، الصورة الألف لهرقل، كنت قد نمت جيداً، والـــدرس الـــذي ألقيته مساء أمس كان ناجحاً، وأعتقد أنه أعجب التلاميذ، لم تكن هناك نسمة على مرمى البصر.

فجأة شعرت بانطباع (طبقا لأقوال علماء النفس إنـــه يـــأتى فـــي أوقات التعب) لقد عشت تلك اللحظة، فقد كان فـــي الجانـــب الآخـــر للمقعد شخص ما، رغم أنني كنت أُفَضِلُ البقاء وحيداً، لكنى لم أرغب في مغادرة المكان، حتى لا أبدو غير مهذب، كان الآخر قد بدأ فـــي الصفير، كان ذلك عندما بدأ أول هم من هموم الصباح، الـــذى كـــان يصفر، أو حاول التصفير (أنا لم أكن أنا مغنيـــاً جيـــداً) كـــان ذلـــك

الشخص يبدو من أبناء أمريكا الجنوبية، من بقايا "آل الياس ريجولس"، بالمناسبة فإن السيد "البارو مليان لا فينور" مات منذ سنوات طويلة، بعد ذلك جاءت الأحاديث، كان ذلك جزء عشري من البداية، الصوت لم يكن للسيد "البارو"، لكنه كان يحاول أن يبدو مثل صوت "البارو"، لقد تعرفت عليه بطريق الخطأ.

اقتربت منه وقلت له:

– يا سيد، هل أنت شرقي أم أرجنتيني؟

فكانت إجابته:

– أرجنتيني، ولكني أعيش في جنيف منذ أن بلغت الرابعة عشرة. ساد صمت طويل، ثم سألته:

– تعيش في المنزل رقم "17" من شارع "مالاجنو"، أمام الكنيسة الروسية؟

أشار بالإيجاب.

قلت له بحزم:

– على أية حال أنت اسمك "خورخي لويس بورخيس"، وأنا أيضاً اسمي "خورخي لويس بورخيس"، ونحن الآن في عام 1969 بمدينة كمبردج.

– لا.

أجابني بنفس صوتي، وإن بدا بعيداً بعض الشيء، بعد فترة قال بإلحاح:

– أنا هنا في جنيف على مقعد يبعد عدة خطوات من "رودان" الشيء السيء أننا متشابهان، ولكنك عجوز جداً، وشعر رأسك رمادى اللون.

– هل أستطيع أن أتـأكد من أنك لا تكذب، سأقص عليك أشياء لا يعرفها شخص غريب، في البيت يوجد موقد فضى له حامل يشبه الثعبان، أحضره جدنا من البيرو، وأيضاً طست فضي، بعناه، وفـي دولاب حجرة النوم صفوف من الكتب، والأجزاء الثلاثة من روايات "ألف ليلة وليلة"، التي أعدها "لانـي" بصـور مطبوعـة بالصـلب، ومذكرات بحروف صغيرة ما بين فصل وآخر، والمعجـم اللاتينـي "كيشارت"، ورواية "النقابة" من تأليف: "تاثيو"، وهي مكتوبة باللاتينية، ومن ترجمة "جوردون"، ورواية "دون كيخوتـه"، و "ألـواح الـدم" لـ"ريبيرا اندراته" بإهداء من المؤلف، و"سارتر ريساتر" لـ"كارلايل" وترجمة "أمييل".

وخلف كل هذه الكتب، هناك كتاب مختبيء في خشونة غريبة عن العادات الجنسية لشعوب البلقان، لم أنس أيضاً إحدى الأمسيات فـي الطابق الأول بميدان "دوبورج".

أجاب مصححاً:

– "دوفولا".

– حسنا، "دوفولا"،هل هذا كاف؟

أجاب:

– لا هذا، لا يبرهن على أي شيء، لو أنني كنت أحلـم، فمـن الطبيعى أنك تعرف ما أعرفه، القائمة المطولة التي قدمتها لى كلهـا باطلة.

كان الاعتراض حقيقاً، أجبته:

– لو كان هذا الصباح وهذا اللقاء حلماً، كل منا عليه أن يفكـر أنه هو الحالم، وربما نترك الحلم وربما لا، وواجبنا البديهي، أن نتقبل هذا الحلم، تماماً كما نتقبل الكـون، وولادتنـا، والنظـر بـالعينين، والتنفس.

قال بجزع:

– ولو استمر هذا الحلم؟

من أجل أن يطمئن، وأطمئن نفسي تظاهرت بالثبات الذي لم أكن أشعر به حقيقة. قلت له:

– حلمي استمر حوالي الستين عاماً، وفى النهاية لو تذكرنا أنه لا يوجد شخص لا يلتقى مع نفسه، وهذا هو ما يحدث لنا الآن، إلا إننا اثنان، ألا تريد أن تعرف شيئاً عن الماضي، ما هو المستقبل الذي ينتظرك؟

جلس دون أن ينطق بكلمة واحدة، وواصلت أنا الحديث:

– أمي بحالة طيبة، وهى تقيم بشارع "تشاركاس ومايبو"، في مدينة "بوينوس ايرس" لكن أبي مات منذ ثلاثين عاماً، مات بالسكتة القلبية، وكان قبلها قد أصيب بشلل نصفي، يده اليسرى كانت موضوعة على يده اليمنى، كانت كيد طفل صغير موضوعة على يد عملاق مارد، كان يتلهف على الموت، لكنه لم يكن يجهر بالشكوى، جدتنا كانت قد ماتت في نفس البيت، قبل موتها ببضعة أيام جمعتنا وقالت لنا: "أنا امرأة عجوز جداً، تموت ببطء، وهذا أمر عادي، أرجو ألا تهتموا بموتي"، "تورا"، أختي تزوجت ولديها طفلان، أه، على فكرة، كيف حالهم في البيت؟

– في حالة طيبة، الأب يمزح دائماً بنكاته عن السيد المسيح، قال أمس أن المسيح كان كرعاة البقر الذين لا يحبون التعاهد، ولذلك فهو يعظ بالأمثال.

تمايل وقال لي:

– وأنت؟

– لا أعرف عدد الكتب التي ستكتبها، لكني أعرف أنها كثيرة، ستكتب الشعر الذي يعطيك الإعجاب المطلق، وقصصاً فطرية عجيبة، ستدرس كأبيك وكآخرين من فصيلتنا.

تعجب لأنني لم أسأله عن فشل أو نجاح الكتب، غيرت من لهجتي، وواصلت:

– لو أننا تحدثنا عن التاريخ، كانت هناك حروب أخرى بين نفس المتحاربين القدامى تقريباً، فرنسا استسلمت بسرعة، وإنجلترا، وأمريكا حاربتا ضد ديكتاتور كان اسمه "هتلر"، ودارت حرب "ووترلو" من جديد، أما "بوينوس ايرس" منذ عام 1946، فقد ولد فيها "روساس" آخر، يشبه قريبنا إلى حد كبير، ومقاطعة قرطبة أنقذتنا مثلما أنقذتنا "انترى ريوس" من قبل، والآن الأمور تسير بشكل عادى، وسيء في نفس الوقت، روسيا تقوى في الأرض، أمريكا مقيدة بخرافة الديمقراطية، ولن تقرر أن تكون إمبراطورية، كل يوم يمر يصبح فيه وطننا أكثر تخلفاً، وأكثر تعجرفاً، كما لو كان قد أغلق عينيه، ولن تكون مفاجأة لو استبدلوا تعليم اللاتينية بالهندية المندثرة.

لاحظت أنه لم يعرني انتباهاً، المستحيل أصاب بالرعب، أنا، الذي لم أكن أبا شعرت بألفة تجاه هذا الولد المسكين، وكأنه ابني من لحمي ودمي، وشعرت بموجة من الحب، رأيته يضغط على كتاب بين يديه، سألته عن هذا الكتاب فأجابني بغرور:

– "المجانين"، أو أعتقد "الشياطين" لـ"ديستوفسكي".

– لقد إلتبس عليّ الأمر، كيف حاله؟

لم أقل له قولاً حسناً، شعرت أن السؤال كان سباً، عبّر عن رأيه.

– المعلم الروسي أدرك أكثر من أي شخص مشاكل الروح السلافية، هذه الروح البلاغية بينت لي أنه قد هدأ.

سألته عن مجلدات المُعلم الأخرى التي قرأها، ذكر اثنين أو ثلاثة، من بينها "المزدوج" . سألته إن كان قد قرأ جيداً، وفرق بين الشخصيات مثل "جوزيف كونراد"، وإن كان يفكر في مواصلة فحص العمل بالكامل، أجابني بمفاجأة حقيقة:

– الحقيقة لا.

سألته إن كانت يكتب، فقال لي إنه يعد كتاباً من الشعر سيُطلق عليه اسم "الأناشيد الحمراء"، وأيضاً يفكر في أن يُطلق عليه اسم "الإيقاعات الحمراء".

فقلت له:

– لِمَ لا، يمكنك أن تتعلل بسوابق جيدة، الشعر "الأزرق" لـ"روبين داريو"، والأغنية الرمادية لت"فيرلين".

دون أن انتبه، أتضح لي أن كتابه يتغنى بأخوة الناس جميعاً، والشاعر في زماننا لا يستطيع أن يدير ظهره لعصره، فكرت لحظة ثم سألته، إن كان حقيقة يشعر بأنه أخ للجميع، مثلاً، أخ لكل أصحاب شركات القنابل الجنائزية، لكل سعاة البريد، لكل الغواصين، ولكل الذين يعيشون على رصيف الأرقام المزدوجة، أخ لكل الصامتين.. الخ.

قال لي إن كتابه يشير إلى عامة المضطهدين والمنبوذين.

أجبته:

– جمهورك من المضطهدين، والمنبوذين، ليسوا أكثر من أشياء مجردة، لا يوجد غير أفراد، إذا كان هناك أحد "إنسان الأمس ليس كإنسان اليوم" كما قال أحد الإغريق، ونحن في هذا المقعد في "جنيف" أو "كمبردج" ربما تكون الدليل على ذلك.

الأعمال الجديرة بالذكر لا تحتاج إلى جمل جديرة بالذكر، ما عدا

الأوراق الصارمة للتاريخ، إنسان على وشك الموت يريد أن يتذكر صورة من الطفولة، فالجنود الذين يستعدون لدخول المعركة يتحدثون عن الوحل، والشاويش، وضعنا فريد، وبصراحة لم نكن مستعدين، نتحدث عن الأدب بشكل سيء، أخاف ألا أكون قد قلت أشياء أخرى اعتدت أن أقولها للصحفيين، اعتقدت في اختراع، أو اكتشاف الاستعارات الجديدة، إن تخيلاتنا أصبحت مقبولة، شيب الرجال والغروب، الأحلام، والحياة، جريان الزمن، والمياه، لقد كشف هذا عن الرأى الذي سيتضح بعد سنوات.

لم يكن يستمع إلي، وقال بسرعة:

– لو أنك كنت هنا، كيف تفسر نسيان مقابلتك مع شخص من سنك في عام 1918، قلت له أيضاً إنه "خورخي لويس بورخيس".

لم أكن قد فكرت في هذه المشكلة، أجبته بشك:

ربما كان الحدث غريباً، وفكرت في نسيانه.

عارضني بسؤال خجول:

– كيف حال ذاكرتك؟

فهمت بالنسبة لشاب لم يكمل العشرين من عمره، أن رجلاً له أكثر من سبعين عاماً، يعتبر ميتاً تقريباً، أجبته:

– اعتدت التظاهر بالنسيان، لكني مازلت أشعر بما أفعله، أقوم بتدريس "الانجلوسكسون"، وأقوم بهذا بشكل جيد.

كان حديثنا قد طال بما فيه الكفاية، فبدأ وكأنه ليس حلماً.

ألحت على فكرة فجائية، قلت له:

– أستطيع أن أبرهن لك حالاً على أنك تحلم معى، اسمع جيداً بيت الشعر هذا الذي لم تكن قد قرأته بعد، وأنا مازلت أذكره: "الهيدر الكوني يتلوى بجسد مغطى بالنجوم"(*)

(*) الهيدر: حيوان بحري خرافي.

شعرت بتخديره الرهيب، كررت البيت الشعري بصوت منخفض فازداد بريق الكلمات.

تمتم:

– هذا صحيح، أنا لن أستطيع أن أكتب سطراً مثل هذا.

لقد جمعنا "هوجو".

كرره هو، أتذكره الآن، تلك القطعة الخاصة التي يتذكر فيها "والت ويتمان" ليلة مشتركة أمام البحر، لقد كان سعيداً حقاً.

– قالها "ويتمان" لأنه حلم بها، ولكنها لم تحدث، والقصيدة كان يمكن أن تكون أجمل لو أنها كانت إعلان الاشتياق لا قصة الاشتياق.

ظل ينظر إلي.

صرخ:

– أنت لا تعرف "ويتمان"، هو لا يكذب.

نصف قرن لم تمر هباء، حديثنا عن القراءات المختلفة، والأذواق المختلفة، عرفت أننا لن نستطيع التفاهم، كنا مختلفين جداً، ومتشابهين جداً، لا نستطيع أن نخادع، وذلك يجعل الحوار صعباً، كلانا كان صورة كاريكاتورية للآخر، كان الوضع غير طبيعي، واستمر زمناً طويلاً، التشاور أو التحاور كان صعباً، لأن الهدف الحتمي أن يكون هو أنا.

فجأة تذكرت حكاية خيالية من "كوليردج"، شخص ما حلم أنه يعبر الجنة، وأعطوه زهرة كبرهان، وعندما استيقظ كانت معه الزهرة، قلت له:

–هل معك بعض النقود؟

أجابني:

– نعم معي عشرون فرنكاً، الليلة دعوت "سيمون جيتشلنسكي" في "الكروكورديلي".

– قل لـ"سيمون" أن يدرس الصيدلة في "كاروج"، وأن يدرس جيداً، الآن، هلا أعطيتني واحدة من العملة التي معك؟

أخرج ثلاث قطع من الفضة، وبعض القطع الورقية الصفراء، ودون أن يفهم قدم لي واحدة من الأولى.

أعطيته واحدة من الأوراق النقدية الأمريكية، من قيمة مختلفة ولكن بنفس الحجم، تفحصها جيداً، وصرخ:

– مستحيل، إنها تحمل تاريخ 1974؟

(بعد شهور شخص ما قال لي إن أوراق البنكنوت لا تحمل أي تاريخ).

تدارك الأمر قائلاً:

– هذه معجزة، والمعجزات تخيفني.

مزق الورقة النقدية إلى قطع صغيرة واحتفظ بالعملة المعدنية، أنا عزمت على إلقائها في النهر، قوس العملة الفضية الضائع في نهر الفضة يقارن بمشهد حي في حياتي، لكن سوء الحظ منع ذلك.

أجبت بأن غير العادى لو حدث مرتين يصبح عادياً، اقترحت أن نلتقي في اليوم التالي، على نفس المقعد الذي يوجد في زمانين، ومكانين مختلفين.

وافق في الحال، وقال لي دون تردد إن الوقت متأخر، كذبنا، كل واحد منا كان يعرف أن الآخر يكذب، قلت له إنهم سيأتون للبحث عني سألني:

– يبحثون عنك؟

– نعم، عندما تبلغ سنا معينة ستكون قد ضيعت كل نظرك تقريباً، وسترى اللون الأصفر، والظلام، والأضواء، لا تنزعج، العمى

التدريجي ليس شيئاً مأساوياً، إنه كمغيب الشمس البطيء في يوم صيفي.

افترقنا دون أن نتصافح، في اليوم التالي لم أذهب، ولا الآخر كان قد ذهب، تأملت هذا للقاء كثيراً، هذا الحدث الذي لم أقصصه على أحد، وأعتقد أنني قد اكتشفت السر، هذا اللقاء كان حقيقياً، لكن الآخر تحدث معي في الحلم، وهكذا استطاع أن ينساني، أنا تحدثت معه في الليل، ومازالت هذه الذكري تعذبني.

الآخر حلم بي، لكنه لم يحلم بعنف، مجرد حلم، أفهمه الآن، التاريخ المستحيل على الدولار.

بيت أستريون

قد يتهمونني بالعجرفة، وربما بالتوحش، وقد يصفونني بـالجنون، كل هذه الاتهامات (التي سأجازي من يتهمني بها في حينه) مضحكة، حقيقة أنني لا أغادر بيتي أبداً، وأيضاً، وليدخل من يريد. ولا أزعـق كالنساء، ولا أطلق صرخات هستيرية، كتلك التي تتردد في القصور الكبيرة، فقط أعيش العزلة، والهدوء لذلك قررت أن أبني بيتاً لا مثيل له في العالم، (ويكذبون حين يقولون إن في مصر بيتاً يشبهه) حتـى الذين يفترون عليّ يقولون إنه لا توجد قطعة أثاث واحدة في البيـت، شيء مضحك وذلك لأنني "أستريون"، أنا سجين. أكرر من جديد لـن يكون هناك باب مغلق، وأضيف إنه لن تكون هناك أقفال، في مسـاء يوم ما نزلت إلى الشارع وعدت قبل حلول الليل، فعلت ذلك بدافع من إيحاء وجوه الغوغاء، الوجوه المسطحة الشاحبة، التي تبدو كـالكف المفرودة، كانت الشمس قد غربت، لكن بكاء الطفل الشاحب، والصلاة الجماعية قالوا إنهم يعرفونني. الناس صلت، هربت، ركعت، بعضهم تسلق حائط المعبد، آخرون جمعوا الحجارة، أحدهم فيما أعتقد، اختبأ تحت البحر. ليس عبثاً أن أمي كانت ملكـة. لا أسـتطيع أن أخـتلط بالعامة، رغم أني أود ذلك، تواضعاً مني.

الأمر هو أنني فريد، لا يهمني ما يمكن أن يوصله إنسان ما إلى الآخرين، كالفلاسفة، أعتقد أنه لا يوجد شيء جيد التوصيل كالكتابة، فالضجر، والأشياء المبتذلة، ليس لها مكان في حياتي الروحية، أنـا معاد لما هو أعظم، لم أفرق أبدا بين حرف وآخـر، نفـاذ صـبري

جعلني أشعر بعدم القدرة على تعلم القراءة، أحياناً أحزن لـذلك، لأن الأيام والليالي طويلة.

بالطبع لم تكن تنقصني أدوات التسلية، كنت أشبه بالخروف الـذي يناطح، أجري في أروقه حجرية إلـى أن أتـدحرج علـى الأرض، مترنحاً. أقبع في ظل مخزن أو ركن حظيرة، وألعـب الأسـتغماية، أترك نفسي أسقط من فوق السطوح إلى أن يدمى جسدي، وفـي أي وقت كنت ألعب لعبة النوم، كنت أنام بعيون مغلقة، وتـنفس رتيـب (أحياناً كنت أنام حقيقة، وأحياناً حين أفتح عيني أجد أن لون النهار قد تغير) لكن بين كل هذه الألعاب، كنت أفضل لعبة "استريون" الآخـر، أتخيل أنه لو جاء لزيارتي وأنا أريه البيت، وأقول له باحترام عظيم: "الآن نعود إلى الممرات الداخلية، أو الآن نحن في صالون آخر، أو، الآن سنرى مخزن الرمال، أو سترى كيف يتشعب الطابق الأرضي". أحيانا أخطئ، ونضحك معاً.

لم أتخيل هذه الألعاب فقط، بل تأملت البيت أيضاً. كـل أجـزاء البيت مكررة، أي مكان هو في ذات الوقت مكـان آخـر، لا يوجـد مخزن واحد، أو فناء واحد، أو حوض واحد، أو مزود واحد (إنها لا تحصى) هناك أربعة عشر مزوداً، ومخزناً وفناءً، وحوضاً، البيـت بحجم الدنيا، أو من الأفضل القول إنه الدنيا ذاتها، ومع ذلـك، فقـد عبرت الأفنية، والمخزن، والممرات المتربة المبنية بالحجر الرمادي، ووصلت إلى الشارع، وشاهدت المعبد والبحر، وهذا لم أفهمه، إلى أن بينت لي رؤية ليلية إنه هناك أربعة عشر معبداً وبحراً، كـل شـيء مكرر عدة مرات، أربعة عشرة مرة، لكن شيئين في هذا العالم يبـدو أنهما لا يتكرران: في الأعلـى، الشـمس الملونـة، وفـي الأسـفل

"استريون"، ربما أكون أنا من خلق النجوم، والشمس، وهـذا البيـت الكبير، لكني لا أتذكر.

كل تسع سنوات يدخل البيت تسعة رجال لكي أحررهم من الشر، أسمع خطواتهم أو أصواتهم في عمق الممرات الحجريـة، وأجـري سعيداً لأبحث عنهم، الاحتفال يستغرق دقائق قليلة، يسقطون واحـداً بعد الآخر دون أن ألطخ يدي بالدم، وحيث يسقطون يبقون، والجثـث تساعدني على التفرقة ما بين ممر وآخر، أجهل من يكونون، لكنـي أعرف أن أحدهم في لحظة الموت، قال إن مخلصي مـا زال حيـاً، وفي النهاية سيقف على الأرض، لو استطاعت أذني أن تلـتقط كـل أصوات العالم، أستطيع أن أميز خطواته، ليته يأخذني إلى مكان قليل الممرات والأبواب، كيف يكون مخلّصي؟ هل هو ثور أم إنسان؟ ربما يكون ثوراً برأس إنسان؟ أو ربما هو مثلي؟

خوان رولفو(*)

Juan Rulfo

(المكسيك)

(*) خوان رولفو Juan Rulfo ولد عام 1914 بالأرجنتين، ولم يكمل دراساته الجامعية، عمل في بعض الشركات ومارس مهنة الكتابة، أهم مؤلفاته: السهل يحترق ، رواية"بيدرو بارامو" التي يعتبرها النقاد الرواية التي دشنت ما عُرف بعد ذلك باسم "الواقعية السحرية".

قل لهم ألا يقتلوني

– قل لهم ألا يقتلوني، هيا "خوستينو"، اذهب وقل لهم ألا يقتلوني، قل لهم أن يحسنوا إليّ ويتركوني.

– لا أستطيع، هناك جاويش لا يريد أن يسمع أي شيء عنك.

– أفعل ما أقوله لك، دع عنك حذلقتك وقل لهم إن الخوف قد جعله يصبح طيباً، قل لهم ألا يفعلوا ذلك تقرباً إلى الله.

– الأمر لا يتعلق بالخوف، أعتقد أنهم يريدون قتلك فقط، وأنا لا أريد أن أعود إليهم مرة أخرى.

– هيا اذهب إليهم مرة أخرى، مرة واحدة فقط، وستعرف ما تستطيع الحصول عليه.

– لا، لا أرغب في الذهاب، وأنت تعرف أني أبنك، ولو تجادلت معهم كثيراً، سيعرفون من أكون، وستكون النتيجة إعدامي أيضاً، من الأفضل ترك الأمور تسير كما هي.

– هيا يا "خوستينو"، قل لهم أن يتركوني شفقة بي، قل لهم هذا لا أكثر.

جز "خوستينو" على أسنانه، وحرك رأسه قائلاً:

– لا.

وظل يهز رأسه لفترة طويلة.

– قل للجاويش أن يأخذني إلى الكولونيل، وقُص عليه أني عجوز جداً، ولا أصلح لشيء، ماذا يجنون من موتي؟ لن يجنوا شيئاً. ربما تأخذهم الشفقة بي، قل لهم أن يدعوني إكراما لله.

وقف "خوستينو" على كومة الأحجار التي كان يجلس عليها، واتجه صوب باب الكولونيل، ثم استدار ليقول:

– حسنا سأذهب، لكن لو أعدموني من الذي سيتولى أمر زوجتي وأولادي؟

–عناية الله يا "خوستينو"، هي التي ستتولاهم، لا تزعج نفسك واذهب وسترى ما ستفعله من أجلي، لأن هذا هو الأمر العاجل.

كانوا قد جاءوا به عند طلوع الفجر، والآن أصبح النهار كاملاً ومازال هناك، مشدوداً إلى مشنقة ينتظر، لم يكن باستطاعته أن يظل هادئاً.

حاول أن ينام برهة ليهدأ، لكن النوم عصاه، وعصاه الجوع أيضاً، لم تكن لديه رغبة في أي شيء، فقط كانت لديه رغبة في الحياة، وبعد أن تأكد أنهم سيقتلونه، تعلق أكثر بالحياة، كطفل حديث الولادة.

من كان يعتقد أن هذه المسألة القديمة جداً ستعود، ذلك الحدث الذي كان يعتقد أنه قد دُفن إلى الأبد، هذا الحدث الذي دُفن مع السيد "لوبي"، لقد اندفع وقتله، لا أكثر ولا أقل من هذا، وهذا حدث لأنه كان محقاً، إنه مازال يذكر ذلك.

السيد "لوبي تيريرو"، صاحب مزرعة "بويرتا بيدرا" كان صديقاً له، لقد قتل صديقه لأنه منع ماشيته من المرعى.

لقد تحمل كثيراً، لكنه بعد أن رأى ماشيته تموت من الجفاف والجوع، بينما ظل صديقه "لوبي" يمنعه من الرعي في أرضه، فاضطر إلى إحداث فتحة في السور، ودفع ماشيته إلى المرعى حتى تشبع، هذا لم يعجب السيد "لوبي"، فأمر بإغلاق الفتحة مرة أخرى، فهاج "خوبنثيو" وفتح السور من جديد، وهكذا كان السور يُغلق نهاراً

ويُفتح ليلاً، وكانت الماشية ترعى بينما هو ينتظر إلى جوار السور، وظلت ماشيته ترعى بعد أن كانت تشم رائحة الحشائش دون الوصول إليها.

تنازع هو والسيد "لوبي"، وتكرر التنازع مرات ومرات، ولم يصلا إلى حل، إلى أن قال له مرة السيد "لوبي":

– اسمع يا "خوبنثيو"، لو دخل حيوان واحد من ماشيتك سأقتله.

فأجابه هو:

– ليس ذنبي أن الحيوانات تبحث لها عن مرعى، إنها حيوانات بريئة.

قام السيد "لوبي" بقتل عجل.

"حدث هذا منذ خمسة وثلاثين عامًا، في شهر مارس، وفي أبريل كنت هارباً في الجبل، ولم تنقذني البقرات العشر التي أعطيتها للقاضي، ولا البيت الذي رهنته مقابل الإفراج عني من السجن، وما تبقى لدي من مال دفعته رشوة حتى لا يطاردوني، ورغم ذلك ظلوا خلفي، لذلك قررت أن أعيش مع ابني في هذه الأرض التي كنت أملكها في "بالو دى بينادو"، وكبر ابني وتزوج من "أجناثيا"، وأنجبا ثمانية أبناء، وهكذا مر الزمن، ولهذا كان يجب نسيان كل ما حدث، لكن ما حدث يؤكد أن الأمر ليس كذلك".

"عندما حدث هذا فكرت أنه بقليل من النقود يمكن تسوية المسألة، فالسيد "لوبي" كان وحيداً، كانت له زوجة وابنان، كانا ما يزالان كالقطط العمياء، وسرعان ما ماتت الأرملة بالحسرة، والأبناء أخذهم بعض الأقارب بعيداً عن القرية. ولذلك لم أشعر بالخوف منهم".

"لكن الآخرين ظلوا يهددوني، ويسرقوني، يلقون في قلبي الرعب كلما دخل القرية غرباء:

– هناك غرباء يا "خوبنثيو".

"وأنا أهرب إلى الجبل، أختبئ بين الأشجار، وأظل أياماً أتغذى على الحشائش، كمن تطارده الكلاب، استمر هذا حياة كاملة، لم يكن عاماً أو عامين، كان حياة كاملة".

جاءوا للبحث عنه، عندما لم يكن ينتظر ذلك، كان واثقاً من أن ذاكرة الناس يصيبها داء النسيان، معتقداً في إمكانية أن يمضي أيامه الأخيرة هادئاً، "على الأقل، قد يتركوني في حالي نظراً لشيخوختي".

سيطر عليه هذا الأمل، لذلك أزعجه أن يموت هكذا فجأة، في أواخر أيامه، وبعد كل المعارك التي خاضها لإنقاذ نفسه من الموت، وبعد أن أمضى أجمل أيام العمر هارباً من مكان لآخر، وتمزق جسده من التعب، لقد كان يختبئ من أي شيء خوفاً من القبض عليه.

عندما هجرته زوجته لم يفكر في البحث عنها، وتركها تذهب دون أن يسأل لماذا، وإلى أين، ولا مع من ذهبت؟ تركها تذهب كما ذهب كل شيء في حياته، دون أن يحرك ساكناً، ولم يبق له شيء يهتم به سوى حياته، وحاول الحفاظ عليها، فلم يدعهم يقتلونه، على الأقل حتى هذه الساعة، لن يدعهم يقتلونه.

لكن، رغم ذلك فقد جاءوا به من هناك، من "بالو دى بينادو"، لم يكونوا في حاجة إلى إجباره، جاء بنفسه، فقط كان خائفاً، كانوا يعرفون أنه لن يستطيع الهرب بجسده النحيل الهرم، وسيقانه النحيلة التي تشبه العيدان الجافة، والتي ترتجف من الخوف، كان يعرف أنه سيموت، لقد أخبروه بذلك.

عرف في حينه، وبدأ يشعر بالغثيان، ذلك الغثيان الذي كان يشعر به دائماً عند اقتراب الموت منه، ويطل الجزع من عينيه، ويسيل لعابه في فمه، ذلك السائل المر الذي كان يبتلعه رغم أنفه، وذلك الشيء الذي يجعل أقدامه ثقيلة، بينما يرتخى رأسه على كتفيه، وقلبه يدق بين ضلوعه بكل ما أوتى من قوة، لم يستطيع أن يتواءم مع فكرة أنهم سيتقلونه.

لابد من أمل، من أمل في أي مكان، ربما أخطأوه، ربما كانوا يبحثون عن "خوبنثيو" آخر، لا "خوبنثيو" الذي هو.

ظل يسير بينهم في صمت، ويداه إلى جنبيه، الفجر كان مظلماً بلا نجوم، الريح تتحرك ببطء، كانت الريح تكنس الأرض الجافة، وكانت تحمل روائح كتلك التي تشع من الطرق الممهدة.

عيناه اللتان ضعفت نظراتهما مع مرور السنين كانت ترى الأرض هنا تحت قدميه، رغم الظلام، لقد كانت كل حياته في هذه الأرض، عاش هنا على هذه الأرض، ستون عاماً مرت، كان يتحسسها بين يديه، يتذوقها كما يتذوق اللحم، يمضى أوقاتاً طويلة يتأملها بعينيه، يتذوق كل قطعة منها كما لو كانت القطعة الأخيرة، وربما كان يعرف أنها القطعة الأخيرة.

بعد ذلك، كان يريد أن يقول شيئًا، فنظر إلى الرجال الذين يقتادونه، يريد أن يطلب منهم أن يتركوه، أن يدعوه يذهب، "يا أبنائى، أنا لم أسئ لأحد" كان يريد أن يقول ذلك، لكنه ظل صامتاً: "سأقول لهم ذلك بعد قليل"، كان ينظر إليهم، الخيال يصل به إلى أن يعتقد أنهم أصدقاء، لم يكن يعرفهم، لم يعرف من هم، كان يراهم بجواره، يميلون عليه، ويقتربون منه ليوجهوه نحو الطريق الصحيح.

شاهدهم لأول مرة هذا المساء، في تلك الساعة التي كان يحترق فيها الزمن، كان يعبر القناة ويدوس الأرض ليرى النباتات التي زرعها، هبط إلى الأرض من أجل ذلك، كان يريد أن يقول لهم إن زراعته بدأت في النمو، لكنهم لم يتوقفوا.

شاهدهم في الوقت المناسب، كان يرى كل شيء في الوقت المناسب، كان بوسعه أن يختبئ، كان يمكنه أن يظل مختبئاً لعدة ساعات، وبعد أن يذهبوا يعود، على أية حال زراعته لن تنمو، كانت تنتظر هطول الأمطار، والأمطار لم تأت، لابد لهذا الجفاف أن يذهب.

كان في حاجة إلى النزول، ولكنه وضع نفسه بين هؤلاء الرجال، كمن دخل حفرة لا يمكن الخروج منها.

يسير الآن معهم، في صمت، لا يرى وجوههم، كان يرى أجسادهم، وهى تقترب وتتباعد عنه، عندما تكلم لم يكن على يقين أنهم سيسمعونه، قال:

– أنا لم أتسبب في الإساءة لأحد أبداً.

قال ذلك ولكن لم تحدث أي استجابة، كأنهم لم يفهموا شيئًا. لم تستدر نحوه الوجوه لتنظر إليه، واصلوا المسير كالنائمين.

حينئذ لم يكن لديه ما يقوله أكثر من ذلك، كان عليه أن يبحث عن الأمل في أي شيء آخر، ترك ذراعيه تسقطان على جنبيه، بينما كانوا يقتربون من أول بيوت القرية، ظل يسير بين الرجال الأربعة الذين يلفهم ظلام الليل.

– سيدى الكولونيل، الرجل هنا.

كانوا قد توقفوا أمام الباب، هو يمسك بقبعته بين يديه احتراماً،

ينتظر أن يرى أحداً يخرج من الباب، لكن صوتاً جاء من الداخل وسأل:

– أي رجل؟

– رجل "بالو دى بينادو" سيدي الكولونيل، مَنْ كنا نبحث عنه، عاد الصوت من الداخل يسأل من جديد:

– اسأله إن كان قد عاش في وقت ما في "أليما"؟

كرر الجاويش السؤال:

– هل عشت فترة من حياتك في "أليما"؟

– نعم– قل للسيد الكولونيل إنني من هناك، وإنني عشت هناك إلى فترة قريبة.

– اسأله إن كان يعرف السيد "جوادا لوبي تيريرو".

– يقول هل تعرف السيد "جوادا لوبي تيريرو"؟

– السيد "لوبي"؟ نعم، قل له إني أعرف أنه مات.

حينئذ تغيرت لهجة الصوت القادم من الداخل:

– أنا أعرف أنه مات.

وواصل الحديث كمن يتحدث مع شخص آخر في الجانب الآخر من الحائط.

– السيد "جوادا لوبي تيريرو" كان أبي، عندما كبرت وبحثت عنه قالوا لي أنه مات، صعب أن نكبر ونعرف أن الشيء الذي نبحث عنه قد مات، هذا هو ما حدث لنا.

"بعد ذلك عرفت أنهم قتلوه، وغرسوا وتد عجل في بطنه. قيل لي إنه ظل مختفياً يومين، وعندما وجدوه ملقى في جدول، كان مازال يحتضر ويطلب أن يرعوا أسرته من بعده".

"يبدو أن هذا قد يُنسى مع الزمن، وحاولت أن أنساه، لكن الذي لا ينسى أن أعرف أن الذي فعلها مازال حياً يرزق، ويعيش على أمل

أن يحيا حياته كاملة، لا أستطيع أن أتسامح في هذا. رغم أنني لا أعرفه، لكن أن أعرف أين هو يدفعني هذا إلى البحث عنه والقضاء عليه، لا أستطيع أن أتركه يعيش، ما كان يجب أن يُولد أصلاً".

لقد سمع بوضوح كل الذي قيل، وبعد ذلك صدر الأمر:

– خذوه، واربطوه فترة من الوقت ليتعذب، وبعد ذلك أعدموه.

قال هو:

– سيدي الكولونيل، أنا لا أساوي شيئاً الآن، لن أعيش طويلاً، سأموت وحدي من الشيخوخة، لا تقتلني..

عاد الصوت من الداخل يقول:

– خذوه.

–... لقد دفعت الثمن يا سيدي الكولونيل، دفعته عدة مرات، لقد أخذوا مني كل شيء، لقد عذبوني بطرق عديدة، ظللت أربعين عامًا مختبأ كالموبوء، لا أستحق كل هذا. سيدي الكولونيل، دعني على الأقل ليغفر لي الله، لا تقتلني، قل لهم ألا يقتلوني.

كان هناك يترنح، ويهز قبعته بإتجاه الأرض ويصرخ.

– اربطوه، أعطوه شيئاً ليسكر، حتى لا يشعر بألم الرصاص.

أخيراً، كان ملقى في ركن تحت المقصلة، كان ابنه "خوستينو" قد جاء، ذهب وعاد، وذهب وعاد عدة مرات، وها هو يأتي مرة أخرى، وضعه فوق الحمار، وأحكم ربطه على السرج حتى لا يسقط أثناء الطريق، وضع رأسه في كيس حتى لا يرعب أحداً، دفع الحمار ليجري بسرعة، ليصل إلى "بالو دى بينادو" ويقوم بإعداد مراسم الدفن.

كان يقول:

– زوجة ابنك، وأحفادك لن يتعرفوا عليك، سينظرون إلى وجهك ويعتقدون أنك لست أنت، سيعتقدون أن الذئب قد أكلك عندما يرون وجهك الممزق من الرصاص الذي أُطلق عليك.

ليلة تركوه وحيداً

– لماذا يسيرون ببطء؟

– سأل "فيليثيانو دويلاس" الذين كانوا يسيرون أمامه، وأضاف:

– بهذه الطريقة سيصيبنا النعاس، ألا يرغبون في الوصول مبكراً؟

أجابوه:

– سنصل فجر الغد.

هذا كان آخر ما سمعه منهم، كانت هذه آخر كلماتهم، لقد تذكر ذلك فيما بعد، في اليوم التالى.

كان الثلاثة يسيرون، وعيونهم إلى الأرض، في محاولة لانتهاز فرصة الضوء القليل لليل.

"من الأفضل أن تكون الليلة مظلمة، وهكذا لن يرونا"، لقد قالوا هذا أيضاً، قبل قليل، أو ربما الليلة الماضية، إنه لا يتذكر متى، فقد كان النوم يغشى تفكيره الآن، أثناء الصعود، شاهد النوم يهاجمه من جديد، شعر باقترابه، كان يحيط به كمن يبحث عن الجزء الأكثر تعباً، إلى أن هبط فوق ظهره، حيث كان يحمل ثلاث بنادق ثقيلة.

عندما كانت الأرض مستوية، سار بسرعة، وعندما بدأ الصعود تأخر قليلاً، كان رأسه يتحرك ببطء، بسبطء أثّر على خطواته، الآخرون مروا بجواره، والآن أصبحوا أمامه، وهو كان يسير محاولاً الاحتفاظ بتوازن رأسه النائم.

أصبح في المؤخرة، كانت الطريق أمامه، تلك الفتحات التي كانت

تهرب منه دون أن يدرى منذ متى، ولا أحد يعرف كم ليلة مرت؟ "من ماجدلينا إلى هنا، كانت الليلة الأولى، بعد ذلك كانت من هنا إلى هناك" كانت الليلة الثانية، وهذه هي الليلة الثالثة، إنه زمن قليل، لو أننا نمنا ولو يوماً واحداً، لكنهم رفضوا وقالوا: يمكنهم أن يلقوا القبض علينا أثناء النوم، وهذا أسوأ".

- الأسوأ لمن؟.

النوم جعله يتحدث إلى نفسه، "لقد قلت لهم، الانتظار أفضل، لنجعل يوماً للراحة، وغداً نسير بنشاط، وأكثر قوة، ربما نحتاج إلى الجري، هذا أمر يمكن أن يحدث".

توقف بعينين مغلقتين، وقال: "هذا كثير، ماذا نكسب من التعب؟ يوم واحد، بعد كل ما ضيعنا ليست له أهمية". وعلى الفور صرخ "أين أنتم؟".

وقال في سره: "اذهبوا إذن، اذهبوا".

انحنى على نفسه، تحت جذع شجرة، كانت الأرض باردة، وتحول العرق إلى ماء بارد، هذه يمكن أن تكون الأرض الجبلية التي حدثوه عنها، وهناك تحت قد يكون الهواء ساخناً، وهنا بارد، إنه ينفذ من أكمام العباءة: "كما لو كان يرفع القميص، ويلمس الجلد بيدين متجمدتين".

كان يجلس على الأعشاب، فتح ذراعيه كمن يريد أن يقيس حجم الليل، فوجد ذراعه بالقرب من الأشجار، تنفس هواء معبقاً برائحة زيوت الشجر، بعد ذلك ترك نفسه ينزلق في النوم، شعر بأن جسده يتخدر.

أيقظه برد الفجر، ورطوبة الندى، فتح عينيه، شاهد نجوماً صغيرة تلمع، في سماء صافية، في أعلى الأفرع المعتمة. فكر "الظلام يزحف" وعاد إلى النوم من جديد.

استيقظ عندما سمع أصواتاً عالية، ووقع أحذية جافة تسير على أحجار حافة الطريق، وكان الضوء الأصفر يلمع في الأفق.

سار الحمّارون بجواره، ونظروا إليه، وحيوه " صباح الخير" لكنه لم يجبهم، تذكر ما كان عليه أن يفعله، لقد بزغ الصبح، وفي هذه اللحظة كان عليه أن يكون قد عبر الجبل تحت جنح الليل ليتجنب المراقبة. لقد كانت هذه الخطوة هي الأكثر خطورة، لقد نبهوه إلى ذلك.

حمل البنادق الثلاث على ظهره، واتجه إلى طريق جانبي، وعبر باتجاه الجبل إلى حيث كانت تشرق الشمس، صعد وهبط، عابراً روابى وعرة.

اعتقد أنه سمع الحمّارين يقولون: "لقد شاهدناه هناك في الجانب العلوي شكله كذا وكذا، ويحمل أسحلة كثيرة".

القى البنادق، وبعد ذلك ربط الكيس حول وسطه، فشعر بالخفة، وبدأ يجري كما لو كان في سباق مع الحمّارين.

كان عليه أن يدور حول الهضبة، وبعد ذلك يتجه إلى أسفلها، وهذا ما فعله لقد فعل ما قالوه له بالضبط، ولكن ليس في التوقيت المحدد.

وصل إلى حافة الوادي، ونظر إلى البعيد باتجاه السهل الرمادي، تذكر: "كان يجب عليهم أن يكونوا هناك، يستريحون تحت الشمس دون أدنى انزعاج".

ترك نفسه يتدحرج إلى أسفل الوادي، كان يجري ويتدحرج ويعود ليتدحرج من جديد.

كان يقول" يا إلهي"، وكان تدحرجه يزداد أكثر في كل مرة، طوال مشواره كان يعتقد أنه مازال يسمع الحمّارين عندما قالوا له "صباح الخير" شعر بخداع البصر، سيصلون إلى أول نقطة مراقبة ويقولون: "لقد رأينا كذا وكذا وهو ليس ببعيد عن هنا".

توقف فجأة .

صرخ السيد "كريستو" وكان على وشك أن يهتف "عاش الملك كريستو".

لكنه صمت، أخرج المسدس من جرابه، ووضعه تحت القميص، ليشعر به قريباً من جسده، هذا منحه الشجاعة، بدأ يقترب من مزارع وادى "اجوا ثاركا" بخطى هادئة متجهاً ببصره نحو أصوات الجنود الذي كانوا يتحلقون حول نيران كبيرة.

وصل إلى حافة سور الحظيرة، واستطاع أن يراهم جيداً، تعرّف على وجوههم، لقد كانوا هم، العم "تانيس"، والعم "ليبرادو"، بينما كان الجنود يدورون حول الشعلة هما كانا يتأرجحان، فقد كانا معلقين في شجرة، في منتصف الحظيرة، لم ينتبها بعد إلى الدخان الصاعد من المواقد، الذي كان يغشى عيونهم الزجاجية ويسود وجوههم.

لم يرغب في مواصلة النظر إليهم، انسحب بطول السور وانكمش في ركن مريحا جسده، كان يشعر بدود يأكل معدته، من أعلاه سمع شخصاً ما يقول:

– ماذا تنتظرون لا نزال هؤلاء؟

– ننتظر وصول الآخرين، يقولون إنهم كانوا ثلاثة، وهكذا يجب أن يكونوا ثلاثة، يقولون إن الثالث فتى صغير السن، إنه الفتى الـذي قضى على الضابط "بارا" ورجاله، ويجب أن يقع بين أيدينا، كما وقع هؤلاء الشيوخ، القائد يقول إن لم يأت من الآن حتى الصباح، سنغادر بأول من يمر بنا، وهكذا نكمل تنفيذ الأوامر.

– ولماذا لا نخرج للبحث عنه، على الأقل نضيع الوقت؟

– هذا غير مطلوب، يجب أن يأتى، إنهم جميعا يعبرون الجبل؟ لينضموا إلى الفيلق الرابع عشر، وهؤلاء هم آخر من انضموا إليـه، ومن الأفضل تركهم يعبرون ليتسببوا في المتاعب للزملاء في أعلـى الجبل.

– هذا شيء طيب، ولنرى كيف يتركونا ننعم بالهـدوء، ونحـن نعبر نفس الاتجاه.

انتظر "فيليثيانو رويلاس" فترة من الزمن إلى أن سـكتت الـدودة التي كانت تنغص بطنه، بعد ذلك نفخ نفخة في الهواء كمـن يأخـذ رشفة ماء وانحنى إلى أن انبطح على الأرض، وزحف، دافعاً جسده بيديه.

وعندما وصل إلى حافة القناة، رفع رأسه وبـدأ يجـري، فاتحـاً طريقه بين الأشجار، لم ينظر إلى الخلف، ولم يتوقف عن الجري إلى أن شعر بأن القناة تضيع في السهل الممتد.

حينئذ توقف، وتنفس بعمق ورهبة.

خوستو استيبان اسنيفانيل(*)

Justo Esteban Estvanell

(كوبـــا)

(*) خوستو استيبان استيفانيل Justo Esteban Estevanell ولد عام 1931 في مدينة سانتياجو بكوبا. له مؤلفات مسرحية وروائية. أهم كتبه: سنة الرصاص، التحالف، استحالة الهروب.

بائع الكراملة

كم ننسى الأشياء التي تمر بطفولتنا، أو يمكن القول كيف تظل محفورة في الذاكرة، وتُدفن لسنوات طويلة، ولا نعرف أين، إلى أن تأتي اللحظة، ودون وعي نتذكر الأيام البعيدة عن مراهقتنا.

في يوم من الأيام كنت أعبر الطريق، توقفت لأراقب صبيين كانا يصعدان المنحدر، ويرتديان بناطيل قصيرة، وأحذية من الكاوتشوك، ويحاولان الاحتفاظ بتوازنهما، فيفردان أذرعتهما كما لو كانا يشاركان في سباق للجري، سمعت شخصًا ما يقول أنهما يستعدان للمنافسات الوطنية الأوليمبية، ورغم أن عيني ظلتا تتابعان هذا المشهد المرئي، لكنهما لم تتدخلا فيما كان يعتمل في ذاكرتي، هناك كان في يوم ما يقف بائع الكراملة، بشجرته ذات السيقان الأربعة، أو الخمسة معلقة كالعمود الذي يشد أطراف العلم، ويحتفظ به عالياً.

اليابانيون الحمر، أو الزرق، أو الصفر معلقون بعصى صغيرة فى أفرع الشجرة، بدقة وعناية، وعندما كان الرجل يحرك جذع الشجرة بين يديه تبدو الألوان في عيون المارة كقطع الماس اللامعة.

بالنسبة لي، فإن بائع الكراملة كان رجلاً خارقاً، يستحوذ على اهتمامي منذ سنواتي الأولى، وشيئاً فشيئاً، كنت أتقصى حكايته لسنوات بعيدة، ترجع إلى زمن عودة الجنرال لتولي السلطة.

من كان يرى بائع الكراملة، وهو يقايض الحلوى بالزجاجات الفارغة، لا يفكر في سر كلمة "السريع" التي كانت تُطلق عليه، ذلك الاسم الذي ذاعت شهرته في كل المقاطعة.

في يوم ما فكر الرجل في بديل للعربة التي كان يدفعها أمامه للحصول على عشرين أو ثلاثين سنتاً، فكر في عمل شيء يجعله أكثر سرعة وأكثر إنتاجًا، ويمكنه من تنويع طعامه الدائم المكون من الخبز والمقليات. كان عليه أن يبتكر شيئاً جديداً.

ذهب إلى الجبل، قطع فرعاً مستقيماً، شذبه بسن سكين صغيرة، وصنع ما يشبه الحلقات، وبعد ذلك صنع في الأفرع الصغيرة فتحات علق فيها الكراملة، وانطلق في الشوارع بحثاً عن الأطفال، كان يحرك شجرة الألوان أمام المدرسة، فاستطاع في ساعات قليلة أن يبيع أكثر مما باعه في يوم كامل عندما كان يقايض بالزجاجات الفارغة.

لم ينتبه إلى أن سرعته كانت تحرك جذع الشجرة فتصدر صوتاً "زيق، زاق" فتجذب انتباه الصغار الذين يتدافعون حوله.

عندما جاء الليل كانت تؤلمه سيقانه، ويداه، وعضلات جسده جميعاً في الصباح، عندما حاول الاستيقاظ، كانت آلاف الوخزات تدب في جسده من عنقه إلى كعبيه، ظل طوال اليوم في السرير. في اليوم التالي، وقف على قدميه في قفزة واحدة، جذب الشجرة وخرج إلى الشارع، حثّ السرعة في حذائه القديم، وصعد المنحدر، فكان الحمل ثقيلاً، كما لو كانت كل قطعة من الكراملة تزن عشرة أرطال، في أحد المقاهي شرب ثلاثة أكواب من الماء بحماس، وعاد إلى البيت مثقلاً أكثر مما سبق.

في اليوم التالي نهض من سريره واتجه مباشرة إلى المتنزه العام، زاد من سرعته وهو يعبر الشارع الرئيسي؟، "أنظر إلى هذا؟ أنظر إليه كيف يمشي؟. يا للهول، إنه الرجل الآله، إنه يرقص، وأخيراً سمع صوتاً طفولياً يقول: "أيها السريع أعطني يابانياً".

ما إن سمع هذا النداء بالاسم الجديد حتى شعر بالاعتزاز فتنفس ملء رئتيه واتجه يميناً، ضابطاً دورانه باتزان، فكانت قطع السكر الزجاجية تتقافز كالنجوم، وصل إلى الزبون الصغير، وهو يفرمل موتوراته، توقف أمامه تماماً في حركة عنيفة، كادت تفقده توازنه وتقع الشجرة من بين يديه، وتتحطم قطع الحلوى الصغيرة.

كلمات الاستحسان الصادرة من المارة أسعدت آذانه، لأول مرة يشعر أنه مهم، وله قدرة، وبحركة إيقاعية كإشارات "مورس" نزع قطعة الكراملة، وأخذ من الصغير القطعة النقدية، وفي حركة سريعة سار في خط مستقيم بين خطوط الترام.

انتشر الاسم فى كل الاتجاهات "يا سريع" أعطني قطعة، اثنتين، ثلاثًا، ودون أن يخفف سرعته، أو يفرمل بعنف، ظل يبيع بضاعته إلى أن أصبحت الشجرة خالية.

"الرجل الآلة" لا يوجد من يسير أسرع منه"، "إنه لا يتعب"، "لا كبد له"، "إنه بلا طحال"، "السريع" هذه الكلمات كانت تتردد فى كل مكان.

انتصاراته غسلت آلام جسده، شجاعته زادت من سرعته فتغلب على آلام قدميه ويديه، التمرينات العنيفة زادت من صلابة عضلات ساقيه، وذراعيه، وعنقه، وكل جسده تحول إلى عضلات مرنة، لا تتعب.

لم يخفف من سرعته مطلقاً، والشجرة بين يديه، كان يسير بسرعة تصل إلى عشرة كيلومترات في الساعة، ودون أن يجري كانت سرعته تزداد، كان يتدرب مرات عديدة على الدوران في اتجاهات مختلفة، من اليمن إلى اليسار، دوراناً عنيفاً حول نفسه، وبدأ يخلق فناً عبقرياً، فكان الشخص الوحيد الذي ينطبق عليه اسمه.

سيره الشجاع زاد من نطاق حركته، وفتح له مجالات عديدة لبيع بضاعته. لاحظ أن المفاجأة هي التي تخلق حب الشراء لدى الأطفال، خاصة عندما تُقدم على جرعات صغيرة، فزيارة نفس المدرسة مرتين أسبوعياً يعني هبوطاً في عدد الزبائن، والأفضل أن تتسع دائرة البيع والظهور في الأماكن بشكل مفاجئ، يبيع البضاعة ويختفي. ولـذلك فهو يذهب يوماً إلى "كاني" أو "كريستو"، إلى "مايا" أو حتى "هولجين" أو "ماياري".

في الطرق العامة، كان يقابل بإطراء من قائدي السيارات، وعندما كان يصل إلى التجمعات السكانية، أو القرى كان يحدث هرجاً كبيراً، مجموعات الأطفال تجري من خلفه إلى أن يتوقفوا من شـدة التعـب واللهاث، تنتعش روحه بالضجة، كان يحب الصغار، فبضحكاتهم فقط تحول إلى "السريع"، ولاحظ أنه كل يوم يـزداد سـرعة، وجسـده يطاوعه كل يوم بأشياء جديدة، ومع كل حركة جديدة ينضح جسـده بالعرق إلى حذائه، يستطيع أن يظل سائراً لمـدة يـوم، وليلـة دون توقف.

لكي يلفت الانتباه أكثر، كان عندما يصل إلـى المدرسـة يطلـق صفارته ويحدث أصواتاً تفرقع كأصوات الموتورات الحقيقية.

وشهرته في الاحتفالات طبقت الآفاق، فسعي السيد "ايدن" صاحب مصنع التبغ للتعاقد معه ليحمل صندوقاً كبيراً عليه إعلان للسـجائر، ويقوم بحركات راقصة كالتي تدرب عليها، وهو يحمل الشجرة.

عند صعوده إلى جانب الإعلان، بعض الساهرين فـي الاحتفـال هددوه وأطلقوا باتجاهه بعض الطلقات النارية فركبه الرعب، وأطلق موتوراته ولم يتوقف إلا عندما شعر بأنه في بيته.

قالت له زوجته:

- إنهم يقتلون الناس، لا تخرج.

ظل أياماً، وأياماً دون أن يخرج بشجرة الكراملة. ومع ذلك عندما ألح عليه الأطفال، وضعت زوجته الشجرة بين يديه، وخرج سعيداً يجري في الشوارع من جديد.

دون أي سبب معروف، سلك طريق الشاطئ ليسخن عضلاته بالهواء القادم من البحر، في دقائق معدودة تحول إلى السريع القديم رغم أنه بذل مجهوداً ليتوقف عندما طلب منه فلاح أن يبيعه قطعة كراملة. كعادته توقف ليتأمل الحجر الكبير، فقال له الفلاح: "لا تستطيع أن تصعد بالشجرة إلى هناك". بدت الصخرة أمامه بين السحاب كما لو كانت تحدياً، أراد أن يجرب ساقيه وشجاعته، اتجه صوب الطريق القديم، في دقائق كان هناك على قمة النهر.

في أعلى القمة كانت مياه النهر تتقافز بين الأحجار تدعوه إلى الشرب، هبط ببطء ليستمتع بصوت موسيقى الماء، فجأة تدافع سرب من الخنازير هارباً أمام عصا امرأة عجوز كانت تجرى كالمجنونة، هذا جعله يتوقف.

هب هواء متعفن برائحة لحم فاسد، ودون أن يسأل تابع العجوز. هناك بالقرب من النهر كانت جثث بعض الرجال محطمة بالعصي، قال بصوت منخفض:

- "أيتها العجوز ما هذا؟"

أجابته العجوز:

- "أحرسهم حتى لا تأكلهم الخنازير".

عاد يسأل:

- "من هم؟"

نظرت إليه بغضب، وشددت قبضتها على العصا، وردت عليه بصوت قطع لحن الماء الموسيقي:

– "لقد جاء بهم حرس سانتياجو، وقتلوهم هنا، اذهب من هنا وإلا قتلوك أنت أيضا".

قال برجاء:

– "يجب دفنهم أيتها العجوز".

رفعت العصا، وهوشته كما كانت تفعل مع الخنازير، وهو يتراجع أمامها:

– "قلت لك اذهب، إنهم سيعودون مرة أخري".

شرع في العودة، ساقاه فقدت شجاعتها، ذراعاه سقطا إلى جنبيه وسقطت رقبته تحت ثقل العيون التي لم ترغب في النظر، وضاعت بين الأحجار، وتراب الطريق، وظل يكرر مرات ومرات:

– "أنهم أناس طيبون".

ظل طريح الفراش لأكثر من أسبوع، إلى أن أصبحت زوجته متعبة من البحث عن الطعام بين فضلات المدينة، ركعت أمامه وطلبت منه أن يأخذ شجرة الحياة، لكن ذلك كان مستحيلاً، لم يعد قادراً على إضحاك الناس، لم يعد قادراً على رسم البسمة على وجوه الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين سيصبحون رجالاً في المستقبل، فيأخذونهم إلى النهر، فقرر أن يعود إلى عربته القديمة، يدفعها إلى أعلى المنحدر، ويعود بها إلى أسفل، ويعود إلى صيحته القديمة:

– "أقايض الكراملة بالزجاجات الفارغة".

مرت السنوات، كانت ثقيلة عليه، كان عليه أن يتحمل بذاءات الناس الذين كانوا يتهكمون منه في كل شارع:

– "السريع انتهي بنزينه، موتوره احترق، فقد سرعته".

يتابعونه بسخريتهم من حي إلى آخر.

لكن في يوم مشمس، طلقات الرصاص، ودفعات الرشاشات عادت تُسمع من جديد في شوارع سانتياجو، وبين الشباب الذين كانوا يرتدون الملابس العسكرية الخضراء بلون الزيتون شاهد صديقه القديم "بيبين" الذي كان يعمل في مصنع الكراملة.

ظل يبحث عنه لمدة شهر كامل، إلى أن عثر عليه مختبئاً فوق أحد الأسطح، فطلب منه راجياً أن يتعاون معه، قال له إنه يعرف من هم الأشرار.

في البداية لم يصدقه "بيبين"، لكن شيئاً فشيئاً، بدأ يسلمه بطاقات ثورية ليوزعها، ثم قرر أن يستخدمه في تسليم الرسائل، وكانت كلمة السر "انظر السريع".

ذهب سعيداً لينفذ الأوامر، لكنه عندما هبط المنحدر دفع عربته فعادت إلى أذنيه كلمات "انظر السريع".

وسرعان ما عادت شجرة الحياة تظهر من جديد بين يديه، وعادت شهرته بسرعة تتناقلها شوارع سانتياجو بعد عودة فنه الجديد، المشاء الأوليمبي، لكنه الآن لا يبيع الكراملة فقط.

من يشك في السريع، هذا البائع المتجول المجهول الذي يسير كمن يحمل في صدره موتوراً، ويحرك شجرة الكراملة في الشوارع، والطرق؟ وكانت الرسائل تصل إلى أماكنها، وفي مواعيدها المحددة. وتبدأ الانفجارات عندما يكون هو على بعد خمسة أو ستة نواصي من المكان.

في صباح مبكر خرج بشجرته ككل الأيام، وزاد من سرعته إلى أقصاها. لو كانت لديه مرآة يمكنه أن يتأمل نفسه، وسرعته وهو يلتهم الشوارع.

في الركن المعتاد دائما، كان الرجل ينتظره يتمشى فقال له:

- "يا سريع أعطني ياباني".

الصوت المازح لم يفاجئه، دار بكل دقة دورة سريعة، ولكن السيارة التي كانت تتابعه كانت تسير بسرعة مائتي كيلومتراً في الساعة. قائد السيارة حاول التوقف ولكن "الصدامات" كانت قد لحقت بالسريع، فطار الفنان في الهواء، وهو يمسك بشجرة الحياة، ثم اصطدم بحائط الكنيسة، ظل ساكناً للحظات، وبشجاعة نادرة وقف على قدميه، وانطلق محاولاً اللحاق بالرجل الذي كان ينتظره، والذي انطلق سريعاً.

أسرع فجرى دمه إلى الأمام، اثني عشر كيلومتراً تقريباً، لحق بالرجل، لكن نزيفه بدأ يفقده كميات كبيرة من دمه. وبدأ العد التنازلي.. عشرة.. ثمانية.. ستة.. أربعة.. اثنان.. صفر. هتف:

- "عاش فيدل".

ثم سقط إلى الأمام، ولأول مرة سقطت الشجرة من بين يديه، وتبعثرت الأعواد الصغيرة، وانتشرت قطع الكراملة الملونة على الإسفلت الأسود.

خوليو كوتارثار(*)

Julio Cortázar

(الأرجنتين)

(*) خوليو كورتاثار Julio Cortázar ولد عام 1914 بالأرجنتين، تخرج من الجامعة ليعمل مدرسا للغة الفرنسية ثم فصل من العمل لمناهضته نظام الحكم فرحل إلى فرنسا، وظل بها منذ عام 1952 إلى أن مات عام 1983 في باريس. أهم كتبه: الحجلة، كتاب مانويل، ليس هناك أحد، شخص ما اسمه لوكاس.

البيت المسكون

كنا نحبه لأنه بالإضافة إلى اتساعه وقِدمه (في هذه الأيام البيوت القديمة تتفوق من حيث مواد صناعتها) كان يحتفظ بذكريات أجدادي، وذكريات جدي لأبي، وذكريات أبوينا، وكل ذكريات طفولتنا.

أعتدنا "ايريني" وأنا على السكن فيه وحدنا، مما كان يعتبر جنوناً، لأنه من الممكن أن يعيش في هذا البيت ثمانية أشخاص دون أن يشعروا بضيق المساحة، كنا نقوم بعملية التنظيف صباحاً، نستيقظ في السابعة، وفي الحادية عشرة تقريباً اترك لـ"ايريني" وضع اللمسات الأخيرة في غرف النوم، وأذهب أنا إلى المطبخ. نتناول طعام الغداء عند منتصف النهار، دائماً في الموعد المحدد، وبذلك لا يبقى هناك شئ لعمله سوى غسل بعض الأطباق القذرة، نكون سعداء بتناول طعام الغداء ونحن نفكر في البيت الواسع الهادئ، وكيف أننا نبذل جهدنا ليكون نظيفاً دائماً، كنا نفكر أحياناً إنه السبب في عدم تفكيرنا في الزواج. رفضت "ايريني" خطيبين من قبل دون سبب واضح، أما أنا فقد ماتت "ماريا استر" قبل أن نحدد هدف علاقتنا، دخلنا في سنواتنا الأربعين بفكرة واضحة، أن حالتنا ببساطة وهدوء ليست سوى زواج أخوي، كان مُهماً أن يكون لنا أبناء حرصاً على استمرار شجرة العائلة التي وضع أجدادنا أسسها في بيتنا. سنموت هناك يوماً ما، كسولان، فيما يحصل أبناء عمومتنا على البيت، ويهدمونه ليثروا من بيع الأرض الفضاء، والطوب، أو ربما كان من الأفضل أن نقوم نحن بهدمه قبل فوات الأوان.

كانت "ايريني" فتاة لطيفة كما لو كانت قد وُلِدت لكي لا تـؤذي أحداً، إلى جانب نشاطها اليومي في التنظيف فإنها تقضي بقية النهار في أريكة غرفتها تمارس الحياكة، لا أعرف لماذا تُمـارس الحياكـة بشكل متواصل، أنا أعتقد أن النساء يحكن لأنهن يجدن في هذا العمل سبباً حتى لا يفعلن أي شئ آخر. لكن "ايريني" لم تكن كذلك، كانـت تحيك دائما أشياء ذات قيمة: أغطية للشـتاء، أو جـوارب لـي، أو قفازات، وصديريات لاستعمالها الخاص.

أحياناً كانت تحيك صديرية وتعيد تفكيكها في لحظات لأن شـيئاً فيها لم يعجبها، لطيف مشاهدة السلة، وقد تكومت فيها كرات الصوف المتقافزة حتى لا تفقد شكلها خلال ساعات قليلة، كنت أذهب أنا أيـام السبت إلى وسط المدينة لأشتري لها الصوف، كانت "ايريني" تثق في ذوقي، تعجبها الألوان ولم تطلب مني أبداً أن أعيد أية لفة منها، كنت انتهز فرصة خروجي لأتنزه قليلاً بين المكتبات، أسأل بلا فائدة إذا ما كانت قد وصلت كُتب جديدة من الأدب الفرنسي. لم يصل منها إلـى الأرجنتين شئ له قيمة منذ العام 1939.

لم نكن في حاجة إلى ممارسة أي عمل لكسب قوتنا، كان يصلنا المال من الريف كل شهر حتى تراكمت لدينا النقود، لكن "ايريني" لم تكن تجد متعة لقضاء أوقات فراغها سوى في الحياكة، كانت تُبـدي حزقاً مدهشاً، وأنا كنت أستمتع بقضاء وقتي في مشاهدة يديها وهمـا تصنعان ضفائر فضية، الإبر تروح وتجئ فيما تهتز سلة أو سـلتان مليئتان بالكرات الصوفية. إنه شئ رائع.

أتذكر البيت على هذا النحو:

"غرفة الطعام، وغرفة الضيوف، والمكتبة، وغرف النوم الثلاث الكبيرة تقع في الناحية الخلفية البعيدة، المطلة على شارع "رودريجيث بينيا".

لم يكن هناك سوى باب من البلوط المُصمت يعزل ذلك الجـزء عن الناحية الأمامية حيث يوجد الحمّام، والمطبخ، وغـرف نومنـا، وغرفة المعيشة، كان هذا الجزء متصل بممر يربط بين ذاك الجـزء وغرفنا. يمكن الدخول إلى البيت عبر ردهة وباب يؤديان إلى غرفة المعيشة.

عندما تدخل من الردهة يمكنك أن تفتح الباب لتمر إلـى غرفـة المعيشة، ستجد أبواب غرف نومنا على الجانبين، وفي المواجهة ممر يؤدي إلى الجزء الآخر البعيد، حين تتقدم في الممر ستدخل من الباب البلوطي، ومن هناك يبدأ الجانب الآخر من البيت، أو يمكنك الدوران يساراً بالضبط أمام الباب، والاستمرار عبر الممـر الأكثـر ضـيقاً المؤدي إلى المطبخ والحمّام. عندما يكون الباب مفتوحـاً أشـعر أن البيت كبير جداً، وهو إحساس يختلف عن الإحساس الذي تخلفه الشقق التي يبنونها اليوم، التي لا تكاد تسمح بالتحرك فيها.

كنا، "ايريني" وأنا، نعيش دائماً في هذا الجانب مـن البيـت، لا نكاد نمر أبداً عبر الباب البلوطي، عدا في حالات التنظيـف، يبـدو غريباً كَمْ التراب التي يتراكم على الأثاث. قد تكون "بوينوس ايريس" مدينة نظيفة، لكن هذا يعود إلى سكانها وليس لسبب آخر، الهواء فيها مُحمّل بالكثير من التراب، ما أن تهب نسمة ريح حتى يغطي التراب رخام الدواليب، ويعشش بين السجاد، ويحتاج إلـى جهـد لتنظيفـه باستخدام منفضة الريش، فالتراب يطير في الهواء، وبعـد لحظـات يعود من جديد ليغطي الأثاث، والبيانو.

سأظل أتذكر هذا بوضوح دائماً، لأنه كان بسيطاً ودون مقدمات كثيرة، كانت "ايريني" تُحيك في غرفتها، الساعة تشير إلـى الثامنـة

ليلاً، وعَنّ لي فجأة أن أضع الحساء على النار، عبرت الممر إلى أن دخلت من الباب البلوطي، وما أن استدرت متجهاً إلى المطبخ حتى سمعت شيئاً في غرفة الطعام أو المكتبة، كان الصوت يأتي غير محدد المعالم ومكتوماً، كما لو كان كرسياً قد انقلب على السجادة أو صوت حوار هامس، ومخنوق، سمعته أيضاً في الوقت نفسه أو بعدها بثوان قليلة، هناك في عمق الممر المؤدي إلى الباب. فاندفعت باتجاه الباب قبل فوات الأوان، أغلقته بضربة واحدة معتمداً عليه بجسدي، من حسن الحظ أن المفتاح كان في القفل من ناحيتنا، أغلقته أيضاً بمزلاج الأمان.

ذهبت إلى المطبخ، قمت بتسخين الحساء، وأثناء عودتي بالصينية قلت لـ"ايريني":

– قمت بإغلاق باب الممر. لقد احتلوا الجانب الآخر.

سقطت خيوط الحياكة من يدها ونظرت إليّ بعينيها العميقتين المتعبتين.

– هل أنت متأكد؟

أشرت بالإيجاب.

قالت وهي تجمع الإبر:

– إذن، علينا أن نعيش في هذا الجانب.

تناولت أنا الحساء بحرص شديد، لكنها استغرقت هي وقتاً أطول لتناول طبقها والعودة إلى حياكتها، أتذكر أنها كانت تحيك صديرية رمادية، كانت هذه الصديرية تعجبني جداً، كان إحساسنا في الأيام الأولى مؤلماً، لأن كل منا ترك في الجانب الآخر جزءاً من الأشياء الكثيرة التي كان يحبها، كُتب الأدب الفرنسي، مثلاً، كانت كلها في

المكتبة، وفقدت "ايريني" بعض كراساتها، وزوجين من الأحذية الصوفية التي كانت تدفئ بهما قدميها في الشتاء.

أنا افتقدت غليوني، وأعتقد أن "ايريني" تذكرت زجاجة عطرها القديمة، في أحيان كثيرة (كان هذا يحدث خلال الأيام الأولى) كنا نغلق أحد أدراج الدولاب بعد أن نفتحه بألم.

– غير موجود هنا.

يكون شئ جديد من كل الأشياء التي فقدناها في الجانب الآخر من البيت.

بالطبع كانت هناك فوائد، فقد قلت عمليات التنظيف، وأصبحنا نستيقظ متأخرين، في الثامنة والنصف مثلاً، وقبل أن تحل الحادية عشرة نكون قد فرغنا ولم يعد لدينا ما نفعله، اعتادت "ايريني" على الذهاب معي إلى المطبخ ومساعدتي في إعداد طعام الغداء. فكرنا جيداً وقررنا التالي: بينما أعد أنا طعام الغداء تعد "ايريني" أطباق العشاء الباردة لنتناولها في الليل. هذا أسعدنا لأنه كان ثقيلاً على النفس مغادرة غرفة النوم حين يحل المساء لطبخ طعام العشاء. أصبحت طاولة غرفة النوم تكفينا مع بعض أطباق الطعام المحفوظ.

كانت "ايريني" سعيدة لأنها أصبحت تتمتع بوقت أطول للحياكة. أما أنا فقد كنت مشوشاً إلى حد ما بسبب الكُتب، ولكن حتى أُهدئ من روع أختي بدأتُ أنا في تنسيق مجموعات الطوابع التي كان يحتفظ بها أبي، وهذا ساعدني أيضاً على قتل الوقت. كنا سعداء جداً، وكل منا كان مشغولاً بأشيائه، نكاد نقضي الوقت كله في غرفة "ايريني"، لأنها أكثر راحة، كانت "ايريني" تقول لي أحياناً:

– أنظر إلى هذه الغرزة التي اخترعتها، ألا يبدو هذا كرسم معين؟

بعدها بقليل كنت أضع أمام عينيها صورة من الورق لتضع هي عليها الطابع البريدي المناسب.

كنا نمضي وقتنا بشكل جيد، وبدأنا شيئاً فشيئاً في التخلي عن أفكارنا. يمكن الحياة بدون تفكير. (عندما كانت "ايريني" تحلم بصوت عال كنت أفقد قدرتي على النوم. لم أستطع أبداً الاعتياد على ذلك الصوت الجامد، أو الذي يبدو كصوت الببغاء، صوت يأتي من الأحلام لا من الحلق. تقول "ايريني" لي أن أحلامي كانت عبارة عن اهتزازات كبيرة تكاد في بعض الأحيان تهدم الجدران. كانت غرفة المعيشة تفصل ما بين غرفتي نومنا، لكن في الليل يمكن سماع أقل حركة، كنا نسمع أصوات تنفسنا، الكحة، صوت المفاتيح حين تدور في الباب، سُهادنا المتكرر، رغم كل هذا فإن البيت كان هادئاً، لا يوجد به في النهار سوى حركة حياتنا المعتادة، تصادم ابر "ايريني" أثناء الحياكة، صوت حفيف الورق عندما كنت أقلّبُ أوراق الألبوم، باب البلوط، أعتقد أنني قلت ذلك، إنه باب مصمت، في المطبخ والحمّام، اللذان بقيا في الجانب المسكون من البيت، كنا نتحدث بصوت عال، وكانت "ايريني" تغني في المطبخ بعض أغاني المهد. بالطبع كانت تحدث في المطبخ ضجة كبيرة بسبب الأدوات المنزلية والزجاجية، لم نكن نسمح بالصمت هناك إلا في مرات قليلة، لكن عندما كنا نعود إلى غرف نومنا أو غرفة المعيشة، فإن البيت يبدو صامتاً، وقليل الضوء، إلى درجة أننا كنا نسير على الأرضية بحرص وببطء، أعتقد إنه لهذا السبب يكون البيت صامتاً ليلاً، فاستيقظ بسرعة عندما تحلم "ايريني" بصوت مرتفع).

ظلت الأيام تتكرر على هذا المنوال. شعرت بالعطش ليلاً، لذلك قبل أن أذهب إلى النوم قلت لـ"ايريني" إنني ذاهب إلى المطبخ

لأحضر كوباً من الماء. (كانت لا تزال تُمارس الحياكة) سمعت من خلال باب غرفة النوم ضجيجاً قادماً من المطبخ، ربما من المطبخ وربما كان الصوت قادماً من الحمّام لأن الممر يكتم الأصوات القادمة من تلك الناحية. جذب انتباه "ايريني" توقفي المفاجئ، فجاءت لتقف إلى جانبي دون أن تنطق بكلمة واحدة. وقفنا نتصنت على الضجيج، انتبهنا إلى انه قادم من ذلك الجانب من الباب البلوطي، ربما من المطبخ أو الحمّام، أو في الممر نفسه حيث يبدأ الدوران من هنا إلى جانبنا.

لم ينظر أي منا إلى الآخر، ضغطتُ على ذراع "ايريني" ودفعتها إلى الجري معي حتى الباب الخارجي، دون أن نلتفت إلى الخلف. كانت الأصوات تُسمع قوية من خلفنا ولكنها كانت مكتومة، أغلقتُ الباب بضربة واحدة وبقينا في الردهة، من هنا لا يُسمع أي شئ.

قالت "ايريني":

– لقد احتلوا هذا الجانب.

كانت تُمسك بإبر الحياكة بين يديها فيما تمتد الخيوط حتى المدخل، وتضيع تحت الباب، عندما انتبهتْ إلى أن كور الصوف بقيت في الجانب الآخر ألقت بما في يديها دون أن تنظر إليها.

سألتها قانطاً:

– هل تمكنتِ من إحضار أي شئ؟

– لا، لا شئ.

كنا بملابسنا القليلة. تذكرت الخمسة عشر ألف بيزو التي كانت في الدولاب. لم يعد هناك وقت.

كانت الساعة في يدي، نظرت إليها، تُشير إلى الحادية عشر ليلاً.

لففت ذراعي حول خصر "ايريني" (أعتقد أنها كانت تبكي) وخرجنا إلى الشارع. قبل أن نبتعد شعرنا بالحسرة، قمت بإغلاق باب المدخل، وألقيت بالمفاتيح في المجاري. حتى لا يجدها أحد فيسرقها ويدخل البيت، في مثل هذه الساعة والبيت مسكون.

زهرة صفراء

إننا خالدون، أعتقد إنها نكتة، لكني أعرف الفاني الوحيد. لقد قصَّ عليّ حكايته، كان ذلك في إحدى حانات شارع "كامبرون"، كان سكراناً فلم يكلفه شيئاً أن يقول الحقيقة، رغم أن صاحب الحانة والزبائن القدامى كانوا يضجون بالضحك إلى أن يسقط النبيذ من عيونهم، أما بالنسبة لي فكان لابد أن أرى تعبيراً ما مرسوماً على وجهي، لأنه حاصرني بحزم، وانتهينا إلى الانعزال بجوار مائدة في ركن بعيد، حيث يمكننا الشراب، والحديث في هدوء، قصَّ عليّ، إنه بالمعاش حيث كان يعمل بالبلدية، وإن زوجته قد عادت للعيش مع والديها لبعض الوقت، بطريقة أو أخرى يقبل بأنها قد هجرته، كان من النوع الذي لا يشيخ، ولا يُصاب بالعته، له وجه جاف، وعيون مريض بالسل، لم أشعر بتلك الرائحة المعروفة عن باريس، لكن يبدو أننا نشعر فقط برائحة الأجانب، كانت أظافره جيدة وشعر رأسه كان نظيفاً.

قصَّ عليّ أنه في إحدى حافلات خط رقم 95 شاهد صبياً في الثالثة عشرة من عمره، ولحظة أن نظر إليه اكتشف أن الصبي يشبهه تماماً، أو على الأقل يشبه ما يتذكره عن نفسه في تلك السن، وشيئاً فشيئاً أقنع نفسه بأنه يشبهه تماماً، الوجه، واليدان، خصلة الشعر التي تسقط على جبهته، العينان المتباعدتان، ويشبهه أيضاً في خجله، الذي يبدو من اختبائه خلف مجلة تاريخية، حتى طريقة تمشيط شعره إلى الخلف، التثاقل العقيم لحركاته، كان يشبهه إلى حد دفعه

إلى الضحك، لكن عندما هبط الفتى في شارع "رينس"، هبط هو أيضاً خلفه، وترك صديقاً له ينتظره في "مونتبارناس"، بحث عن سبب ليتحدث مع الصبي، سأله عن أحد الشوارع، وبلا أدنى شك فقد سمع صوتاً كان صوته في الطفولة. كان الصبي في طريقه إلى ذلك الشارع، سارا معاً بخجل لبعض الوقت. في هذه المسافة هبط عليه نوع من الوحي، لم يكن أي شيء واضحاً، لكنه شيء يمكن الاستغناء عن شرحه، سيكون عبيطاً، وغبياً لو أنه حاول أن يشرحه، مثلما يفعل الآن.

الخلاصة، استعد ليعرف سكن الصبي، ولماضيه القديم كمدرب اسكواش منحه فرصة ليفتح طريقا باتجاه هذا الحصن الحصين، حي فرنسي، وجد فيه بؤساً مناسباً، وأما عجوزاً، و عماً على المعاش وقطتين، بعد ذلك لم يكلفه شيئاً أن يقول بأن أخاً له ائتمنه على ابن له في الرابعة عشرة من عمره، وأن الصبيين صارا صديقين، بدأ في الذهاب إلى بيت "لوك" كل أسبوع، تحدثوا عن الحرب، وعن الاحتلال، وأيضاً عن "لوك"، وذلك الذي بدأ كنوع من الوحي انتظم وصار هندسياً، أخذا الوضع الثابت الذي يحب الناس أن يطلقوا عليه اسم القدر، وكان أيضاً ممكناً تنظيمه بالأحاديث اليومية، أصبح "لوك" هو مرة أخرى، ولم يكن هناك خلود، لقد كنا جميعاً خالدين.

نحن خالدون، انظر أيها العجوز، لم يستطع أحد أن يقارنه بي، وأنا أبلغ الخامسة والتسعين، لقد كان خطأ صغيراً في الجهاز، دورة زمن "لوك" كان يجب أن يولد بعد موتي، وفي المقابل...، دون أن أقصّ الصدفة الخرافية لمقابلتي له في الحافلة، أعتقد أنني قلت ذلك، كان نوعاً من الأمان، بدون كلمات، هذا هو ما حدث وانتهى. لكن بعد ذلك بدأت الشكوك، لأنه في هذه الحالة سيفقد الإنسان عقله،

وعليه أن يتناول المهدئات، وإلى جانب هذه الشكوك، الإثبات بأنني لم أكن مخطئاً، وأنه لم يكن هناك سبب للشك، الذي سأقوله هو الذي جعل هؤلاء الأوغاد يسخرون مني، عندما أقصُّ عليهم ما حدث لي، "لوك" لم يكن أنا مرة أخرى، ولا كان يمكنه أن يكون، هذا التعيس ما كنت أحب أن أراه وهو يلعب، مشاهدته، وهو يسقط فتكسر قدمه، أو تتحطم رقبته، هذه الأحاسيس التي يقشعر لها البدن، هذا الخجل الذي يعلو وجهه عندما أسأله عن أي شيء، كانت الأم على العكس من ذلك، تحب الحديث، تقصُّ أي شيء بينما الصبي يكاد يموت من الخجل، تقصُّ هي حكاية ظهور سنه الأولى، رسومه وهو في الثامنة من عمره، الأمراض... لم تشكْ السيدة الطيبة في أي شيء، فالعم يلعب معي الشطرنج، أصبحت واحداً من العائلة، وأحياناً كنت أُعيرهم بعض النقود ليكملوا مصاريف الشهر، معرفة ماضي "لوك" لم تكلفني شيئاً، كان يكفيني تسريب بعض الأسئلة بين الأحاديث التي تحبها النساء العجائز، روماتيزم العم، لعنات البوابة، السياسة، وهكذا كنت أتعرف علي ماضي "لوك"، بين تهديد ملك الشطرنج، وردود الأفعال علي سعر اللحم، وهكذا كانت تكتمل الحقائق.

لكنه أفهمني ونحن نطلب كأساً أخري:

– كان "لوك" أنا عندما كنت طفلاً، لكنك لن تستطيع أن تتصور حد التشابه، إلي حد كبير، كنا صورة متشابهة، أتفهم ذلك، يمكنني أن أقول، في عامي السابع حطمت لعبتي، و"لوك" حطم رقبة لعبته، وفي سن التاسعة كنا قد أصبنا بالحصبة والحمي القرمزية، وأيضاً هناك حكاية قديمة، بالنسبة لي، دامت الحصبة خمسة عشرة يوماً، بينما شفي "لوك" بعد أربعة أيام، وذلك نظراً لتقديم صناعة الدواء، واختلاف نوع الحصبة، كل ذلك كان متشابهاً، ولأضرب لك مثالاً

آخر، قد يحدث أن بائع الخبز الذي علي الناصية يشبه "نابليون"، ولكنه قد لا يعرف ذلك، لأنه لا يستطيع الحصول علي الحقيقة في الأتوبيس، لكنه لو انتبه إلي الحقيقة بأي طريقة، يستطيع أن يفهم أن التكرار ممكن، وأنه تكرار لصورة "نابليون"، وأنه مر بتحولات كثيرة، من غاسل أطباق إلي مالك لحانوت خبز، وأنه نفس الصورة التي تقفز من "كورسيكا" إلي عرش فرنسا، وأنه لو نبش في التاريخ بتأن، سيجد اللحظات التي قام فيها بحملته على مصر، ثم وصوله إلي القنصلية، والي "أوستيرلتز"، وأنه بعد أن يظل في حانوته لبضع سنوات سينتهي في "سانتا هيلينه"، أو علي أحسن حال في شقة بالطابق السادس، لكنه سيظل منتصراً أيضاً، وفي نفس الوقت محاطاً بمياه العزلة، وفخوراً بحانوت الخبز الذي كان كعش النسر، هل تفهم هذا أم لا؟

أنا فهمت ما يقول، ولكني أري أننا جميعاً نُصاب بأمراض في الطفولة في أماكن محددة، ونحن جميعاً حطمنا أشياء أثناء لعب الكرة.

– أعرف، لم أحدثك عن الصدف المرئية، مسألة أن "لوك" يشبهني لا أهمية لها بالنسبة لي، ولكن اكتشاف الحافلة شيء هام، ويصعب شرحه، لأنه يتعلق بالذكريات المبهمة والشكل، وخرافات الطفولة. في ذلك الوقت،أريد أن أقول عندما كنت في عمر "لوك"، مررت بفترة بدأت مع مرض مزمن، بعد ذلك في فترة النقاهة ذهبت لألعب مع بعض الأصدقاء، فانكسرت ذراعي، وبمجرد خروجي من هذا الحادث أحببت شقيقة زميلي في الدراسة، وعانيت كما تعاني عندما لا تكون قادراً علي النظر في عيون فتاة تسخر منك، أصيب "لوك" أيضاً بنفس المرض، وفي فترة النقاهة دعوه لرؤية السيرك، وعند هبوط

الدرج انزلق وأصيب في رسغه، بعد ذلك بقليل فاجأته أمه وهو يبكي جوار النافذة وفي يده منديل أزرق مبلل، منديل غريب عن البيت.

كما يجب أن يكون الإنسان متناقضاً في الحياة، قلت إن الحب الطفولي هو أن يكون أمر محتوم بالنسبة للفتيان، كحب الشباب، لكني تقبلت حكاية الطائرة، لأنها كانت شيئاً آخر، طائرة مروحية بزمبلك، تلك التي أهداها إليه في عيد ميلاده.

– عندما قلت لك، تذكرت أنه في يوم ما، أن صندوق اللعب "ميكانو" أهدته لي أمي عندما بلغت الرابعة عشرة، وتذكرت ما حدث لي، حدث أنني كنت في الحديقة رغم قدوم عاصفة صيفية، وكنت أسمع الرعود، وكنت قد صنعت مائدة بالقرب من باب الشارع، ناداني شخص ما من البيت، وكان عليّ أن أعبر إلى الداخل للحظات، وعندما دخلت وجدت أن صندوق الميكانو قد اختفى، وكان الباب مفتوحاً، صرخت بلهفة وهرولت إلى الشارع، فلم أشاهد أحداً، وفي نفس اللحظة سقط شعاع على الشاليه المواجه، كل ذلك حدث في نفس اللحظة، تذكرت ذلك وأنا أعطى الطائرة لـ"لوك"، وكان هو ينظر إليها بنفس السعادة التي كنت قد نظرت بها إلى الميكانو، جاءت الأم لتقدم لي فنجاناً من القهوة، وتبادلنا بعض الكلمات المعتادة، عندها سمعنا صرخة، هرول "لوك" باتجاه النافذة كما لو كان يريد إلقاء نفسه إلى الفضاء، كان وجهه أبيض وعيناه مليئتين بالدموع،وتمتم متلعثماً بأن الطائرة ابتعدت في طيرانها مارة من الفتحة التي تركها في النافذة المفتوحة إلى المنتصف، كان يكرر باكياً، "لن أراها مرة أخرى" سمعنا صرخات تأتي من أسفل، ودخل العم مهرولاً ليعلن عن حريق في المنزل المواجه، هل فهمت الآن؟

نعم، من المفيد أن نأخذ كأساً آخر.

لأنني لزمت الصمت، قال الرجل إنه يفكر في "لوك"، وحظ "لوك"، كانت أمه قد وجهته إلى المدرسة الفنون والصناعات، لأنه سيفتتح بتواضع ما تسميه هي طريقه في الحياة، لكن هذا الطريق كان مفتوحاً. ولكن الحديث عن هذا كان يعد نوعاً من الجنون، فقد كان يقول إن ذلك يعني نتيجة واحدة، هي الذل، والروتين المؤسف، السنوات الرتيبة، الاحباطات التي تلف الجسد والروح، الملجأ في عزلة مستاءة، في حانة من الحي. والأسوأ من كل هذا، لم يكن في قدر "لوك"، فـ"لوك" سيموت مرة، وآخر سيعيد صورة "لوك"، ويموت ويأتي في صورة رجل آخر، ليدخل الحلقة، لم يعد يهم "لوك": في الليل يأخذه السهاد بعيداً إلى "لوك" آخر، إلى آخرين سيسمون "روبرت" أو "كلاودى" أو "ميشيل"، نظرية لا نهائية لشياطين مساكين يكررون الصورة دون أن يعرفوا، يعتقدون في الحرية والاختيار، الإنسان يملك النبيذ، والحزن، ولا شيء آخر يمكن أن يفعله.

– يسخرون مني عندما أقول لهم إن "لوك" مات بعد ذلك بشهور قليلة، إنهم أغبياء جداً ولا يفهمون إن... نعم، لا تنظر إليّ هذه النظرة، لقد مات، بدأ مرضه بنوع من الالتهاب الشعبي، تماماً كما حدث لي عندما كنت في سنه، حدث أن أصبت بالتهاب الكبد، بالنسبة لي عندها احتجزوني في المستشفى، لكن أم "لوك" صممت على رعايته في البيت، كنت أزوره كل يوم تقريباً، وأحياناً كنت أصحب معي ابن أخي ليلعب معه، كان الحزن يخيم على البيت، فكانت زياراتي هي العزاء الوحيد في هذا الوقت، وبالنسبة لـ"لوك" كانت الصحبة، وعلب الرنجة، والحلوى الدمشقية، اعتادوا على أني مكلف بشراء الأدوية، بعد ذلك قلت لهم إن هناك صيدلية تعطيني خصماً خاصاً، وانتهوا بقبولي ممرضاً لـ"لوك"، تصور في بيت كهذا حيث

يدخل الطبيب مرغماً، لا ينتبه أحد إلى الأعراض الناتجة عن التشخيص الأولي... لماذا تنظر إليّ هكذا؟ هل قلت شيئاً غير طيب؟

لأبعث الطمأنينة في قلبه، قلت له إنه لم يقل شيئاً سيئاً، وخاصة بعد هذا النبيذ. علي الأقل أن يتصور شيئاً مرعباً كموت "لوك" المسكين الذي بدأ شبحاً في الحافلة رقم 95، وانتهى إلى جوار السرير حيث كان الطفل يموت بهدوء.

ظل للحظة ينظر في الهواء قبل أن يعود إلى الكلام:

– حسناً، كما تريد، الحقيقة أن تلك الأسابيع التي مرت بعد الجنازة، شعرت لأول مرة بشيء يمكن أن يكون شعوراً بالسعادة، ومازلت أزور أم "لوك" في فترات متباعدة، أحمل لها صندوقاً من البسكويت، لكن لم يعد يهمني الشارع أو البيت، هذا الحشد الجميل كمن يتنكر للميت الأول، إحساس بأن حياتي تضيع يوماً بعد يوم، نبيذاً بعد نبيذ، وفي النهاية سأنتهي في أي ركن أو أي ساعة مكرراً حتى النهاية مصير أي ميت مجهول دون أن أعرف أين أو متى، لكني... نعم سأموت حقيقة، دون أن أجد أي أحد يدعى "لوك"، يدخل في الحلقة ليكرر بغباء حياة غبية، أتفهم هذا الكمال، أيها العجوز، بديهياً هناك سعادة كبيرة في استمرار ذلك.

لقد جرب الحانة والنبيذ الرخيص، وتلك العيون التي كانت تلمع بالحمى لم تكن تأتي من الجسد، ومع ذلك عاش بضعة شهور متذوقاً كل لحظة من غبائه اليومي، متأكداً من موته المحقق، ذات مساء، عندما كان يعبر حديقة لوكسمبورج، شاهد زهرة صفراء.

"كانت على سطح حجري، زهرة صفراء عادية، كنت قد توقفت لأشعل سيجارة فلفتت نظري، كما لو كانت تنظر إليّ، كنوع من الاتصال. ربما كان ذلك هو ما يسمونه الجمال، لا أعرف. لكن الزهرة كانت جميلة، كانت زهرة رائعة، أنا محكوم عليّ وسأموت في يوم ما، الوردة كانت جميلة، ودائماً هناك زهور للرجال القادمين، فجأة فهمت اللا شيء، ذلك الذي يصنع الهدوء، يوفق الدائرة، وكنت سأموت مثل "لوك" أيضاً، لن تكون هناك شيء مطلقا، كان ذلك هو اللا شيء، ولن تكون هناك زهرة بعد ذلك الثقاب المشتعل كان قد أحرق أصابعي، في الميدان قفزت في أتوبيس كان ذاهباً إلى أي اتجاه وتركت نفسي ذاهلاً، أنظر إلى أي شيء يمكن أن يُشاهد في الشارع، وإلى كل شيء في الأتوبيس، عندما وصلنا إلى النهاية، هبطت وصعدت إلى أتوبيس آخر، كان في طريقه إلى الضواحي، كنت أصعد وأهبط من الأتوبيسات طوال المساء، أفكر في الزهرة وفي "لوك"، باحثاً بين الركاب عن أحد يشبه "لوك"، عن أحد قد يعرف أنه كان أنا، سأتركه دون أن أقول له شيئاً، للحفاظ عليه، ليعيش حياة بائسة، حياة أخرى بائسة وفاشلة، ليعيش حياة أخرى غبية، وفاشلة، ليعيش حياة..."

ودفعت أنا حساب النبيذ.

لوكاس في المستشفى

لأن المستشفى التي دخلها "لوكاس" كانت من ذوات النجوم الخمس، فالمرضى دائما علي حق، وعندما يطلبون أشياء مستحيلة، يقال لهم بأنه ليست هناك مشكلة، الممرضات جميعهن باسمات ودائماً يجبن بنعم على كل الطلبات التي تطلب منهن.

لم يكن مستحيلاً تلبية طلبات الرجل السمين الذي يقطن الغرفة رقم 12، الذي يعاني من تليف في الكبد، ويطلب زجاجة من الجن كل ثلاث ساعات، بل إن الممرضات كن يجبنه بسعادة، وحب شديدين، نعم، لم لا، بالطبع، وعندما هبط "لوكاس" إلى الصالة، لأنهم كانوا يقومون بتهوية غرفته، اكتشف باقة من زهور الأقحوان في صالة الانتظار، فطلب بخجل شديد أن يأخذ أقحوانة إلى غرفته لتلطف جوها.

بعد أن وضع الزهرة على مائدة الأباجورة، ضغط "لوكاس" على مفتاح الجرس، وطلب كوباً من الماء ليضع الأقحوانة في مكانها المناسب، ما إن أحضروا الكوب ووضعوا الأقحوانة فيه، انتبه "لوكاس" إلى أن مائدة الأباجورة مزدحمة بالزجاجات، والمجلات، والسجائر، وبطاقات البريد، بطريقة تتطلب معها إمكانية وضع منضدة قريبة من السرير تسمح لـ"لوكاس" بالاستمتاع بوجود الأقحوانة دون حاجة إلى مط رقبته للبحث عنها بين الأشياء المختلفة المتزايدة على مائدة الأباجورة.

أجابت الممرضة ما طلبه على الفور، ووضعت الكوب، والأقحوانة في الزاوية المفضلة، مما أدى إلى أن يوجه "لوكاس" إليها الشكر، وانتبه بعد ذلك إلى أن كثيراً من الأصدقاء سيأتون لزيارته، وأن المقاعد قليلة، ويجب استغلال وجود المنضدة وإضافة مقعدين أو ثلاثة، بمساند مريحة، وخلق جو أكثر مرحاً للأحاديث.

جاءت الممرضات بالمقاعد بسرعة، قال "لوكاس" لهن إنه يشعر بأنه مُجبر نحو أصدقائه مثلما هن مجبرات على مشاركته في كأس المرارة، وهو السبب الذي يجعل المنضدة في حاجة إلى مفرش يتحمل وضع زجاجات الويسكى، ونصف دستة من الأكواب، وبالطبع إمكانية وضع سطح زجاجي، وإناء للثلج، وزجاجة صودا، انتشرت الفتيات للبحث عن الأشياء المطلوبة، ووضعنها على المنضدة بشكل فني، وأتاحت الفرصة لـ"لوكاس" أن يشير إلى أن وضع الأكواب والزجاجات يُفقد الأقحوانة رونقها، لأنها ستضيع بين الأشياء الموضوعة، ولو أن الحل بسيط جداً، لأن الشيء الحقيقي الذي ينقص هذا الجمال هو دولاب لحفظ الملابس، والأحذية، المعلقة بخشونة على المشجب، ويكفى وضع الأقحوانة على الدولاب حتى يمكن للزهرة أن تسيطر على جو المكان، وتُعطى له السعادة وبعض الأسرار التي هي رمز النقاهة.

بأمانة العمل في المستشفى، ودون التجاوز عن حدود الواقع، حملت الفتيات دولاباً كبيراً، ووضعن عليه الأقحوانة كعين ثملة بالفرح، ومليئة بالحلم، تسلقت الممرضات الدولاب لوضع بعض الماء النظيف في الكوب، حينئذ أغلق "لوكاس" عينيه وقال إن كل شيء في مكانه، وأنه سيحاول أن ينام، ما إن أغلقن الباب، حتى نهض "لوكاس"، ونزع الأقحوانة، وألقاها من النافذة، لأنها لم تكن الزهرة التي يحبها بشكل خاص.

ماريو بنيديتى(*)

Mario Beneditti

(الأوروجواى)

(*) ماريو بنيديتي Mario Beneditti مواليد الأوروجواى عام1920. يعد من أهم الكتاب في أمريكا اللاتينية، وله إسهامات أدبية كبيرة في مجالات القصة والرواية، والمسرح، والشعر، و الدراسات النقدية. أولى أعماله "حكايات هذا الصباح" مجموعة قصص صدرت عام 1949، بعدها صدر له "من منا" قصص طويلة، ثم"عيد ميلاد خوان انخيل" عام1959، و"الهدنة" رواية طويلة صدرت عام1960، ثم مجموعة قصص"الموت وحكايات أخرى" عام1968. و"ذكريات ولا ذكريات" عام1977. في مجال الشعر صدرت له مجموعة تحت عنوان "الخالق" عام1970. المسرح أهم أعماله فيه: "بيدرو والكابتن" عام1979. في النقد والتنظير الأدبى صدرت له كتابان: "الأدب في الأوروجواى في القرن العشرين" عام1970، ثم "أدب أمريكا اللاتينية" صدر عام 1967، وأهم كتبه في هذا المجال هو"الكاتب الأمريكى اللاتينية والثورة المحتملة" عام 1974.

اتفاق مُعمَّد بالدم

في هذه اللحظات لم يعد أحد يناديني باسمي: "اوكتابيو". ينادونني جميعاً بلقب "الجد". حتى ابنتي لم تعد تقل لي "يا أبي"، عندما يبلغ الواحد منا، مثلي أنا الرابعة والثمانين، ماذا يمكنه أن يطالب بأكثر من هذا. لا اطلب شيئاً، كنت ولا زلت معتزاً بكرامتي إلا أنني اعتدت منذ سنوات البقاء في كرسيّ الهزاز، أو في السرير لا أتكلم حتى اعتقد الآخرون أنني فقدت القدرة على الكلام، حتى الطبيب اعتقد هذا. لكني أستطيع الكلام، أتحدث في الليل، أتحاور مع نفسي، بالطبع أتحاور مع نفسي بصوت منخفض، حتى لا يسمعوني. أتكلم فقط عندما أشعر بأنهم لن يسمعوني. المهم، لماذا كل هذا؟ لحسن الحظ، يمكنني الذهاب إلى الحمّام بلا مساعدة من أحد. تلك الخطوات السبع التي تنتظرني ما بين الحمّام، ومكاني لا زلت أستطيع القيام بها بمفردي. أما الاستحمام فلا أستطيعه بمفردي، هذا ما لا أستطيع أن أفعله دون مساعدة، لكن نظافتي العامة يقوم بها ممرض مرة في الأسبوع (أتمنى أن تكون لأكثر من مرة، لكن يبدو أن هذا مكلّف مالياً جداً). فالممرض يحمّمني في السرير. لا يفعل ذلك بشكل سيئ، أنا أتركه يفعل ذلك، لا أملك إزاءه شيئاً آخر، إنها طريقة مريحة إضافة إلى إنه يمارسها بمهارة ممتازة. عندما يمرر في النهاية المنشفة المبتلة والباردة ما بين خصيتي، أشعر إنه يفعل هذا بشكل جيد، وان كان بالطبع لا يستطيع أن يحيي ما مات. أحياناً، عندما أذهب إلى الحمّام أنظر إلى مواضع خجلي في المرآة، انه اسم على مسمى، "مواضع خجلي". تبدو كذقن تيس عجوز، هذا هو ما يمكن

تسميته. لكني أعترف بأن منشفة الممرض الباردة تجعلني أشعر بالتحسن. إنه يشبه "الحمّام الحيوي" الذي أشار عليَّ به أحد المختصين في الأعشاب الطبية قبل ستين عاماً. لقد كان (هو وليس أنا) عجوزاً، ونحيفاً، ومجعد الشعر تماماً، نظراته شاحبة لكنها مليئة بالحكمة، وصوته محايد إلا إنه بشوش. أجلسني أمامه، ألقى عليّ نظرة لم تدم أكثر من دقيقة واحدة، وعلى الفور بدأ في الكتابة على الآلة الكاتبة، آلة قديمة من طراز "ريمينجتون" تبدو كما لو كانت تراماً. كانت يكتب بطاقتي كمريض جديد لديه، فيما كان يكتب، كان يقرأ النص بصوت مرتفع، ربما ليتأكد من أنني قد أصحح له بعض المعلومات. كان مدهشاً. كل ما نطقه كان دقيقاً بشكل كبير، أُصبت مرتين الحصبة، ومرة باحتقان الجلد، ومرة بالحمى القرمزية، والدفتيريا، والتيفود، مارست ألعاب القوى في طفولتي، كان هذا من حسن الحظ وإلا لأصبت اليوم بضيق التنفس، ودوالي الشرايين المبكر، والانزلاق الغضروفي، وكانت لدى أسنان قوية وأشياء أخرى إضافية. لم انتبه إلى ذلك اليوم أنني كنت احتوى على كل هذه الأشياء. ولكن بفضل ذلك الرجل ونصائحه تحسنت صحتي شيئاً فشيئاً. لكن السيئ جاء فيما بعد، بمرور سنة فأخرى، فأخرى. سنوات، لا يمكن لطبيب أعشاب أو حتى قاتل أحياء يمكنه إنقاصها عنك. والآن يجب عليّ أن أظل معظم الوقت ساكناً وصامتاً (السكون فأنا مُجبر عليه، أما الصمت فهو هوايتي)، كانت تسليتي استرجاع أحداث حياتي، والبحث وإعادة البحث عن تفاصيل اعتقدت أنني نسيتها، ولكنها ظلت مختبئة في أركان الذاكرة، أرى بعيني الدامعتين معظم الوقت (ليس بسبب البكاء ولكن بسبب الشيخوخة) وأستعيد رؤيته خطوط كفوف يدي. التي لم تعد تحتفظ بذكريات النساء اللاتي دغدغتهن، ولكن لا تزال ذاكرتي تحتفظ بذكراهن، وأستطيع أن أمرر أجسادهن أمام عيني كمن يستعيد

فيلماً سينمائياً، وأستطيع إيقاف اللقطات حسب رغبتي لأدقق في عنق (ربما يكون عنق آنا؟) الذي أثارني دائماً،أدقق في نهد (ربما كان نهد "لويسا"؟) الذي جعلني أعتقد في وجود الله طوال عام كامل، أو أدقق في خاصرة (ربما تكون خاصرة "كارمن"؟) التي كانت تشتاق إلى ذراعي اللذين كانا قويين وقتها، أو أدقق في عانة محاطة بعشب أشقر كنت أسميه وقتها الغرة الذهبية (ربما تكون عانة "ايما"؟) التي كانت تبدو في أحلامي (أعشاباً شهوانية) وفي كوابيسي، إنه أمر مثير، دائماً ما أتذكر تفاصيل صغيرة من الجسد، ولا أتذكر الوجوه أو الأسماء. أحياناً أتذكر اسماً دون أن أمتلك أدنى فكرة عن الجسد الذي ينطبق عليه. أين هن الآن هاتيك النساء؟ هل لا زلن على قيد الحياة؟ هل ينادون عليهن بالجدات، فقط جدات؟، ولا يوجد هناك من ينادي عليهن بأسمائهن المجردة؟ الشيخوخة تغرقنا في عالم من التجهيل. يقولون في إسبانيا أو كانت تقول الصحف: مات عجوز في السبعين من عمره. الملعونون، إذن أي صفة يطلقونها علينا نحن من بلغنا الثمانين؟ هل يطلقون عليها حطاما؟ بقايا؟ بلا ملامح؟ عندما كنت في الستين كنت أي شيء إلا أن أكون عجوزاً، كنت ألعب الكرة على الشاطئ مع أصدقاء أبنائي، وكنت أفوز عليهم بقليل من الجهد، في السرير، كانت ماكينتي تكمل عملها خلال الحوار الجسدي بكرامة تُحسد عليها. وأنا عقلياً كنت أُكمل مهمتي أيضاً. في العمل لا أستطيع أن أقول أنني كنت الأول، ولكني كنت أفوز على الجميع دائماً. دائماً ما عرفت كيف أستمتع، نعم ولكن دون أن أسيء إلى "تريسا". آه أخيراً هناك اسم أذكره مع جسده. بالطبع فقد كانت زوجتي، ظللنا معاً لسنوات طويلة على المرة، وكنا معاً أكثر في اللذة، هي، كانت تقوم بواجبها بما استطاعت. من الممكن تخيل أن لي مغامرات أخرى هناك، لكنني لم أفعل أبداً ما يستوجب الغيرة، من تلك الأشياء التي

تسيء إلى حياتي الخاصة. بالمقابل، كنت حريصاً دائماً على الحفاظ عليها. ألا أشعرها بالخجل أبداً، ألا أُعرضها للسخرية (وهذا أول واجبات الزوج الطيب)، لأن هذا هو ما لا أسمح به لنفسي. أحببتها كثيراً، بالطبع كان حباً مختلفاً. كانت تمثل نصفي الثاني المكمل لي بشكل ما. وكانت أيضاً مساعدتي في تخطي لحظات غضبي، هذا كاف. أنجبت لي ثلاثة أولاد وفتاة، هذا كاف، نوبة الربو التي قَتَلَتْها كانت بداية للنوبة القلبية التي أصابتني. كانت في الثامنة والستين، وأنا كنت في السبعين، أي منذ حوالي أربعة عشر عاماً. ليست بالكثير، من حينها بدأت حالة الجذر لدي. ولا تزال تتواصل، مع مَنْ يمكنني أن أتكلم؟ أعرف أنني بالنسبة لابنتي ولزوج ابنتي لست أكثر من حمل ثقيل. لن أقول أنهما لا يحباني، ربما كان حبهما لي كمن يحب أثاثاً أثرياً أو ساعة سويسرية قديمة أو (مثل هذا الزمان) حب امتلاك فرن كهربائي، لن أقول أن هذا ليس أمراً طيباً. كل ما أريده هو أن يتركاني أفكر، تأتي ابنتي مبكراً كل صباح ولا تقول لي كيف حالك يا أبي، بل كيف حالك يا جد، كما لو لم تكن من نتاج حيواناتي المنوية ما قبل التاريخية. يأتي زوج ابنتي في منتصف النهار، ويقول كيف حالك يا جد. عندما تأتي منه فإنها لا تبدو خطأ بل تعبيراً عن محبة. وأنا أقدر هذا التعبير، لأنه جاء نتيجة حيوانات منوية مختلفة، ربما كانت نطفة إيطالية لأن اسمه "آلدو كاجنولي". يا للسعادة لقد تذكرت اسماً كاملاً، سواء تحية ابنتي أم تحية زوج ابنتي أجيبها بابتسامة، أو هزة رأس بالموافقة ونظرة، نظرة حانية كما هي العادة، لكن بذكاء. هذا ما أقوله لنفسي، بما يعني أنه ليس عطفاً من جانبي ولا حتى تظاهراً بذلك، وهو من الأمور المعتادة اليوم. أقول بذلك، لأن الأمر يحدث على هذا النحو، وأنا أيضاً لدي انطباع أنهم يحمدون الله على أنني لا أستطيع الكلام (هذا ما يعتقدونه)، أعتقد أن هذا ما

يعتقدون: كم من تخريفات عجوز استطاعوا التخلص منها، ومع ذلك فأنا أرى أنهم يخسرون الكثير، لأنني أعرف إنه يمكنني أن أحكي لهم أشياء لطيفة، ذكريات هي جزء من التاريخ. ماذا يعرفون هم عن الحروب العالمية، عن أول سيارة فورد، أو الألعاب الأولمبية، عن موت "باتل" أو مصارع الثيران "اوردونييث"، أو وداع "رودوو" عند ذهابه إلى إيطاليا، ماذا يعرفون عن احتفالات المئوية، بما إنني أحكي ذلك لنفسي فليس عليّ أن أحافظ على تسلسل الأحداث التاريخي، هذا لحسن الحظ. ماذا يعرفون؟ فقط يعرفون نبأ أو هامشاً أسفل الصفحة، أو إشارة يذكرها سياسي في أحد خطاباته. لا أكثر من ذلك. لكن المناخ المحيط بتلك الأحداث، والناس في الشوارع، مشاعر الحزن أو تعبيرات الوجوه، الشمس أو الأمطار التي كانت تعلو رؤوس التظاهرات، سقف الشماسي الذي غطى الجماهير عندما فازت أوروجواي على إيطاليا بثلاثة أهداف مقابل هدفين خلال مباراة نصف النهائي في أمستردام، وطريقة التعليق على المباراة التي لم تكن تأتي كما يحدث الآن عن طريق القمر الاصطناعي، بل تأتي عبر التلغراف (أوروجواي تهجم، كورنر لإيطاليا، يضغط الإيطاليون على مرمى "مزالي"، شوطة لـ "ساكروني" بعيدة عن المرمى، الخ..) إنهم لا يعرفون ويخسرون كثيراً. عندما تأتي ابنتي وتقول لي كيف حالك يا جد، كان يجب أن أقول لها هل تتذكرين يا ابنتي عندما كنت تأتين باكية لأن ابن الجيران قال لك يا سوداء، وأنت كنت تعتقدين إنه يحقرك لأنك بيضاء، وأنا شرحت لك أن ابن الجيران يقول لك ذلك لأن شعرك قاتم اللون، إضافة إلى أن السود مثلنا تماماً في كل شيء ما عدا لون البشرة، ولذلك كلمة ابن الجيران لا تعني شيئاً مخجلاً، بل أن السود يمكن أن يكونوا طيبين، بل أكثر من البيض طيبة، وكنت أقول لك لا تقلقي يا ابنتي الحلوة جففي دموعك، فتعودين إلى اللعب

مع الأطفال من جديد، وتضعين ابن الجيران في موقف محير عندما تقولين له باحتقار: أيها الأبيض. يمكنني أن أُذكرك بذلك، لكن لمَ. ربما تقولين، دعك من هذه الترهات يا جد. وربما لا تقولين ذلك، ولكني لا أريد أن أخاطر بسماع ذلك. إنها ليست ترهات، "تريسا" (اسمك على اسم أمك، يبدو أننا كنا قصيري التفكير ولم نكلف أنفسنا عناء العثور على اسم آخر) علمتك أنا أشياء وأمك أيضاً. ولكن لماذا عندما تتحدثين عنها تقولين، عندما كانت أمي تعيش، وأنا تسألينني كيف حالك يا جد. ربما، لو كنت قد مت قبلها، تقولين اليوم عندما كان أبي على قيد الحياة، المؤسف أن الأب لا يزال يعيش، لا يتكلم لكنه يفكر، لا يتكلم لكنه يشعر.

الوحيد الذي يملك كل الحق في أن يناديني بلقب الجد هو حفيدي بالطبع، الذي اسمه "اوكتابيو" مثلي (يبدو أن ابنتي وزوج ابنتي لم يكلفا نفسيهما مشقة التفكير ليبحثا له عن اسم آخر). هنا يكمن السر الحقيقي، عندما أناديه "اوكتابيو"، لأن حفيدي هو الإنسان الوحيد الذي أتكلم معه، إضافة إلى كلامي مع نفسي. بدأ هذا قبل عام مضى، عندما كان "اوكتابيو" في السابعة من عمره. عندما كنت مغلق العينين ومعتقداً إنني وحدي قلت بصوت منخفض ولكنه مسموع: "تؤلمني كليتي". لكني لم أكن وحدي، فقد دخل حفيدي دون أن أنتبه لوجوده فقال بدهشة أثارت مشاعري: جدي أنت تتكلم. سألته إن كان هناك شخص آخر في البيت، ولأنه قال لي لا، إنه ليس هناك أحد، عرضت عليه اتفاقاً. أن يحافظ على سر أنني أستطيع الكلام، وبالمقابل أن أحكي له حكايات لا يعرفها أحد غيري. قال حسناً، ولكن علينا تعميد هذا الاتفاق بالدم، خرج وعاد على الفور بشفرة حلاقة، وزجاجة كحول، وربطة قطن، إنه يتصرف جيداً، ويعرف القواعد الصحية منذ

مجموعة الحقن التي حقنوه بها كتطعيمه ضد الإصابة بالحساسية. وبكل هدوء أحدث في ساعدي، وساعده جرحاً بسيطاً جداً كاف لخروج بعض القطرات من الدم، بعدها ضممنا جرحينا إلى بعضيهما وتعانقنا. بلل بعدها "اوكتابيو" القطن بالكحول، وضغط به على الجرحين لمنع الدم من الاستمرار، وخرج مسرعاً ليترك كل شيء في مكانه في صيدلية البيت، منذ ذلك الحين عندما نكون وحدنا في البيت، وهذا كان يحدث كثيراً، يأتي ويطلب مني أن أحكي له حكاية من تلك الحكايات المجهولة تنفيذاً للاتفاق، عندما تخرج ابنتي وزوج ابنتي من البيت يقولون له هل لك أن تحرس الجد، ويقول هو إنه موافق بنوع من التذمر لإخفاء حقيقة مشاعره، ولكنه يغمز لي على الفور بعينيه، وما أن يسمع انصفاق الباب الذي يؤكد وجودنا وحيدين، حتى يأتي بكرسي إلى جوار كرسي الهزاز أو السرير منتظراً سماع حكاياتي كجزء لا يمكن التنازل عنه من الاتفاق المعمّد بالدم. ويجب أن تكون الحكايات جديدة دائماً، ومن هنا تأتي المشكلة، لأنني أقضي معظم وقتي بالنهار مغمض العينين، كما لو كنت نائماً، لكني في الحقيقة أفكر في الحكاية القادمة، وأحاول أن أحفظ أدق تفاصيلها، لأنه في حكايتي السابقة إن قلت أن الثعلب أصيب في قدمه بعد وقوعه في فخ فيما يجري الآن بحثاً عن الدجاجات. فيلفت "اوكتابيو" نظري على الفور إلى أن الثعلب لم يكن لديه الوقت الكافي ليشفى فيجري، وحينها علي أن أبحث عن حيلة لتصحيح الواقعة عن طريق اللجوء إلى مشاكل الحكي الشفوي، وأعترف بأنني أخطأت وقلت يجري بينما كان يجب أن أقول يعرج، وإذا كان ساحر الجبل العجوز فقد شعر رأسه بسبب العرق الذي أصابه أثناء ضربه لأقزام الغابة في قصة سابقة، وأقول في القصة اللاحقة انه كان يمشط شعر رأسه وهو ينظر

في سطح البحيرة، يلاحظ "اوكتابيو" على الفور: "كيف ذلك يا جدي ألم يكن أصلعاً؟". وهنا يمكنني أن أنجح بشكل أفضل في تصحيح الموقف، فهو ساحر، والساحر يمكنه استعادة شعر رأسه باستخدام ترياقه السحري، ويسأل الحفيد إن كان يمكنه استعادة شعر رأسه هو أيضاً لو فقده في يوم من الأيام، لا، أنت لا، أخدعه، لأنك لست ساحراً. ويقول هو إنه مؤسف، وفي الحقيقة لديه بعض الحق، لأنني لو كنت ساحراً أنا أيضاً كان يمكنني أن أستعيد بعض شعر رأسي الذي فقدته قبل أن أكمل الخمسين من عمري، أنا لست الوحيد الذي يحكي الحكايات، هو أيضاً يحكي لي ما يحدث في المدرسة، وفي الشارع، وفي التليفزيون، وفي الملعب، فهو من مشجعي نادي "الدانوب" ويندهش لأنني أشجع "الوندورز"، ويحاول أن يجذبني إلى ناديه، ولكن بالطبع لا يملك أحد الإمكانيات ليجعلني أغير رأيي، عندها أقصُّ عليه حكايات عن مباريات كرة قدم قديمة، أو بعض الألعاب الشهيرة، مثل لعبة "بيندبيني" الذي سجل هدفاً شهيراً في حارس المرمى الإلهي "ثامورا"، أو عندما تمكن النحيف "جارثيا" من الحفاظ على شباكه نظيفة (بالطبع كانت اللعبات الخلفية بكرة القدم لا يمكن أن يلعبها سوى "تازاسي" و"دومينجيس دا جيا") من خلال الدوران دورة ونصف، أو عندما سجل "جيجيا" هدف الفوز في إستاد "ماراكانا" البرازيلي، أو عندما، أو عندما، أو عندما. كان يستمع إلى كلامي ككلام مقدس، وأن أفكر بأنني حسن الحظ لأنني لا أزال أستطيع الكلام ويمكنني إثارة دهشته، وهذه كانت لذتي الوحيدة.

في الحقيقة لا أذكر كيف كان شكل أبنائي عندما كانوا في عمر حفيدي "اوكتابيو". أكبرهم توفي. كم من الوقت مضى على وفات "سيمون"؟ مات بعد وفاة "تريسا" زوجتي. على أية حال ما أهمية

تاريخ الوفاة؟ لقد مات، وانتهى الأمر. لم يكن لديه أولاد، فيما أعتقد. أو ربما نسيت أنا هذا؟ لست متأكداً من حجم فقداني لقدراتي على التذكر، التي تبدو أحياناً بحجم المحيطات، الابن الثاني، "براوليو"، نعم لديه أولاد، لكنهم يعيشون جميعاً في "دنفر"، ترى لماذا ذهب إلى هناك؟ في الحقيقة لا أذكر سبب ذهابه ليعيش هناك. يرسل أحياناً بعض الصور، التي يلتقطها بآلته "البلورايد"، أو يرسل بعض البطاقات البريدية، مع قبلات للعجوز، الذي هو أنا، هو لا يطلق عليّ لقب الجد يسميني العجوز، ويا له من اختلاف، أعترف إنه أرسل لي مرة راديو صغيراً لا يزال معي وأسمعه أحياناً، ولكن كثيراً ما يبقى بلا بطاريات وكان يجب عليّ أن أطلبها، لكني لا أطلب شيئاً، لم أطلب شيئاً على الإطلاق، أعترف أنني متعجرف كثيراً. ولكن بعد كل هذا الزمن من الصعب أن أغير عاداتي. أليس كذلك؟ على أي حال الخاسر هو أنا، لأن الراديو لو كانت به بطاريات دائماً لأمكنني سماع بعض مباريات كرة القدم، على أية حال لن تكون كثيرة لأن معلقي هذه الأيام بشكل عام يتصنعون المشاعر، ويخطئون كثيراً في اللغة. يمكنني أيضاً سماع برامج الموسيقى الكلاسيكية، وهي الموسيقى الوحيدة التي أستمتع بها، يا لها من سعادة التي شعرت بها تلك الأمسية خلال سماع السيمفونية السابعة. كانت عندي اسطوانتها منذ زمن، من يعرف أين هي الآن؟ ربما كانت حجارة الراديو تحل لي تلك المشكلة، لولا عنجهيتي الغبية، إذن فلأقل ذلك لحفيدي، إنه جزء من اتفاقنا المعمّد بالدم بالحفاظ دائماً على أسرارنا، سأقول ذلك لحفيدي، انظروا راديو الجد بلا حجارة، وعندها يرسلون به إلى حانوت عند الناصية لإحضارها، ربما بها أستطيع تحقيق رغبتي. أنا أعرف كيف أضعها في مكانها، وإن كنت في بعض الأحيان أضعها بالمقلوب فلا يعمل الراديو، في إحدى المرات قضيت أكثر من ربع

ساعة وأنا أحاول وضع الحجارة الأربعة 1.5 فولت في مكانها الصحيح. على الأقل تسليني لبعض الوقت. أي شيء آخر أستطيع القيام به؟ القراءة، لم أعد أستطيع القراءة، ولا حتى التليفزيون أستطيع مشاهدته، لكن سماع الراديو أو تغيير حجارته، نعم أستطيع ذلك. ابني الثالث اسمه "دييجو" ويعيش في أوروبا، يُعلِّم هناك في زيوريخ، أعتقد أنه يعرف الألمانية وأشياء أخرى، عنده طفلتان تعرفان اللغة الألمانية أيضاً، لكنهما لا تتحدثان الإسبانية. يا له من حظ سيئ، أليس كذلك؟ يكاتبني "دييجو" أقل من "براوليو"، وهذا رغم أن تخصصه هو الأدب، لكنه بالطبع متخصص في الأدب السويسري. يرسل لي بطاقات بريدية في أعياد الميلاد، وعليها تحيات ابنتيه مكتوبة بالألمانية، وأنا لا أعرف الألمانية، أعرف بعض الإنجليزية التي كانت تساعدني في الرد على الرسائل خلال عملي في شركة "سور" للاستيراد والتصدير، يمكنني القول إنني أعرف بعض الجمل: "استلمنا الرسالة"، "شكرا لتعاونك" وأشياء من هذا القبيل. ابني الصغير يرسل من وقت لآخر ببعض الهدايا، أرسل لي مرة سلسلة مفاتيح سويسرية من الذهب عيار 18. ابتسمت في تلك المرة، كما لو كنت أريد أن أقول هدية جميلة، ولكن في الحقيقة كنت أفكر في سوء الهدية، ما حاجتي أنا لسلسة مفاتيح من الذهب عيار 18، إذا كنت أجلس هنا شبه مقعد.

علاقتي بالعالم تتحدد في ابنتي عندما تدخل وتسألني كيف حالك يا جد، وزوج ابنتي الذي يكرر السؤال نفسه، وفي بعض الأحيان الطبيب، أو الممرض عندما يأتي لتجفيف خصيتي المتقاعدتين، وأيضاً لغسل باقي جسد هذه الجريمة. حسناً، بالطبع هناك حفيدي الذي أعتقد إنه الوحيد الذي يساعدني على البقاء حياً ، أريد أن أقول كان

يساعدني، لأنه في صباح أمس جاء وقبلني وقال لي سأسافر يا جدي إلى "دنفر" لمدة خمسة عشر يوماً عند عمي "براوليو"، وأنني حصلت على تلك الإجازة بعد أن تمكنت من تحقيق نتائج جيدة في الامتحانات، أنا لا أستطيع الكلام (ولا أعرف إن كان يمكنني الكلام بالفعل، لأن صوتي احتبس في حلقي) وكانت معي في الحجرة ابنتي وزوجها، ولم يكن حفيدي قادراً على خرق اتفاقنا المعمَّد بالدم. فأعدت له القبلة وضغطت على يده ووضعت ساعدي إلى جوار ساعده كتأكيد على اتفاقنا، أعرف أنه فهم أنني متأسف لأنه لن يجد من يحكي له حكايات جديدة. ثم ذهبوا. بعد ثلاث أو أربع ساعات عاد "آلدو"، فقط "آلدو" وحده، وقال لي، "بص يا جد "اوكتابيو" لن يذهب في إجازة لخمسة عشر يوماً فقط، بل لمدة عام وربما أكثر، نريده أن يدرس في الولايات المتحدة، وهكذا يتعلم الإنجليزية منذ طفولته ويمكنه أن يحصل على دراسة تفيده أكثر، وهو لم يقل لك ذلك لأنه لا يعرف عن هذا الأمر شيئاً، لم نكن نريده أن يبدأ في البكاء، لأنه يحبك كثيراً يا جد، كان دائماً ما يقول لي ذلك، وأعرف أيضاً أن حضرتك تحبه، أليس كذلك؟، سنقول له هذا في خطاب نرسله له بعد سفره، بعد أن يكون عمه قد أعده لذلك. آه، أيضاً هناك شيء آخر، بعد أن ودعنا عاد وقال لنا قبلوا لي جدي وقولوا له إنني سأنفذ ما تواعدنا عليه، وخرج جرياً. أي اتفاق هذا يا جد؟". أغلقت عيني خجلاً، ورغم أنها كانت مغرورقة بالدموع كعادتها إلا إنه لن يعرف أحد مطلقاً أنها كانت دموع حقيقية هذه المرة. أشحت بيدي كمن يريد أن يقول: إنها أشياء طفولية، بقي زوج ابنتي هادئاً ثم غادرني، وتركني وحيداً في عزلتي، لأنني منذ هذه اللحظة لم يعد لي أحد أتكلم معه. لقد فاجأني كل هذا. لكن ربما كان هذا هو الأفضل، لأنه لو

كانت لدي رغبة في الموت الآن سأنفذها، وهو أمر طبيعي لمن هو في الرابعة والثمانين، في مثل سني ليس طيباً أن يعيش الإنسان، على أية حال الموت سيأتي برغم إنه يبدو فجائياً، أما بالنسبة لي فلن يكون كذلك. لدي رغبة في الرحيل، حاملاً معي كل هذا العالم الموجود في رأسي، والحكايات العشر أو الإثنتي عشرة التي كنت قد أعددتها لأحكيها لـ "اوكتابيو"، حفيدي، لن أنتحر، ولو فُرض أنني فكرت في ذلك فبأي شيء أنتحر؟ ليس هناك أكثر أمناً من إبداء الرغبة في الموت. كنت أعرف هذا دائماً، الواحد منا يموت عندما يريد أن يموت، ولن يعرف أحد السبب، ولا حتى الطبيب. (ترى هل انتبه الطبيب مرة إلى أنني أستطيع الكلام؟) ولا حتى الممرض ولا "تريسا" ولا "آلدو". سيعرفون بموتي عندما يفتقدوني فقط لخمس دقائق، ربما تقول لي "تريسا" وقتها أبي، لكن سيكون الوقت قد فات، وأنا بالمقابل لن أقول لهم وداعاً، ربما ألقي عليهم وداعاً بآخر نظرة، لن أقول وداعاً، ليعرف "اوكتابيو" حفيدي إنه حتى في تلك اللحظة لم أخرق اتفاقنا المعمّد بالدم، وسأذهب بحكاياتي إلى مكان آخر، أو ربما إلى لا مكان.

مثلث متساوي الأضلاع

مضى على المحامي "ارسينيو بورتاليس" والممثلة المعتزلة "فاني ارالوثي" اثنتا عشر سنة من الزواج السعيد، منذ البداية طلب الزوج من "فاني" اعتزال التمثيل، لأنه فيما يبدو لم يكن متحرراً بالقدر الكافي ليحتمل مشاهدة زوجته الجميلة ليلة بعد أخرى بين أحضان وقبلات آخرين على خشبة المسرح.

بذلت هي مجهوداً كبيراً لتلبية رغبته التي تؤمن أنها شيء غبي، وتنبع عن إحساس مرضي بالرجولة وتفتقد إلى أدنى حس مهني. "من ناحية أخرى"، كان قد أضاف الزوج إلى تلك الرغبة شيئاً آخر يبرر طلبه لاعتزالها، "لا أعتقد أن لديك المواهب الكافية لتنجحي كممثلة مسرحية، لأنك شفافة أكثر من اللازم، في كل دور تطغى شخصيتك الحقيقية على الشخصية المسرحية، في الوقت المطلوب أن تطغى الشخصية المسرحية على شخصيتك الخاصة، أنت شفافة أكثر من اللازم، والممثل الحقيقي يجب أن يكون غير شفاف كإنسان، وما لم يكن كذلك فلن يكون قادراً على أداء دور شخص آخر، مهما ارتديت ملابس "افيليا"، أو "اليكترا" أو "ماريان بيريدا"، فإنك ستكونين دائماً "فاني ارالوثي". أنا لا أنكر أن لديك مواهب فنية، ولكن يجب أن توجهي مواهبك نحو الرسم أو الأدب، أي، لممارسة فن تكون فيه الشفافية فضيلة وليست عيباً".

تركت "فاني" زوجها يعرض وجهة نظره، إلا إنه لم يقنعها أبداً، وإذا كانت قد تخلت عن عملها كممثلة فذلك من أجل الحب، لم يكن

هو يفهم ذلك أو يقدره على هذا النحو. مع ذلك، فإنه خلال الحياة اليومية الخاصة، كانت "فاني" منظمة، قنوعة، تكاد تكون ربة بيت مثالية.

ربما كانت ربة بيت أكثر من مثالية بالنسبة للمحامي الدكتور "بورتاليس". كانت خلال العامين الأخيرين للمحامي علاقة نسائية أخرى سرية، ومنتظمة، بامرأة مشبوبة العاطفة، محبة للجنس، متناقضة، وكما لو كان كل هذا غير كاف، فقد كانت جذابة جداً.

استأجر "بورتاليس" شقة صغيرة على بعد ثماني نواصي من بيته، كمكان مناسب لتلك اللقاءات. كان مهتماً بتنظيم أسباب ذهابه إلى مخبأه: لأسباب مهنية كان عليه الذهاب إلى "بوينوس ايريس" مرة واحدة أسبوعياً، ولا يغيب إلا ليلة الثلاثاء فقط، ويطلب من "فاني" ألا تهاتفه خلالها، ولكن تحسباً لشكوكها، قدم لها رقم تليفون زميل من العاصمة، مع تعليمات محددة: "آه ارسينيو؟ في اجتماع أعتقد إنه سيمتد إلى وقت متأخر." إلا أن "فاني" لم تهاتفه أبداً.

هي، التي كانت تعرف احتياجات زوجها أكثر من أي شخص آخر، كانت ترتب له حقيبته الصغيرة، وتُرسل في طلب التاكسي، و"بورتاليس" كان يهبط من التاكسي بعد ثماني نواصي، يصعد إلى الشقة السرية، يتخفف من ملابسه، يعد مشروباً، يشعل التليفزيون، في انتظار "راكيل"، التي كانت هي الأخرى متزوجة، والتي يجب أن تنتظر ذهاب زوجها في رحلته الأسبوعية للتفتيش على أملاكه، في الحقيقة كان لقاء الثلاثاء بناء على رغبة "راكيل"، لأنه اليوم الذي اختاره زوجها الثري لمراقبة محاصيله الزراعية، "وليترك لنا الفضاء طليقاً"، كما كان يقول "ارسينيو".

عندما تأتي "راكيل" بعد طول انتظار، يتناولان العشاء بالبيت، لأنهما لا يستطيعان المغامرة بان يُشاهدا معاً في السينما أو في أحد المطاعم، بعدها يمارسان الحب بطريقة مغايرة، شبابية ومنطلقة، كما لو كانا مراهقين، يشعر "بورتاليس" كل ثلاثاء وكأنه استعاد حيويته من جديد، يبذل جهداً مضاعفاً كل أربعاء ليمارس عادات البيت الشرعية، بنقاء وطبيعية.

عند العودة، لا يعرف لماذا، يبالغ في اتخاذ الاحتياطات. يطلب تاكسي، يطلب منه أن يتركه في المطار، وبعدها بقليل، يستقل تاكسي آخر ليوصله إلى البيت، خلال هذا الاعتياد، كانت "فاني" تسأله عن الرحلة، فكان حينها يخترع تفصيلات صغيرة عن لقاءات العمل المملة مع زبائنه في "بوينوس ايريس"، مؤكداً دائماً على مدى تشوقه للعودة إلى البيت.

وأخيراً جاء الثلاثاء الذي تكتمل فيه السنة الثانية من اللقاءات السرية مع "راكيل"، واستطاع "بورتاليس" الحصول على عُقد من الزهور الصغيرة الملونة، أرسل في طلبه من إيطاليا عن طريق أحد زبائنه، وهذا زبون حقيقي قدّم له خدمات هامة، بينما كان "بورتاليس" هائماً في شقته السرية: أعد زجاجة الشمبانيا، ورصّ الكؤوس، استلقى على الأريكة، منتظراً وصول "راكيل" بشوق أكبر من تشوقه لرؤيتها في المرات السابقة.

وصلت هذه متأخرة عن المعتاد، لكنها عللت تأخيرها بذهابها لشراء هدية بمناسبة الذكرى السنوية للقاءاتهما: رباط عنق حريري، مزركش بخطوط زرقاء على أرضية رمادية، عندها قدم لها "ارسينيو بورتاليس" علبة العقد. أعجبها العقد جداً. قالت: "سأذهب إلى الحمّام للحظات قليلة، وهكذا أجرب العقد، وأرى إن كان يليق بي"، قالتها

بطريقة تدل على أنها مقدمة لأشياء أخرى، قبلته برقة وحرارة، وكما هو طبيعي، اعتبر هو هذه القبلة بداية لليلة رائعة.

إلا أن "راكيل" تأخرت في الحمّام وبدأ هو يشعر بالقلق. نهض وتوجه نحو الباب المغلق وسأل: كيف الحال؟ هل أنت بخير؟ قالت هي: "أنا بخير جداً"، "سأكون معك حالاً".

دون قلق، ولكن بتشوق لما سيأتي بعد تلك البدايات المشجعة، عاد "بورتاليس" إلى الجلوس على الأريكة، انفتح باب الحمّام بعد خمس دقائق، ولمفاجأة الرجل المنتظر، لم ينفتح الباب لتخرج منه "راكيل" بل خرجت "فاني ارالوثي"، زوجته، وحول عنقها العقد الفلورنسي.

"بورتاليس"، المصعوق من المفاجأة، لم يفعل سوى أن يصرخ: "فاني!، ماذا تفعلين هنا؟، هنا؟ أكدت هي، "حسناً، ما كنت أفعله كل يوم ثلاثاء، يا عزيزي". جئت لأراك، أمارس معك الجنس، أحبك وأكون محبوبة منك". وكما أن "ارسينيو" ظل مفغور الفم، أضافت "فاني": "ارسينيو أنا "فاني" و"راكيل" أيضاً، في البيت أنا زوجتك، "فاني أ. دي بورتاليس"، لكن هنا أنا الممثلة السابقة "فاني ارالوثي". أي أنني في البيت شفافة وهنا متصنعة، بفضل مساعدة الماكياج، وباروكات الشعر ونص جيد، بالطبع".

"راكيل"، غمغم "ارسينيو بورتاليس".

"نعم، "راكيل"، ألم تنتبه إلى ذلك؟ لقد خنتني مع نفسي، والآن وبعد عامين من الحياة المزدوجة، عليك أن تختار. إما أن تطلقني أو تتزوج مني، لست مستعدة للاستمرار في تلك الحياة. وهناك شيء آخر، بعد هذا النجاح الدرامي، بعد عامين من ممارسة العمل في مسرحية ناجحة، أخبرك فقط أنني سأعود إلى العمل في المسرح".

"صوتك" غمغم ارسينيو "هناك شيء غريب في صوتك، ولا حتى لون عينيك هو لون عينيك".

"بالطبع، وإلا لماذا اخترعوا العدسات الخضراء؟ كنت أسمعك دائماً تقول إنك معجب بالفتيات ذوات العيون الخضراء".

"ملمس بشرتك، بشرتك لم تكن هي نفسها".

"آه لا، يا عزيزي، أشعر بالأسف لخداعك، هنا وهناك كانت بشرتي هي نفسها، فقط يداك كانتا مختلفتين، يداك كانتا تتخيلان لي بشرة أخرى، على أية حال ولا حتى أنا أعرف أيهما بشرتي الحقيقية، هل هي لـ"فاني" أم لـ"راكيل"؟ يداك لهما الكلمة الأخيرة.

احكم "بورتاليس" قبضتيه، مشوشاً أكثر منه غاضباً، ومنهاراً أكثر منه نزقاً.

"قال بصوت مختنق:

– "لقد خدعتني".

قالت فاني/راكيل:

– "بالطبع".

ليلة القبحاء

-1-

كلانا قبيح الوجه قبحاً غير عادى، هي كانت لها وجنة عميقة، كأثر لعملية جراحية، عندما كانت في الثامنة من عمرها، أما العلامة البائسة بالقرب من فمي فقد جاءت على أثر حريق وحشي حدث في بداية مراهقتي.

ولا يمكن تعليل أن لنا عيوناً رقيقة من قبل العدالة الإلهية التي نزعت عنا كل الجمال، لا، هذا لا يمكن تعليله كذلك، فعيونها تماماً كعيوني مليئة بالأحاسيس الرقيقة، وربما كانت فقط تعكس القليل من سوء حظنا، وربما كان هذا هو السبب الذي وحّدنا، وربما كلمة "وحّدنا" ليست الكلمة المناسبة، أنا أشير إلى الكراهية التي يشعر بها كلانا تجاه قبح وجهه.

لقد تعارفنا على مدخل السينما، كنا نقف في طابور لمشاهدة فيلم، هنا فحص كل منا الآخر، دون إحساس بالحب، ولكن بتضامن مظلم، هناك بدأ إحساس كل منا بعزلة الآخر، من النظرة الأولى، في الطابور كان الجميع أزواجاً أزواجاً، وكانوا يشكلون تناغماً بشكل ملفت للنظر، أزواج، عرسان، عشاق، كل منهم يحتضن الآخر أو يمسك بيديه، كل شاب إلى جانبه امرأة، فقط هي وأنا كانت أيدينا طليقة متشنجة.

تأمل كل منا بشاعة الآخر، بعجرفة، وفضول، جريت بعيني على وجنتها العميقة الخشنة، مما جعلني أشعر بخدي المجعد، هي لم

تخجل، أعجبتني جرأتها، كانت ترمقني بنظـرة متفحصـة، كانـت تتفحص وجنتي الملساء الخالية من الشعر، تلك العلامة التي بقيت من الحريق القديم.

أخيراً دخلنا، جلسنا في مكانين مختلفين، لكنهما على مسافة قريبة، هي لم تكن تستطيع أن تراني أما أنا، فقد كنت فـي الظـل، وكـان يمكنني أن أميز عنقها بشعره الأشقر، أذنها الرقيقة، حسنة التكـوين، لقد كانت الأذن الموجودة في الجانب الطبيعي.

طوال ساعة وأربعين دقيقة، كنا معجبين بجمال البطل، وبمسـحة الجنس الرقيقة، على الأقل أنا كان باستطاعتي أن أُعجب بالجمال، أما الكراهية فقد كنت أحتفظ بها لوجهي، وأحياناً من أجـل الله، وأيضـاً كنت أكره الوجوه القبيحة، ربما كان عليّ أن أشعر بالشـفقة، تجـاه الوجوه القبيحة الأخرى، لكني لا أستطيع ذلك، فـي الحقيقـة كـانوا كالمرآة بالنسبة لي، أحياناً كنت أفكر، أي شيء كان يمكن أن يحدث لو أن أسطورة "نرسيس" كانت لوجه قبيح، أو على الأقل كانـت لـه وجنة عميقة، أو أخرى أحرقها الحامض، أو أنه كان بنصف أنف، أو أصيب بكسر في جبهته.

انتظرتها عند الخروج، سرت إلى جانبها عدة خطوات، وبعد ذلك حدثتها، عندئذ توقفت ونظرت إليّ، شعرت بأنها متـرددة، دعوتهـا لنتحدث، في مقهى أو محل حلوى فوافقت على الفور.

محل الحلوى كان غاصاً بالزبائن، لكن لحظة دخولنا خلت مائدة، وعندما مررنا بين الزبائن، كنا نشعر خلفنا بالإشارات، والإحسـاس بالمفاجأة، لقد كانت دائماً قرون استشعاري مسـتعدة لالتقـاط هـذا الفضول، إنه الإحساس السادى للذين لهم وجوه طبيعة، ومتناسقة، لكن

هذه المرة لم أكن في حاجة إلى هذا الإحساس، فقد استطاعت أذني أن تلتقط الهمهمات، القهقهة، والبحات المصطنعة، وجه مرعب وحيد يثير الفضول، لكن وجهين قبيحين يشكلان فضولاً أكبر، شيء متكامل، شيء يجب أن يُشاهد مع الآخرين إلى جانب رجل أو امرأة، هذه الأشياء تستحق أن نُشارك فيها الآخرين.

جلسنا، طلبنا كأسين من الجيلاتي، وهي كان لديها الشجاعة (وهذا أعجبني أيضاً) فأخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة ومشطت شعرها، شعرها الجميل.

سألتها:

– فيم تفكرين؟

وضعت المرآة في الحقيبة، وابتسمت، البئر العميق في وجنتها تغير وضعه.

قالت:

– مكان مشترك، أى مكان.

تحدثنا طويلاً، بعد ساعة ونصف طلبنا قهوة لاستمرار جلستنا الطويلة، فجأة شعرت أننا كنا نتحدث بصراحة مؤلمة تهدد الجدية، وتتحول إلى ما يشبه النفاق، فقررت أن أتجه إلى الهدف مباشرة.

أنت تشعرين بالعزلة في هذا العالم، أليس كذلك؟

قالت وهي ما تنظر إليّ:

– نعم.

بالطبع أنت معجبة من ذوي الوجوه الجميلة، والطبيعية، وتتمنين أن يكون لك وجه طبيعى كوجه تلك الفتاة التي على يمينك، رغم أنك ذكية، وهي، لو حكمنا بالنظرة الأولى تبدو ظاهرة الغباء.

– نعم.

ولأول مرة لم أستطع أن أؤكد نظرتي.

– أنا أيضاً أتمني هذا، لكن هناك احتمال واحد، أتعرفين ذلك؟

وهو أن نصل إلى شيء معاً.

– ما هو هذا الشيء؟

– مثل أن نحب بعضنا، أو نصل إلى نوع من التفاهم، سمّه ما شئت، لكن هناك احتمالاً واحداً فقط.

قطبت جبينها، لم تكن ترغب في استيعاب الفكرة، فكرة الأمل في أى شيء.

– عديني ألا تأخذي المسألة على سبيل الهزل؟

– أعدك.

– الاحتمال الوحيد هو أن ندخل الليل، الليل الكامل، بكامل ظلمته، هل تفهمين ما أعني؟

– لا.

– يجب أن تفهميني، الظلام الكامل حيث لا تستطيعين أن تريني، ولا أراك، لك جسد جميل، هل تعرفين هذا؟

ابتسمت، فتغير وضع العمق في وجنتها، وأصابه الاحمرار القرمزي.

– أنا أعيش في شقة صغيرة بالقرب من هنا.

رفعت رأسها متسائلة ونظرت إليّ، في محاولة للتعرف عليّ، محاولة يائسة للوصول إلى تشخيصي.

قالت:

– هيا بنا.

2

لم أطفئ النور فقط، بل أحكمت الستائر المزدوجة على النوافذ، كانت تتنفس إلى جواري، لم يكن تنفسها مجهداً، لم ترغب في أن أساعدها على نزع ملابسها.

لم أكن أري شيئاً، لكني استطعت أن أشعر أنها كانت ساكنة تماماً بلا أدني حركة، كانت تنتظر، مددت ذراعي بحرص شديد، إلى أن التقيت صدرها، لمسة يدى نقلت إليها شعوراً بالانتعاش، والجرأة، وعبر يدى شاهدت أجزاء جسدها، ويداها أيضا شاهدتا جسدى.

في هذه اللحظة كان على أن أبدأ وأنتزعها من هذه الأكذوبة التي صنعتها بنفسي، أو حاولت أن أصنعها، مر كل شيء كالبرق، لم نكن كذلك.

كان عليّ أن استخدم كل ما لدى من شجاعة، وفعلت ذلك، زحفت يدى ببطء، باتجاه وجهها، التقت بالجزء الغائر المرعب، وبدأت عملية مداعبة بطيئة. في الحقيقة مرت أصابعى عدة مرات على دموعها (كانت في البداية مرتعشة ثم بعد ذلك تقدمت بشجاعة).

في اللحظة التي لم أكن انتظرها، وصلت يدها إلى وجهي، ومرت، وأعادت تمريرها على الجزء المحترق من وجنتي، ذلك الجزء الأملس الخالي من الشعر، علامة الاحتراق التي في وجهي.

ظللنا نبكى حتى الفجر، كتعساء، كسعداء، بعد ذلك وقفت أنا ونزعت الستائر المزدوجة عن النوافذ.

الأنا الآخر

الأمر يتعلق بفتى عادى: كانت له ركب بارزة في بنطلونه، كان يقرأ القصص، يصدر أصواتاً مزعجة أثناء الأكل، ويضع أصابعه في فمه، ويشخر أثناء القيلولة، كان يدعي "أرماندو" كان عادياً في كل شيء عدا شيء واحد، كان لديه أنا آخر.

الأنا الآخر كانت له نظرة شاعرية، ويعشق الممثلات، كان يكذب بحرص شديد، وتزداد عاطفيته عند حلول المساء، كان الفتى يزعجه كثيرًا أناه الآخر، وكان ذلك يجعله يشعر بالقلق أمام أصدقائه، من ناحية أخرى، الأنا الآخر كان مجنوناً، ويسبب ذلك، لم يكن "أرماندو" يستطيع أن يحيا حياة شعبية كما كان يحلم.

في إحدى الأمسيات جاء "أرماندو" متعباً من العمل خلع نعليه، حرك أصابع قدميه ببطء شديد، وأدار مفتاح الراديو، كانت هناك مقطوعة موسيقية لـ"موزارت" لكن الفتى نام، وعندما استيقظ الأنا الآخر كان يبكي بحرارة شديدة، في اللحظة الأولى لم يكن يعرف ماذا يفعل، لكنه بدأ يشتم الأنا الآخر، الآخر لم يقل شيئًا، لكنه في الصباح التالي كان قد انتحر.

في البداية كان موت الأنا الآخر يمثل ضربة عنيفة لـ"أرماندو" المسكين، لكنه أدرك على الفور، أنه يستطيع أن يحيا الحياة الشعبية بشكل كامل، هذا التفكير جعله يشعر بالارتياح .

بعد خمسة أيام من الحداد، نزل إلى الشارع بهدف أن يحيا حيـــاة شعبية كاملة، شاهد من بعيد أصدقاءه، يقتربون فامتلأ سعادة وانطلق يقهقه بعمق، ومع ذلك، عندما مروا بجواره لـــم يشـــعروا بوجـــوده. والأسوأ من ذلك، استطاع الفتى أن يسمع ما كانوا يقولونه: "أرماندو المسكين، كنا نعتقد أنه كان يتمتع بصحة، وعافية".

لم يكن أمام الفتى سوى أن يتوقف عن الضحك، وفي نفس الوقت شعر باختناق، لكنه لم يستطيع أن يشعر بجنون حقيقي، لأن الجنـــون كله كان قد ذهب مع الأنا الآخر.

مانويل روخاس(*)

Manuel Rojas

(التشيلي)

(*) مانويل روخاس Manuel Rojas ولد عام 1896 في الأرجنتين من أب، وأم تشيليين وتوفي عام 1973. عمل في السكك الحديدية، ثم رئيساً لقسم النشر بجامعة سانتياجو تشيلي. أهم مؤلفاته: رجال الجنوب، المجرم، نضال الشاطئ، مدينة القياصرة ، ابن لص، ظلال على الحائط.

كوب الحليب

كان البحار يقف على جانب السفينة كمن ينتظر شخصاً ما، كان يمسك في يده اليسري لفافة من الورق الأبيض، ملطخة بالدهون في عدة أجزاء منها، وفي يده الأخرى كان ممسكاً بغليونه.

ظهر شاب نحيف من بين العربات الواقفة، توقف لحظة، نظر باتجاه البحر ثم تقدم، سار على جانب الرصيف، كان يضع يديه في جيوبه، وكان يبدو شارد الذهن عندما أصبح في محاذاة السفينة، صرخ البحار باللغة الإنجليزية:

- اسمع يا..، انظر إلي.

رفع الشاب رأسه دون أن يتوقف وأجاب بنفس اللغة.

- أهلا، ماذا تريد؟

- هل أنت جائع؟

سادت لحظة صمت، كان الشاب يبدو أنه يفكر، وبدت خطواته أقل استعجالاً، وبدا كما لو كان على وشك التوقف، ولكنه في النهاية نظر إلى البحار بابتسامة وقال له:

- لا لست جائعاً، شكراً أيها البحار.

رفع البحار غليونه من بين شفتيه، وبصق ثم أعاد الغليون في فمه مرة أخرى، واتجه بعينيه إلى مكان آخر، كان الشاب خجولاً من مظهره الذي يثير الشفقة، وبدأ يستعجل الخطي، كمن يخاف من التراجع عما فعله.

بعد ذلك بلحظات، مر أمام البحار صعلوك يرتدى ملابس من الخرق، وحذاء كبير ممزقاً، فزعق فيه البحار دون أن يلفت انتباهه:

- هل أنت جائع؟

وقبل أن يتم البحار جملته، كان الصعلوك، ينظر إلى اللفافة التي كانت في يد البحار بعيون ذات بريق وأجابه بسرعة:

- نعم يا سيدي، أنا جائع جداً.

ابتسم البحار، طارت اللفافة في الهواء، وذهبت لتسقط بين يدي الجائع الشرهتين، ودون أن يوجه كلمة شكر كان يفتح اللفافة التي كانت ما تزال ساخنة، جلس على الأرض، فرك يديه بسعادة وهو يتأمل ما تحويه اللفافة، ربما لم يكن يعرف الإنجليزية لكنه لن يتسامح مع نفسه أبداً لأنه لا يجيد الإنجليزية ليطلب بعض الطعام ممن يجيد تلك اللغة.

الشاب الذي مر منذ لحظات، كان يقف على مسافة قصيرة يتأمل المشهد، هو أيضاً كان جائعاً، مضت ثلاثة أيام منذ أن تذوق الطعام لآخر مرة، ثلاثة أيام طوال، لم يكن ذلك بسبب الكرامة بقدر ما كان يسبب الخجل، كان يعاني وهو يمر أمام العربات المصطفة على رصيف الميناء أثناء فترة الغداء، منتظراً لفافة من بقايا الطعام يلقيها إليه كرم البحارة، لكنه لم يستطع تقبل ذلك، ولا يستطيع ذلك أبداً، وعندما يعرض عليه أحدهم ما تبقي منه -مثلما حدث منذ لحظات- كان يرفض ببطولة، ويشعر بأن رفضه يُسكت جوعه.

مرت ستة أيام، وهو يتصعلك في الحارات، وعلى أرصفة الميناء، كان قد تركته سفينة إنجليزية في ميناء "بونت أريناس" حيث هرب منها بعد أن كان يعمل فيها صبياً للقبطان، ظل هناك لمدة شهر، يساعد الصيادين ثم هرب في أول سفينة متجهة إلى الشمال.

اكتشفوه في اليوم التالي من الإبحار، فأرسلوه للعمل في قسم الغلايات، وأنزلوه في أول ميناء كبير رست فيه السفينة، فبقي هناك كحمولة بلا عنوان، أو صاحب، دون أي معارف، بلا أي نقود في جيوبه، ودون القدرة على ممارسة أى عمل.

عندما كان في السفينة كان يمكنه أن يأكل، لكنه الآن.. المدينة كبيرة، كان يبتعد عن الشوارع المليئة بالمطاعم، والموائد الفقيرة، لم تكن تجذبه كانت تبدو لعينيه أماكن للاستعباد، بلا هواء، مظلمة، ليست كبيرة كالبحر، وبين جدرانها العالية، وشوارعها المستقيمة يعيش الناس، ويموتون فاقدي الوعي.

كان مجنوناً يسيطر البحر على عقله، الذي يغير الحياة الناعمة المحدودة كذراع قوية تلوى قضيباً من الحديد، ورغم صغر سنه إلا إنه قام بعدة أسفار إلى شواطئ أمريكا الجنوبية في عدة سفن، ومارس مهناً مختلفة، وهوايات تقريباً ليس لها وجود على الأرض.

بعد أن تركته السفينة ظل يسير، ويسير، منتظرًا صدفة تسمح له بمواصلة الحياة بأي طريقة إلى أن يعود إلى أسرته، لكنه لم يصادف شيئاً، الحركة في الميناء كانت قليلة، ولم يقبلوه للعمل في أية سفينة من السفن الراسية في الميناء.

هناك كان يتجول صعاليك، بحارة بلا عمل، تركتهم سفنهم أو فُصلوا لأي سبب، وصعاليك يحبون الراحة، ولا يعرف كيف يعيشون، يتسولون أو يسرقون، وتمر الأيام كما تمر مسبحة قذرة، في انتظار أى شيء، أفراد من جنسيات مختلفة، دخلاء غرباء، من هؤلاء الذين لا يمكن تخيل أنهم مازالوا على وجه الأرض، على أن تشاهد نموذجا منهم.

في اليوم التالي، تأكد أنه لن يستطيع أن يتحمل أكثر من هذا، فقرر أن يسلك أى طريق للحصول على الطعام.

سار باتجاه سفينة كانت قد وصلت في الليلة السابقة، وكانت محملة بالقمح، كان هناك طابور من الرجال المحملين بالأكياس الثقيلة ينزلون من السفينة عبر سقالة من الحديد إلى أن يصلوا إلى مدخل المخازن، ويتركون حمولاتهم أمام عمال الرص.

عمل بقوة طوال الفترة الأولى، بعد ذلك بدأ يشعر بالتعب ثم فاجأته نوبات من الإغماء، فكان يسير على السقالة مترنحاً تحت الحمل الثقيل، فكان يشاهد البحر من بين ساقيه المنفرجتين والمسافة بين السفينة، ورصيف الميناء، كان يري البحر ملطخاً ببقع الزيت والبقايا التي تتحرك في صمت.

أنهى فترة العمل، وهو منهك تماماً، والعرق يغطى كل جسده، بينما كان العمال ينسحبون، جلس هو على حافة بعض الأكياس باتجاه المسئول عن العمل، وبعد أن انسحب آخر العمال اتجه إلى المسئول متردداً، ودون أن يقص عليه حكاية، سأله أن يدفع له أجره الآن، أو يعطيه بعض الأجر مقدماً.

أجابه المسئول أن العادة جرت على الدفع بعد انتهاء العمل كله، وأنه يجب أن يعمل في الغد لإنهاء حمولة السفينة، يوم آخر، إنهم لن يدفعوا له شيئاً.

فقال له:

– لكن، لو كنت في حاجة إلى النقود، يمكننى أن أقرضك أربعين سنتيماً، لا أملك أكثر من ذلك.

شكره بابتسامة حزينة وذهب.

حينئذ هاجمته موجة حادة من اليأس، كان جائعاً، جائعاً، جائعاً جوعاً كالسوط، كان يرى كل شيء وقد غشاه ضباب أزرق، كان يسير مترنحاً كالسكران، ومع ذلك، لم يكن بإمكانه الشكوى، أو الصراخ، كان ألمه مظلماً، ومُنهِكاً، لم يكن ألماً، لكنه كان غماً صامتاً، إنهاكاً، كان يشعر كما لو كان مضغوطاً تحت حمل ثقيل.

فجأة شعر بنار تسري في أمعائه، فتوقف، وظل ينحني، ينحني بألم، إلى أن اعتقد أنه أوشك على السقوط، في هذه اللحظة، شعر كما لو فتحت أمامه نافذة، شاهد من خلالها بيته، والأرض المحيطة به هناك، شاهد وجه أمه، ووجوه إخوته، شاهد كل ما أراد وأحب، ظهر واختفى في عينيه المغلقتين من التعب.. بعد ذلك، زال الإغماء، شيئاً فشيئاً، وبدأ يعتدل في مشيته بينما كانت النار تبرد ببطء، تنفس بعمق، ساعة أخرى وقد يسقط على الأرض.

أسرع من خطواته، كمن يهرب من موجة إغماء جديدة، وبينما كان يسير قرر أن يذهب ليأكل في أى مكان، دون أن يدفع، مستعداً للفضيحة أو الضرب، أو الزج به في السجن، مستعداً لأي شيء، المهم هو أن يأكل، هذه الكلمة ترددت في عقله مائة مرة: يأكل، يأكل، يأكل، إلى أن فقدت الكلمة معناها، تاركة فراغاً ساخناً في رأسه.

لم يفكر في الهرب، سيقول لصاحب المطعم: "سيدي، لقد كنت جائعاً، جائعاً، جائعاً، ولا أملك شيئاً لأدفع... سأفعل ما تريد".

وصل إلى أول شوارع المدينة، وفي إحداها وجد محلاً لبيع منتجات الحليب، كان نظيفاً، مليئاً بالمناضد الصغيرة المغطاة بالرخام، وخلف الطاولة كانت تقف سيدة شقراء بصديرية بيضاء جداً.

اختار هذا المحل، كان الشارع قليل الحركة، كان يمكنه أن يأكل في واحد من المطاعم القريبة من رصيف الميناء، لكنه وجدها مليئة بالزبائن الذين كانوا يلعبون ويشربون.

في محل الحليب لم يكن هناك سوى زبون واحد، عجوز بنظارات، ويضع أنفه بين أوراق صحيفة، كان يقرأ، كان يبدو ساكناً، بدا كما لو كان ملتصقاً بالمقعد، وعلى المنضدة هناك كوب من الحليب ممتلئ إلى المنتصف.

انتظر خروج الزبون، فظل يتمشى على الرصيف، وكان يشعر بأن الاحتراق السابق يعود إليه شيئاً فشيئاً، انتظر خمس دقائق، عشراً، إلى خمسين دقيقة، أصابه التعب ، فتوقف إلى جانب المدخل، وكان يرمق العجوز بنظرات حجرية.

أى شيطان يقرأه هذا العجوز في هذه الصحيفة، تخيل أنه عدو شخصي له، كمن يعرف ما يفكر فيه ويريد أن يعكر عليه صفو هذه الفرصة، كان يرغب في أن يدخل ويقول له شيئاً مزعجاً لإجباره على مغادرة المكان، أن يهجم عليه أو يقول له إنه ليس له الحق في البقاء أكثر من ذلك بهذا المبلغ الزهيد الذي دفعه لقاء الخدمة وكوب الحليب.

أخيراً أنهى العجوز قراءته، أو على الأقل قطع القراءة، أنهى باقي الحليب في رشفة واحدة، وقف متثاقلاً، دفع حسابه واتجه نحو الباب، خرج، عجوز أحدب له مظهر نجار، أو نقاش.

ما إن وصل الشارع، عدل وضع نظارته، وضع أنفه من جديد بين أوراق الصحيفة، وذهب ببطء، وكان يتوقف كل عشر خطوات ليقرأ بانتباه أكثر.

انتظر إلى أن ابتعد العجوز فدخل، توقف في المدخل للحظات، متردداً، لا يعرف أين يجلس، أخيراً اختار مائدة واتجه إليها، تراجع في منتصف الطريق فاصطدم بمقعد، ثم اتجه بعد ذلك إلى ركن وجلس.

جاءت السيدة ومررت قطعة من القماش على المائدة، وبصوت ناعم، بلكنة إسبانية، سألته:

- ماذا تطلب؟.

دون أن ينظر إليها، أجاب:

- كوب من الحليب.

- كبير؟

- نعم، كبير.

- فقط؟

- هل لديكم بقسماط؟

- لا، بسكويت.

- حسناً، بسكويت.

عندما استدارت السيدة، فرك يديه بركبتيه، مبتهجاً، كمن يشعر بالبرد، وسيشرب شيئاً ساخناً.

عادت السيدة ووضعت أمامه كوباً من الحليب، وطبقاً مليئاً بالبسكويت، ثم اتجهت بعد ذلك إلى مكانها خلف الطاولة.

أول ما فكر فيه، هو أن يشرب كوب الحليب دفعه واحدة ثم بعد ذلك يأكل البسكويت، لكنه ندم على النظر إليها، اعتقد أنه لو فعل ذلك فإنها ستعرف حاله، وتضعه في موقف مخجل، كان عليه أن يقف ويذهب، دون أن يتذوق ما طلب.

أكل قطعة بسكويت على مهل، غمسها في الحليب ووضعها في فمه، أخذ رشفة من الحليب فشعر بأن الاحتراق المشتعل في معدته بدأ في الانطفاء، والاختفاء، لكن على الفور تذكر موقفه اليائس، البكاء، البكاء الصارخ، رغم أنه كان يعرف أن السيدة كانت تراقبه، إلا أنه لم يستطيع أن يمنع الأنشوطة الساخنة التي كانت تضيق أكثر فأكثر، قاوم، وبينها كان يقاوم أكل بتعجل، كان يخاف أن يمنعه البكاء من الأكل، عندما أنهى الحليب و البسكويت، تضببت عيناه، شيء فاتر مر عبر أنفه، وسقط في الكوب، بكاء مرعب هزه حتى أخمص قدميه.

أسند رأسه على كفيه، وبكى بكاء طويلاً، بكى بمرارة وغضب، برغبة في البكاء، كما لو كان لم يبك في حياته أبداً.

كان يبكى منحنياً، عندما شعر بيد تداعب رأسه المتعب، وسمع صوتاً رقيقاً لامرأة بلكنة إسبانية قالت له:

– ابك، ابك، يا بني ، ابك...

موجة جديدة من البكاء دمرت عينيه، وبكى بقوة كما لو كانت هذه المرة الأولى، لكنه الآن يبكي بفرح، وشعر بريح رطبة تخترقه، مطفئه ذلك الشيء الساخن الذي كان يخنق حلقه، وبينما كان يبكي اختفت حياته، وأحاسيسه كما لو كانت تُغسل كالكوب الذي يوضع تحت ماء مندفع، مستعيداً وضوح، وحزم الأيام السابقة.

بعد أن انتهى من البكاء مسح عينيه، ووجهه بمنديل، وأصبح هادئاً، رفع رأسه ونظر إلى السيدة، لكنها لم تكن تنظر إليه، كانت تنظر إلى الشارع، إلى نقطة بعيدة، ووجهها كان حزيناً.

على المائدة أمامه كان هناك كوب جديد ملئ بالحليب، وطبق آخر ملئ بالبسكويت، أكل ببطء، دون أن يفكر في شيء، كما لو أن شيئاً لم يحدث، كما لو كان في بيته، وكما لو كانت هذه المرأة التي تقف خلف الطاولة هي أمه.

عندما أنهى طعامه كان المساء قد حل، وبدأ المحل يُضاء بلمبة كهربائية، ظل جالساً للحظات، كان يفكر فيما سيقوله للسيدة، لم يجد شيئاً مناسباً. أخيراً وقف وقال ببساطة:

– شكرا يا سيدتي، مع السلامة...

اجابته:

– مع السلامة يا بني...

خرج، الريح القادم من البحر كان يلطف وجهه، الذي كان ما يزال ساخناً من فرط البكاء، سار لفترة دون اتجاه محدد، ثم اتجه بعد ذلك إلى شارع يؤدى إلى رصيف الميناء، كان الليل جميلاً، وكانت تظهر نجوم كبيرة في السماء الصافية.

فكر في السيدة الشقراء الكريمة، وفي الطريقة المناسبة ليدفع لها أجرها عندما يتوفر لديه المال، لكن هذا الامتنان اختفى مع سخونة وجهه، ولم يبق منه شيء، وهذا الذي حدث منذ قليل ضاع بين ثنايا حياته الماضية.

فجأة بدأ يغني أغنية بصوت منخفض، وسار سعيداً، يدوس على الأرض بحزم وثقة.

وصل إلى شاطئ البحر، وظل يسير من جانب إلى آخر، بمرونة ونشاط كما لو كانت قواه الداخلية التي ضاعت من قبل قد تجمعت بقوة.

بعد ذلك بدأ التعب يسري في ساقيه كالنمل، فجلس على كومة من الأكياس.

نظر إلى البحر، أضواء الرصيف، وأضواء السفن كانت تشتعل في الماء متناثرة ما بين اللونين الأحمر، والذهبي، كانت ترتعش برقة، أسند ظهره ونظر إلى السماء فترة طويلة، لم تكن لديه رغبه في التفكير، أو الغناء أو الكلام، فقط شعر بأنه مازال حياً.

وظل في وضعه هذا إلى أن نام ووجهه باتجاه البحر.

أرتورو أوسلار بيترى(*)

Arturo Uslar Pietri

(فنزويلا)

(*) أرتورو اوسلار بيتري Arturo Uslar Pietri يعتبر من أبرز كتاب بلاده وأمريكا اللاتينية الذين لعبوا دورا هاما في التاريخ تلك المنطقة الهامة من العالم وشارك في الحياة السياسية والثقافية هناك بشكل فعال، فنزويلى الجنسية ولد وعاش في العاصمة كاركاس وشارك في الحياة الثقافية، ومن مؤسسي جماعة "جبل1928" التي لعبت دورا هاما على مستوى بلدان أمريكا اللاتينية، وحصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية عام1929، وعمل مستشاراً ثقافياً لبلاده في فرنسا، ثم سكرتير لوفد بلاده في عصبة الأمم في الفترة من1930 إلى1933، ثم أستاذا للاقتصاد وبعد ذلك أستاذاً للأدب الفنزويلي في الجامعة المركزية. وتولي مناصب سياسية هامة منها منصب وزارة التعليم الوطني(1939-1941) ووزارة رئاسة الحكومة(1941-1943) ثم وزارة المالية(1943) ووزارة الداخلية(1945) وكان مرشحا لرئاسة بلاده في الانتخابات التي جرت عام1963. صدرت أعماله القصصية في ثلاثة مجلدات، وله روايات منها: "السهام الذهبية" (1931) و"طريق الدورادو" (1947) ورواية"مهنة المغفور لهم" التي كانت أبرز الأعمال في الرواية المعاصر في أمريكا اللاتينية. وله عدة أخرى تتناول الدراسات الأدبية وعلم الاجتماع.

المطر

كان ضوء القمر يمر عبر فجوات سور الكوخ، وكان ضجيج الريح في حقول الذرة مكتوماً كحبات المطر. وتهز ظلال الفجوات الناصعة شباك صيد الزنجية العجوز ببطء، فيما كان الحبل الذي يربطها إلى العمود الخشبي يهتز بشكل منتظم، يتوافق مع صفير تنفس المرأة المتقطع التي تنام على السرير السفري الملقى في الركن.

كان انزلاق الهواء على أوراق الذرة والأشجار الجافة يصدر أصواتاً تنذر باقتراب المطر، مانحة المناخ الجاف القاسي شيئاً من الرطوبة.

وكان صوت نبض الدم الدائر في شوق، يُسمع عميقاً كما لو كان تحت ثقل الأحجار.

تنصتت المرأة الغارفة في العرق والأرق، وفتحت عينيها ببطء في محاولة لتبين الخطوط المضيئة، ركزت بصرها للحظات ونظرت إلى شباك الصيد الثقيلة الساكنة، ثم نادت بصوت خامد:

– "خيسوسو"!.

صمتت في انتظار الإجابة، فيما كانت تقول لنفسها بصوت مسموع:

– ينام كما لو كان عصا، إنه لا يصلح لشيء، يعيش كما لو كان ميتاً...

عاد النائم إلى الحياة مستجيباً للنداء، تمطى وسأل بصوت متعب:

– ماذا حدث يا "اوسيبيا"؟ لم كل هذا الضجيج؟ لا تتركي الناس في هدوء، ولا حتى في الليل!

– اصمت يا "خيسوسو" وانصت.

– ماذا؟

– إنها تمطر، تمطر يا "خيسوسو" وأنت لا تسمع شيئاً، يبدو أنك أصمت بالصمم!.

اعتدل العجوز بجهد، وغضب، وفتح الباب، فتحه بعنف فسقط على وجهه الشعاع الفضي للقمر المكتمل، وعلى جسده شبه العاري، وكانت الريح الحارقة الصاعدة من السفح المعد للزراعة تهز الظلال، وتضئ كل أعمدة الكوخ.

مد ذراعه بكفه المفتوحة في الخلاء، دون أن يشعر بقطرة مطر واحدة.

ترك يده تسقط، مرخياً العضلات لتستند على إطار الباب.

– أترين أيتها العجوز المجنونة؟ اللهم ألهمنا الصبر!

ركزت المرأة بعينين مفتوحين على الضوء الغامر الذي يدخل من الباب، فيما داعبتها قطرة عرق سريعة سقطت على وجنتها، وغمر المكان بخار حار.

أعاد "خيسوس" إغلاق الباب، وسار بخفة باتجاه شباك الصيد، وتمطى، وعاد صوت الخشب يُسمع من جديد، وترك ذراعه يلامس الأرض منزلقاً على التراب.

كان التراب جافاً كجلد خشن، كان جافاً حتى أعماقه، كالعظام، وتطفو عليه حمى من العطش، لهاث، يشوي البشر.

ولى السحاب الأسود الذي يشبه ظلال الشجر، ضاع خلف الهضاب المرتفعة البعيدة، ذهب كما الأحلام، كما السكون، كان النهار حارقاً، والليل حارقاً، كانت الدنيا مشتعلة بلهيب معدني.

كان الرجال يحترقون ببلادة على الهضاب، وفي الوديان العارية المليئة بالشقوق المفتوحة كالأفواه، والرجال يحلمون بسراب الماء، يحملقون في أية علامة...

كانوا يعيدون ويكررون نفس الكلمات على كل هضبة وفي كل واد عار.

– قال العجوز.. سوف تمطر...

– لن تمطرّ!

كان هذا الحوار علامة على الإحساس بالمشقة.

– انفلق الشق.. سوف تمطر...

– لن تمطر!.

كانوا يكررونها كنوع من تقوية العزيمة في مواجهة الانتظار اللانهائي.

– هدأ الأزيز، سوف تمطر...

– لن تمطر!.

الضوء والشمس كانا حارقين ويعميان البصر.

– ما الذي سوف يحدث، إذا لم تمطر يا "خيسوسو"؟

نظر باتجاه الظل الذي يهتز بإعياء على السرير السفري، وفهم هدفها من مضاعفة معاناة الكلام، أراد أن يتكلم، لكن النعاس كان يسيطر على الجسد، أغلق عينيه، وجلس غارقاً في النعاس.

خرج "خيسوس" إلى الحقل مع أول ضوء في الصباح، وبدأ يقطعه ببطء، كانت الأوراق الزجاجية تتحشرج تحت قدميه العاريتين، كان ينظر على الجانبين إلى خطوط الذرة الصفراء المحمصة، والأشجار القليلة العارية، وفي أعلى الهضبة كانت الخضرة عميقة، وأشجار

الكاكتوس البرية مشرعة، كان يتوقف كل فترة، يأخذ بين يديه حفنه من التراب يحركها في كفه ببطء تاركًا الحبوب الجافة الميتة تقفز من بين أصابعه.

كلما كانت الشمس ترتفع، كانت الحرارة الحارقة تزداد، لم تكن هناك أية سحابة في السماء الزرقاء المشتعلة، كان "خيسوس" مثل كل الأيام السابقة يسير بلا هدف، لأن البذور التي بذرها مقضي عليها بالفناء، كان يقطع الحقل كنوع من العادة اللاواعية، وفي الوقت نفسه ليستريح من عناء الكلام أو السباب العنيفة.

سيطر اللون الأصفر بدرجاته المتعددة على المشهد ابتداء من الهضبة وحتى الوديان الضيقة، والمرتفعات الصلعاء، فيما كانت هناك بقع من التراب الجيرى تمتد مشيرة إلى وجود الطريق.

لم تكن هناك أية حركة تدل على الحياة، الريح ساكنة، الضوء ساطع، والظلال تكاد لا تفقد حجمها، كما لو كانت تنتظر حريقاً.

كان "خيسوس" يسير ببطء، يتوقف من حين لآخر كحيوان مروض، وعيناه على الأرض، ويحدث نفسه من حين لآخر.

– الرحمة والعفو، ماذا سيفعل هؤلاء المساكين مع الجفاف؟ هذا العام لم تسقط قطرة مطر واحدة، والعام الماضي كان شتاء مترعاً، أمطرت أكثر مما يجب، فاض النهر، وقضي على البساتين، وجرف المعبر... من الواضح أنه ليست هناك طريقة... إذا أمطرت، فلأنها تمطر... وإذا لم تمطر، فذلك لأنها لا تمطر...

يخرج من الحوار مع النفس إلى الصمت الأجرد، والسير الكسول، والعينان ملصقتان بالأرض، وعندما شعر أنه في أعماق الهضبة رفع عينيه.

كان جسد صبى، نحيفاً، وضامراً، كان في وضع الوقوف في الاتجاه المعاكس، ثابتاً في مكانه، ويركز بصره على الأرض.

تقدم "خيسوس" نحوه في هدوء، ودون أن ينتبه إليه الصبى، وقف خلفه تماماً، ومن خلال طوله الفارغ كان يرى ما يفعله الصبى، كان يجرى على الأرض خطاً عشوائياً من البول، كان الخط مسطحاً ويثير الغبار على جانبيه، ويجرجر بعض القش القليل، في تلك اللحظة أطلق نملة كان يمسك بها بين أصابعه القذرة.

– وانتكس الخزان... وجاء التيار... برووووم... برووووم... برووووم... والناس تجرى... واكتسحت حقول العم ضفدع... وبعدها قطيع العمة خشبة... وكل الجذوع الكبيرة... زاااس... برووووم... والآن العمة نملة في بللها...

شعر بأن أحداً يراقبه فاستدار فجأة، وحملق برعب في تجعدات العجوز، ورفع وجهه ما بين الغضب، والخجل.

كان رقيقاً، ليناً، أطرافه طويلة، ودقيقة، الصدر ضيق، ومن خلف ملابس القطن الخام كان يبدو جلده ذهبياً وقذراً، رأسه لماح ذكي، وعيناه لا تستقران، وأنفه حاد، وفمه أنثوي، كان يضع على رأسه قبعة قديمة من الفلين، تبدو مستهلكة، وتتدلى على أذنين رقيقتين، فتمنحه شكل حيوان صغير سريع الحركة.

تفحصه "خيسوس" في صمت وابتسم:

– من أين جئت يا فتى؟

– من هناك ...

– من أين؟

– من هناك...

– ومد يده في غموض باتجاه الحقول الممتدة.

– ماذا تفعل؟

– أتمشى.

كانت الإجابة ذات نغمة ومعنى متسلطين مرتفعين أثارا دهشة العجوز.

– ما اسمك؟

– ما أطلقه عليّ القس.

انزعج "خيسوس" من حركة الصبى وطريقته التهكمية. كما لو كان يريد إثارة انتباه الفتى، فنغّم كلماته بشيء من الثقة.

– لا تكن سيء الأدب.

بدأ العجوز حديثه، لكنه سرعان ما خفف من نغمة صوته لتكون أكثر حميمية.

– لم لا تجيب؟

أجاب الفتى بسذاجة مدهشة:

– لم تسأل؟

– أنت تخفي شيئاً. أم إنك هربت من بيت أهلك.

– لا، يا سيدي.

ثم سأله كما لو كان يمارس لعبة دون حماس:

– أم حقنوك بشيء.

– لا، يا سيدي.

هرش "خيسوس" رأسه وأضاف بابتسامة:

– أم أصابك القلق فقررت الهرب، آه، أيها الصعلوك الصغير؟

لم يجب الصبي، وبدأ يتحرك قدميه بطريقة اهتزازية عاقداً ذراعيه خلف ظهره، ومحركاً لسانه إلى أعلى سقف حلقه.

- وأين أنت ذاهب الآن؟

- لا وجهة محددة.

- وماذا تفعل إذن؟

- ما ترى.

لم يجد العجوز ما يقوله بعد ذلك، فظلا صامتين دون أن يجرؤ أي منهما على النظر في عيني الآخر، بعد لحظات، متأذياً من ذلك الصمت، والسكون الذي لم يعرف كيف يكسره، بدأ العجوز في السير ببطء كحيوان ضخم مخبول، كما لو كان يريد تقليد حيوان خرافي، ثم تنبه إلى ما يفعله، لكنه واصل سيره كما لو كن يريد أن يدخل السعادة على قلب الصبي.

- هل تريد أن تتبعني؟

سأله ببساطة فتبعه الطفل في صمت.

عندما وصلا إلى باب المزرعة وجدا "أوسيبيا" غافلة تشعل النار، كانت تنفخ بقوة في كومة من الحطب، وأخشاب الصناديق، والورق الأصفر.

نادى عليها العجوز بشيء من الخجل:

- انظري، انظري من جاء؟

- آخ.

نطقت دون أن تستدير وواصلت النفخ.

رفع العجوز الصبي ووضعه أمامها كما لو كان يقدمه لها، واضعاً يديه المسودتين الغلظتين على الكتفين الناحلين.

- انظري يا امرأة!.

استدارت بعنف، ومرارة فواجهتهما، وبدا الجهد الذي كانت تبذله على عينيها الدامعتين بفعل الدخان:

- آه.

إلا إن حلاوة خفيفة بدت على ردة فعلها بشكل تدريجي. وأجابت على ابتسامة الصبي بابتسامة مماثلة:

– آه، من يكون؟...من تكون؟

– تضيعين وقتك في سؤاله، لأن هذا اللعين لا يجيب.

مكثت تتأمل الصبي للحظات، متشممة رائحته، وتوجه ابتسامة إلى الصبي كما لو كانت تحاول التعرف على شيء لم ينتبه إليه "خيسوس"، ثم تحركت باتجاه الركن ببطء، بحثت في كيس أحمر، وأخرجت قطعة كعك صفراء اللون، كانت متآكلة كما لو كانت قطعة معدنية قديمة، قدمتها إلى الصبي، وبينما كان يمضغ الكعك بصعوبة ظلت تتأمله والعجوز بالتبادل، وكانت تبدو عليها الدهشة التي تشبه الغصة.

كانت تبدو كما لو كانت تبحث عن شيء ضائع في الذاكرة:

– هل تذكر يا "خيسوس"، هل تذكر "كاثيكي"؟ المسكين.

عادت صورة الكلب العجوز الوفي إلى ذاكرة العجوز، وحاصرته نوبة ندم شديدة.

– كا.. ثيـ.. كي..

نطقها العجوز كما لو كان يتعلم هجاء الحروف.

أدار الصبي رأسه وحملق فيه بنظرته العميقة الصافية، ونظر العجوز إلى زوجته وابتسما في خجل من المفاجأة.

فيما كان النهار يتسمع بعمق، كان الضوء يضع الصبي في مشهد الأسرة، والكوخ الصغير، وكان لون الجلد يغذى درجة سمرة الأرض الثقيلة، فيما كانت الظلال الطازجة حية، ومشتعلة في العيون.

بدأت الأشياء تتخذ مكانها شيئاً فشيئاً، وتفسح مكاناً لوجود الصبي، وبدأت اليد تمتد بسهولة على سطح المائدة، ووجدت القدم مكانها في اختلالات المكان، واتخذ الجسد حركته المنتظرة في شهر مثل يناير، وكان يتحرك بخفة في المساحة التي كانت تنتظره.

خرج "خيسوس" إلى المزرعة، وفي نفسه مشاعر مختلطة من الفرح والعصبية، فيما انشغلت "أوسيبيا" محاولة طرد شعور العزلة في وجود هذا الكائن الجديد، كانت تحرك الآنية على النار، وتذهب وتأتي بحثاً عن ما تريد إضافته إلى الطعام، وحين كانت تدير له ظهرها من حين لآخر، كانت تراقب الصبي بطرف عينيها.

من مكمنه الهادئ ويداه بين ركبتيه، كان الصبي يلوي عنقه ناظراً إلى قدميه اللتين تضربان الأرض، وقد بدأ الصفير الخافت الحر الذي لا يشبه أية موسيقى.

بعد فترة سألت "اوسيبيا" دون أن تتوجه إليه:

– من هذا الدبور الذي يصفر؟

كانت تعتقد أنها تحدثت بصوت خفيض، لأنها لو تتلق إجابة بل مزيداً من الصفير، ولكنه صفير أكثر مرحاً، ويشبه انطلاقة العصافير عند الغناء.

نطق الصبي بما يشبه الخجل:

– إنه كاثيكى! إنه كاثيكى!.

فشعرت هي باللذة لسماعها حديث الصبي، فقالت:

– أرى كيف أنك أحببت هذا الاسم؟

ثم أضافت بعد قليل:

– أنا اسمي "أوسيبيا".

فسمعت صوتاً خافتاً كالصدى:

– شمعة دهنية...

ابتسمت ما بين المباغتة وعدم الرضا:

– أرى كيف أنك تحب تسمية الأشياء؟

– أنتِ كنت أول من أطلق على اسماً.

– هذا حقيقي.

كانت على وشك أن تسأله إن كان سعيداً، لكن العزلة القاسية التي عاشتها في هذه الحياة جعلت الأمر صعباً، وكان التعبير مؤلماً تقريباً.

عادت إلى صمتها وبدأت تتحرك كما لو كانت تقوم بمهمة ميكانيكية، محاولة تجنب النبض الذي يحاول أن يدفعها إلى أن تكون أكثر انفتاحاً، وعاد الصبي إلى الصفير من جديد.

تزايد الضوء، مما جعل الصمت أكثر ثقلاً، كانت لديها رغبة في أن تتحدث عن أي شيء يدور في رأسها، أو الهروب إلى العزلة لتجد نفسها في داخلها من جديد.

تحملت دوران الصمت الداخلي حتى آخر ما تحتمل من العذاب، وعندما فوجئت بنفسها تتكلم لم تكن هي التي تفعل ذلك، بل كان الحديث ينطلق كسريان الدم من شريان مفتوح.

– سوف نري الآن كم تتغير الأشياء، و"كاثيكي" لن يستطيع أن يتحمل "خيسوس" أكثر...

مر المشهد الغامض والجاف للعجوز ما بين الكلمات، تخيلت كما لو كان الصبي قد نطق بكلمة "بومة"، ابتسمت في حرج، لأنها لم تكن متأكدة إن كان هذا صدى كلماتها أم كان شيئاً آخر.

– ... لا أعرف كيف تحملته طوال حياتي، لقد كان سيئاً، وكذاباً دائماً، لم يمنحني اهتماماً...

تركز طعم الحياة المر والصعب في ذكري رجلها، فحملته كل الذنوب التي لم تستطع تحملها.

–... حتى عمل الحقل لا يعرفه برغم السنوات الطويلة، غيره عرفوا كيف ينهضون، ونحن نسير للخلف، وللخلف، وأنت تري هذه السنة يا "كاثيكي"...

قطعت حديثها بشهقة ثم واصلت بحزم وصوت مرتفع كما لو كانت تريد أن يسمعها شخص آخر يقف على بعد:

– ... لم يأت المطر.. تحول الصيف إلى عجوز أحرق كل شيء، لم تسقط نقطة ماء واحدة!.

أضاف الصوت الدافئ إلى الهواء الحارق شيئاً من الطزاجة، وشوقاً إلى العطش، وازداد حضور التلال المحترقة، والأوراق الجافة والأرض المليئة بالشقوق، فبدت كجسد آخر يحاول الابتعاد.

صمتت للحظات ثم أنهت حوارها بصوت حزين:

– "كاثيكي"، خذ هذا الكوب واهبط إلى السهل بحثاً عن ماء.

كان ينظر إلى "أوسيبيا"، المنكبة على إعداد طعام الغداء، وشعر بسعادة كما لو كانت تعد حفلاً غير عادي، أو كأنها اكتشفت قدسية الطعام.

فقد تحولت كل أدوات المائدة إلى أدوات لا تُستخدم في غير أيام الآحاد، بدت لامعة، أو كما لو كانت تُستخدم لأول مرة.

– الطعام لذيذ يا "اوسيبيا"، أليس كذلك؟

الإجابة كانت غير كالسؤال تماماً:

– لذيذ أيها العجوز.

كان الصبي في الخارج، لكن حضوره كان بينهما قوياً بشكل لا يمكن تجاهله.

كانت صورة الصغيرة بوجهه الحاد تثير فيهما أفكاراً جديدة، حيث بدأ في التفكير في أشياء جديدة لم يعيراها أهمية من قبل، الحذاء الصغير والأحصنة الخشبية، وعربات مصنوعات عجلاتها من شرائح الليمون، ذات نوافذ زجاجية لها ألوان قوس قزح.

وكانت المتعة المتبادلة تجمعهما وتضفي عليهما مسحة من السعادة، وبدا كما لو كانا قد تعارفا قبل قليل، ويحلمان بحياة مستقبلية؟ وبدا الجمال حتى على اسميهما، وكانا معجبين بنطقهما:

– "خيسوسو"..

– "اوسيبيا"..

لم يعد الزمن مجرد شيء يمر، بل شيئاً خفيفاً يزهر كالينبوع.

عندما اكتمل إعداد المائدة، وقف العجوز وعبر الباب للبحث عن الصبي الذي كان يلعب في الخارج بحشرة برية.

– "كاثيكي"، هيا لتأكل!

لم يسمعه الصبي، كان غائباً في تأمل الحشرة الخضراء الرقيقة التي بدت كعصب وريقة، كانت عيناه ملتصقتين بالأرض، وكان يرى الحشرة تكبر بأضعاف حجمها، فتبدو كما لو كانت حيواناً خرافياً مربعاً، كانت الحشرة لا تكاد تتحرك، تستدير على أطرافها فيما يحاصرها صوت الصبي الذي يردد منغماً بلا انقطاع.

إنها الحشرة تفتح ما بين ساقيها الأماميتين بشكل منتظم ، وظل الصبي يردد نغمته حتى كاد شكل الحشرة يتحول في مخيلته إلى شيء آخر.

– "كاثيكى"، هيا لتأكل!

رفع الصبي وجهه ووقف بجهد كما لو كان عائداً من مشوار طويل.

دخل خلف العجوز إلى الكوخ المعبق بالدخان، كانت "اوسيبيا" تضع الطعام في الأطباق، وكان خبز الذرة الأبيض يزين وسط المائدة.

على غير العادة، التي كان يمارسها العجوز بسبب البذور فقد عاد إلى الحقل بعد الغداء بقليل.

عندما كان يعود في موعده المعتاد كان من السهل عليه تكرار الإشارات المعتادة منه، وأن يقول الجمل والتعبيرات المعتادة، وإيجاد المكان الصحيح الذي يجعل وجوده ناتجاً عن فعل طبيعي، لكن عودته هذه المرة كانت تمثل كسراً لدورة حياته الرتيبة، فقد دخل الكوخ في خجل لأنه كان يعرف أن "اوسيبيا" تسيطر عليها الدهشة.

دخل طارحاً نفسه على السرير المعلق دون أن ينظر إليها، وسمع تساؤلها بلا دهشة:

– آه، لقد اشتد عليك ضعفك؟

بحث عن تبرير:

– وماذا أفعل في هذا الوادي المجدب؟

بعد برهة عاد صوت "اوسيبيا" حلواً، ومع قليل من الدلال:

– نحن في حاجة ماسة للماء!، آه لو أمطرت لفترة طويلة وكافية، يا إلهي!

– الحر شديد والسماء خالية من الغيوم، ولا يبدو المطر مـــن أى طرف.

– لكن لو أمطرت يمكن البذر من جديد.

– نعم، هذا ممكن.

– وسوف يكون كافياً لحصاد وفير بعد هذا الجفاف الطويل.

– نعم، هذا ممكن.

– زخة مطر واحدة يمكنها أن تحوّل هذا السفح إلى خضرة.

– وبما نجنيه من حصاد يمكننا أن نشتري حمـــاراً، نحـــن فـــي حاجة شديدة إليه، ونشتري بعض الملابس الداخلية لك، يا "اوسيبيا".

نبتت موجه الحنان بشكل مفاجئ، وتحولت إلى معجـــزة دفعـــت بالابتسامة إلى شفتي العجوزين.

– وتشتري لك معطفاً جيداً يا "خيسوسو".

ثم انطلقا معا يقولان:

– وماذا لـــ"كاثيكي"؟

– نأخذه إلى القرية ليختار ما يحب.

كان الضوء الداخل من بـــاب الكـــوخ يتحـــول إلـــى الشـــحوب، والإظلام، كما لو كان الزمن يمر رغم مرور وقت قصير منذ تناول طعام الغداء. هب نسيم مضمخ بشيء من الرطوبة مما خفـــف مـــن وطأة البقاء في الكوخ.

كانا قد قضيا طوال منتصف النهار تقريباً في صمت، ولم يفعـــلا شيئاً سوى تبادل بعض الكلمات المبهمة من وقت لآخر، مما حـــرر الأرواح من قديمها وأدخلها في حالة جديدة من الهدوء والطمأنينـــة، والتعب اللذيذ.

كانت "اوسيبيا" تنظر إلى اللون الرمادي الذي يدخل من الباب وقالت:

– لقد حل الظلام.

وأضافت بشكل فجائي:

– وماذا فعل "كاثيكى" طوال فترة الظهيرة؟ ترى هل بقي في السهل يلعب مع الحشرات التي يجدها، أنظر إليه يسير ويتوقف ويحادث الحشرات كما لو كانت بشراً.

وأضافت بعد ذلك، بعد أن تركت الصور تسير في مخيلتها:

– سوف أذهب للبحث عنه.

تركت السرير المعلق بشكل متسرع واتجهت نحو باب الكوخ، كان لون السهل الجاف الأصفر قد تحوّل إلى اللون البنفسجى بفعل اللون القاتم الذي يغطى السماء. ونسمة قوية تهز أوراق الأشجار الجافة.

قال العجوز:

– انظرى يا "أوسيبيا".

عادت العجوز إلى الداخل وسألت:

– هل "كاثيكي" هناك؟

–لا!، انظري إلى السماء التي تحولت إلى السواد.

– لونها هذا تحول عدة مرات، ولم يكن بفعل المطر.

ظلت في داخل إطار الباب مرة أخرى، فيما خرج هو من أحد جوانبه، أفسح لنفسه طريقاً بيديه، وأطلق صيحة بطيئة متقطعة:

– "كاثيكي"! "كاثيكي"!

ذهب الصوت مع النسمة العابرة، المختلطة بحفيف الأوراق،

وملتفة بضوضاء هادئة كما لو كانت تعويذات ساحرة تطوف الهضبة.

بدأ "خيسوسو" يسير عبر أوسع الجداول في السهل.

في دورته الأولى شاهد "اوسيبيا" بطرف عينيه، كانت ساكنة، ثم ابتعدت عن ناظريه.

عبر الضوضاء الصادرة عن الأوراق الجافة الساقطة، فيما كان يتسمع إلى قشعريرة طيران الحمام الساكن في الهواء الصامت الثقيل، كان الهواء يعبر خلال الضوء ببرودة الماء.

دون أن يشعر، كان غائباً ويعيش في أوهام غائمة ومعقدة، ويسير باتجاه سهول أكثر سرية وعتامة، كان يسير بشكل ميكانيكي، مغيراً من سرعته ما بين وقت و آخر، وكان يتوقف ليجد نفسه في مكان آخر.

بدأت الأشياء تضيع شيئاً فشيئاً، وتتحول إلى الرمادي القابل للتشكل، كما لو كانت من الماء. خيل لـ"خيسوسو" أنه يرى جسد الصبي الناحل يمرق بين عيدان الذرة، فنادى بسرعة:

-"كاثيكى".

لكن سرعان ما أذابت الظلال، ونسمات الهواء الصورة، وعادت ترسم صورة جديدة غير معروفة.

كان السحاب أكثر انخفاضاً، ويزداد سواداً، ويتحرك على سفوح الجبال، فكانت الأشجار العالية تبدو كما لو كانت أعمدة من الدخان تذوب في الفراغ المظلم.

لم يعد العجوز يثق في عينيه، لأن كل الأشكال كانت تبدو ظلالاً هاربة، لكنه من وقت لآخر كان يتوقف و ينصت متسمعاً الحفيف.

- "كاثيكي".

كان ينادي بصوت خجول، ثم يتوقف ليتسمع، اعتقد أنه سمع شيئاً يشبه خطواته، لكن لا، لقد كان صوت فرع جاف يتحشرج.

- "كاثيكي".

كان قد تعرف على صوته بين الأصوات الصغيرة المتفرقة التي يدفعها الهواء أمامه.

- أيتها الحشرة، أيتها الحشرة.

كانت الأصوات وهذه كلمات تصدر عن صوته الطفولي، وليس صدى الأصوات الفحيحية للأوراق، ولم تكن أصوات العصافير التي ضاعت ملامحها في الفراغ، ولم تكن حتى ترددات صوته التي تعود إليه خافته ونحيفة.

- أيتها الحشرة، أيتها الحشرة.

فيما بين الدخان فاقد الملامح الذي كان يملأ رأسه، كان هناك شعور بالغصة الباردة، والحادة التي تثقل خطواته، وتدفع به إلى حافة الجنون. دخل بين الأعواد ومشي على أربع، محاولاً اختراق طريقه بين أعواد الذرة، وكان يتوقف باستمرار عندما يفتقد سماع تنفسه الذي يتردد بشكل قوي.

وازداد إحساسه بالضياع فنادى:

- "كاثيكي"! "كاثيكي"!

دار عدة دورات ما بين النداء واللهاث، ضائعاً ولم ينتبه إلى أنه كان في طريقة لصعود السفح مرة أخرى، ظله وسرعة جريان الدماء في عروقه لشعوره بعدم جدوى البحث جعلاه لا يتعرف على نفسه كعجوز، بل وجد في نفسه حيواناً غريباً حبيساً في نبض الطبيعة، فلم

ير في السفح الأشياء الأليفة التي تحيط به، بل كان يرى التشوه الذي يجعلها بعيدة عن ذهنه، وغاصة بالضجيج والتحركات المجهولة.

كان الهواء ثقيلاً وصعب التنفس، والعرق يجرى لزجاً فيما كان هو يجري ويجري، وينادي والغصة تنغص جسده.

- "كاثيكى"!

لقد تحول الأمر إلى ما يشبه الحياة أو الموت، فقد كان عليه أن يعثر على شيء لا يتوقعه يخرج من تلك العزلة الجافة المعذبة، فقد تخيل أن نداءاته الأجشة تجرى في اتجاه، حيث ينتظرها شيء من الليل المحيط به.

لقد كانت نوعاً من الاحتضار، والعطش، رائحة مجري قديم حيث الحرث يطفو على السطح الأرض، أو رائحة وريقة لدنه ممزقة.

لم يعد يتعرف على نفسه، ولا على الأشكال الأخرى، فقد ضاعت صورة الصبي في الضباب الغليظ، ولم تعد تشي بالشكل البشري، وفي لحظات كان ينسي شكله الجسماني، ولم يعد قادراً على تذكر ملامحه.

- "كاثيكي"!

سقطت على جبهته نقطة ماء لعرق بارد، فرفع وجهه فسقطت نقطة أخرى على شفتيه المشقوقتين، وثالثة سقطت على يديه المتربتين.

- "كاثيكي"!

سقطت قطرات أخرت على الصدر الدهني من جراء العرق، وأخرى سقطت على العينين الغائمتين:

- "كاثيكي"! "كاثيكي"!

لقد تحول الالتحام البارد على الجلد كله إلى دغدغه، وبلل ملابسه، وجرى على أطرافه.

انفجرت ضوضاء مكتومة فدفعت في الهواء بـالأوراق الجافـة وخنقت صورته، وغرق في رائحة الجذور العميقة، وانتشرت روائح التربة التي تحمل بذوراً نابية، وجاء صـمم المطـر ليكمـل حلقـة الرائحة.

لم يعد يتعرف على صوته الخاص، الذي لفه صـدى القطـرات المستديرة، فصمت فمه كما لو كان النوم قد سيطر عليه ببطء، رغـم صوته العميق المتسع، جز على قطرات المطر وسكن فيها.

لم يعد يعرف إن كان في طريق عودته إلى البيت أم أنه يسير في الاتجاه المعاكس، وكان ينظر إلى ملامح زوجتـه "اوسـيبيا" عبـر قطرات المطر كما لو كان ينظر عبر قطرات من الدموع، فيما كانت ساكنة في ضوء مدخل الكوخ.

خوان خوسيه أرّيولا(*)

Juan José Arreola

(المكسيك)

(*) خوان خوسيه أريولا Juan José Arreola ولد عام1918، بمدينة "جوثمان" بمقاطعة" ثابوتلان" بالمكسيك، ونظرا لحالة أسرته الفقيرة لم يتمكن من الانتظام في التعليم، فغادر الدراسة في مرحلة مبكرة ليعمل في كافة أنواع العمل اليدوى تقريبا، لكنه استطاع أن يعلم نفسه، ثم التحق بالتعليم الجامعي من الخارج، وأصبح أستاذ لمادة الأدب والتاريخ في إحدى المدارس، وفي عام 1945 كون من بعض الكتاب جماعة أصدرت مجلة أدبية باسم"بان" أو " الخبز" ونشر فيها قصصه الأولى، في نفس الوقت كان يعمل مصححا في إحدى أكبر دور النشر المكسيكية، ثم حصل على منحة دراسية من الجامعة المكسيكية عام1949، نشر على أثرها مجموعته القصصية الأولى "متخيلات مختلفة" ثم نشر مجموعته "تواطؤ" عام1952، ثم أعيد نشر المجموعتين القصصيتين معا عام1955 و1962بشكل موسع، وأطلق على الكتاب الذي يضمهما "تواطؤ كامل" وكتب خوان خوسيه أريولا للمسرح، ومن أبرز أعماله مسرحية من فصل واحد بعنوان "الحاضرون" ونشر عام1963روايته الوحيدة "العيد". وفي قصته "عامل التحويلة" نرى أن الفلسفة هي الأساس، إضافة إلى أن الواقعية السحرية تبدو أكثر سحرا، ومن خلال تلك القصة فإنه يقدم وجهة نظره في العالم كله من خلال ما حدث خيالا لمسافر وحيد في بلد مجهول.

عامل التحويلة

وصل الغريب إلى المحطة الخالية يلهث بعد أن أتعبته حقيبته الضخمة التي لم يجد من يحملها عنه، جفف عرق وجهه بالمنديل، ثم رفع عينيه باتجاه خطوط القضبان الممتدة حتى الأفق، نظر إلى ساعته: إنها ساعة وصول القطار.

برز فجأة شخص ما دون أن يدرى أحد من أين جاء، ربت برقة على كتف الغريب الذي استدار ليجد أمامه عجوزاً له هيئة عامل بالسكك الحديدية، كان يحمل في يده بطارية حمراء صغيرة جداً، تبدو كلعبة، نظر العجوز إلى المسافر مبتسماً فأجابه الغريب متسائلاً:

– من فضلك يا حضرة، هل مر القطار؟

– أنت غريب عن هنا؟

– أريد السفر فوراً، يجب أن أكون في مدينة "ت" صباح الغد.

– يبدو أنك تجهل ما يجري هنا، عليك أن تبحث الآن عن مبيت في فندق للمسافرين. وأشار بيده إلى مبنى غريب رمادي اللون، شكله أقرب إلى أن يكون سجناً.

– أنا لا أريد المبيت، أريد السفر في القطار.

– يجب أن تبحث لك عن غرفة حالاً، هذا إذا وجدتها، وإذا استطعت أن تجدها الأفضل أن تؤجرها بالمشاهرة ليكون الإيجار رخيصاً ويهتموا بخدمتك أكثر.

– هل أنت مجنون يا حضرة، يجب أن أصل إلى "ت" غداً.

– صراحة يجب أن أتركك لمصيرك، ومع ذلك سوف أقدم لك بعض المعلومات.

– تفضل.

– هذا البلد شهير بقطاراته، وأعتقد أنك تعرف ذلك، وحتى الآن لم يكن ممكناً تنظيم حركة سيرها بالشكل اللائق، لكن أمكن تقديم خدمة جديدة في دليل السفر للجمهور، وأمكن بيع التذاكر حتى في القرى الصغيرة والمجهولة، ولم يعد هناك من شيء سوى أن تمر القطارات في مواعيدها المحددة المشار إليها في دليل المسافر، وأن تمر حقيقة بالمحطات المذكورة، وهذا ما يأمله كل سكان هذا الوطن، وإلى أن يتم ذلك فالناس تتقبل عدم الانتظام في الخدمة، وتمنعهم الوطنية من الاحتجاج ضد خلل الخدمات.

– لكن هناك قطاراً يمر بهذه البلدة؟

– بكل تأكيد، فأنت تعرف يا حضرة أن الخطوط موجودة، وإن كان بعضها معطوباً، وتبدو في بعض القرى كما لو كانت مرسومة على الأرض فقط بخطين من الجير، إضافة إلى أنه في الوقت الحالي ليس هناك قطار مجبر على المرور بهذه المحطة، لكن ليس هناك ما يمنع حدوث هذا الأمر، وأنا شخصياً شاهدت في حياتي العديد من القطارات تمر من هنا، وعرفت بعض المسافرين الذين استطاعوا ركوبها، ولو انتظرت الوقت يا حضرة، ربما كان لي شرف مساعدتك في الصعود إلى عربة مريحة.

– هل يوصلني هذا القطار إلى محطة "ت"؟

– ولماذا تصر يا حضرة على الوصول إلى هذه المحطة بالذات، يجب أن تشعر بالسعادة فقط لصعودك إلى القطار، وعندما تكون بداخله فإنه من المؤكد أنك سوف تصل إلى مكان ما، وماذا يهم إن كانت وجهتك إلى "ت" أو إلى غيرها؟

– معى تذكرة محجوزة للسفر إلى "ت" لذلك من الطبيعي أن يوصلني القطار إلى هناك، أليس كذلك؟

– أى انسان يسمعك يقول أنك على حق، ويمكن أن تناقش هذا في الفندق مع مسافرين آخرين، احتاطوا للأمر فاشتروا كميات كبيرة من التذاكر، وذوو البصيرة منهم اشتروا تذاكر إلى مدن وقرى البلد كلها.

– أعتقد أن السفر إلى "ت" لا يحتاج إلى أكثر من هذه التذكرة، خذ طالعها بنفسك.

– هل تعرف أن خطاً حديدياً سوف يقام على نفقة شخص واحد دفع مبلغاً هائلاً من المال في تذاكر ذهاب وعودة إلى مدينة لم يعتمدها مهندسو السكك الحديدية في خططهم المستقبلية بعد، لأن الطريق المؤدي إليها يمر بأنفاق أرضية وجسور علوية طويلة.

– لكن القطار المسافر إلى "ت" مازال في الخدمة، أليس كذلك؟

– في الحقيقة هناك قطارات كثيرة في البلاد، والمسافرون يستخدمونها بشكل شبه اعتيادى، لكن هل تعرف أن الخدمة مازالت بعيدة عن التنظيم النهائي، أي عند الصعود إلى القطارات لا ينتظر أي مسافر الوصول إلى المحطة التي يقصدها.

– كيف يكون هذا؟

– تبذل الشركة مجهودات كبيرة من أجل خدمة الموطنين، لذلك تلجأ إلى بعض الطرق غير المعهودة، منها تسير قطارات على خطوط مهجورة، وبعض تلك القطارات تظل تسير على خطوطها لسنوات طويلة إلى أن تصل إلى وجهتها، ويحدث أن تتبدل أحوال الركاب أحياناً، وتطرأ عليهم تغييرات هامة، وفي أحيان كثيرة يكون موت بعضهم شيئاً عادياً، لذلك احتاطت الشركة للأمر فخصصت

عربة تستخدم ككنيسة للصلاة عليهم، وأخرى كمقبرة، وبعض السائقين يتفاخرون بإنزال جثة المسافر في المحطة التي كان يقصدها قبل وفاته، وأحياناً ما تجد بعض هذه القطارات خطوطها تتقصها بعض القضبان مما يتسبب في إحداث رضوض للركاب في جانب من العربات، لذلك انتبهت الشركة إلى هذا فوضعت مسافري الدرجة الأولى في الجانب الذي توجد به قضبان، ومسافري الدرجة الثانية في الجانب الخالي من القضبان مما يعرضهم إلى بعض هذه الحوداث الصغيرة، وهناك أماكن تختفي فيها القضبان تماماً، في هذه الحالة يتعرض الركاب إلى حوادث بسبب المطبات، ويظل القطار يسير إلى أن يتحطم.

– يا إلهي، أنا لم أستعد لمثل هذه المغامرات.

– لماذا أنت خائف يا حضرة؟ ربما كان سفرك هذا سبباً في أن تصبح بصبح بطلاً قومياً، ألا تعقد أنه لو توفرت مثل هذه الأحداث لكشف كل مسافر عن قيمته الحقيقة وقدرته على التضحية،

حدث مؤخراً إن مئتين من المسافرين المجهولين كتبوا صفحة ناصعة في دليل المسافرين، ففي إحدى الرحلات التجريبية قام السائق بإبلاغ الشركة بنقص هام في الخطوط عندما وجد أن الجسر الذي يعبر الوادى لم يكتمل، ولكن بدلاً من العودة طلب إلى المسافرين تفكيك القطار ونقله قطعة قطعة إلى الجانب الآخر، وهو مجهود كبير ومطلوب لعبور الوادى، وتم بالفعل تفكيك القطار تحت إشراف السائق، وعبر به المسافرون إلى الجانب الآخر رغم وجود نهر سريع التيار، هذه التضحية من المسافرين دفعت الشركة إلى صرف النظر عن إقامة الجسر نهائياً، وقدمت للركاب تخفيضاً هاماً في الأسعار مقابل القيام بهذا الجهد الصغير.

– لكن يجب أن أصل إلى "ت" صباح الغد.

– حسناً، أنا مُعجب بتمسكك بموقفك يا حضرة، يبدو أنك صاحب مبادئ ثابتة، اذهب إلى الفندق واحجز لنفسك مكاناً وسافر على أول قطار يمر من هنا، يجب أن تفعل ذلك بسرعة، هناك أكثر من ألف شخص ينتظرون هذا القطار، وعند وصوله سوف ينطلق المسافرون في هجوم هائل بعد انتظار ممل، وهذا كثيراً ما يسفر عن أحداث مؤسفة، لقد فقد الناس الذوق والحذر، بدلاً من الصعود في انتظام يتحولون إلى دهس الآخرين، وأحياناً يتركهم القطار على رصيف المحطة وهم في حالة من التعب والغضب، يلعبون بالزمن مع بعضهم.

– ألا يتدخل البوليس لتنظيم هذا؟

– كانت هناك محاولة لتنظيم بوليس محلي هناك، لكن وصول القطار بشكل فجائي أدى إلى عدم جدوى وجود البوليس الذي كانت تكلفته باهظة، وحدث أن تحول بعض رجال البوليس إلى الرشوة وحماية المسافرين الأثرياء، ومنذ ذلك الوقت انتشرت مدارس لتعليم الركاب وتدريبهم على الطرق المثلى للحاق بالقطار أثناء سيره بسرعة كبيرة، والقفز أثناء الحركة، وقوة التحمل، والقدرة على مواصلة الحياة في القطار، وهذه المدارس تبيع للمسافرين أيضاً نوعاً خاصاً من الملابس التي تحمي ضلوعهم.

– هل يعني هذا أن المسافر يواجه المتاعب بعد الصعود إلى القطار؟

– هذا أمر نسبي يا حضرة، على المسافر أن ينتبه إلى أسماء المحطات التي يتوقف عندها القطار، فقد يحدث أحياناً أن تعتقد يا

حضرة أنك وصلت المحطة التي تقصدها، لكن الأمر لا يعدو إلا أن يكون خدعة، لأن زيادة عدد المسافرين دفع الإدارة إلى التفكير في التخلص منهم، فقامت الشركة بإنشاء محطات وهمية وسط الأحراش وكتبت عليها أسماء مدن معروفة، لكن لو دققت جيداً لأمكنك اكتشاف الخدعة، لأنها مثل ديكورات المسرح، فيها أشخاص قد يخدعون بصرك، لكن ليسوا في الحقيقة سوى تماثيل من القش متقنة الصنع، وبعضها يبدو عليه التعب والإجهاد الشديدين.

– من حسن الحظ أن "ت" ليست بعيدة عن هنا.

– المشكلة أنه لا توجد قطارات مباشرة إليها، لكن هذا لا يعوق إمكانية وصولك إليها غداً، كل الفوضى التي تلف القطارات لا تمنع أحياناً من الوصول في الموعد المحدد سلفاً، اسمع يا حضرة، بعض الناس لم يشعروا مطلقاً بما يحدث، يشترون التذاكر ويأتي القطار فيصعدون إليه، وفي اليوم التالي يعلن السائق عن الوصول إلى المحطة، يهبط المسافرون دون أن ينتبهوا فيجدون أنفسهم في المحطة التي يقصدونها فعلا.

– هل مطلوب أن أفعل شيئاً خاصاً لأصل إلى وجهتي بسهولة؟

– بالطبع يا حضرة، لكني لا أستطيع أن أعرف إن كان هذا ينفعك في شيء أم لا، على كل حال المحاولة مطلوبة، اصعد إلى القطار وأنت لا تفكر في غير الوصول إلى "ت"، واحترس من المسافرين لأن حكاياتهم قد توهن من عزيمتك، وإذا استطعت، يمكنك إبلاغ السلطات بأمرهم.

– ماذا تقول يا حضرة.

– نظراً للأوضاع الحالية، القطارات غاصة بالجواسيس، أكثرهم

يمارسون الجاسوسية تطوعاً، ويوجهون جهودهم من أجل تقدم الشركة في عملها، أحياناً يتكلم الواحد منا لمجرد الكلام، ولا ينتبه إلى ما يقول، لكن هؤلاء يقلبون معاني الكلمات ويستنتجون ما يريدون، مهما كانت الكلمات بسيطة يمكنهم إدانتك بأبسط كلمة بريئة تقولها، وأي تفريط من جانبك يؤدي إلى أن تقضي بقية حياتك في عربة السجن الملحقة بالقطار، أو يأمرونك بالهبوط في إحدى المحطات الوهمية الموغلة في الغابات، سافر يا حضرة وكلك ثقة في نفسك، حاول أن توفر ما تستطع من الطعام، ولا تضع قدميك على الرصيف في محطة "ت" إلا بعد أن تتعرف على وجه مألوف لديك.

– لكني لا أعرف أحداً في "ت"؟.

– في هذه الحالة عليك بالحذر يا حضرة، أؤكد لك أن الطريق مليئة بالخدع، إذا نظرت من النافذة يا حضرت يمكنك أن تسقط في شرك، إحدى هذه الخدع، النوافذ مغطاة بآلات دقيقة توهم المسافرين بكل أنواع الصور، ويمكن لأذكى الناس السقوط في شركها، هناك أجهزة تعمل من قيادة القطار تصدر أصواتاً، وتضع صوراً توهم المسافر بأن القطار ينطلق بسرعة، بينما هو في الحقيقة يقف في مكانه لا يتحرك لأسابيع عديدة، في الوقت نفسه يري المسافرون المشاهد تجرى عبر زجاج النوافذ.

– ما الهدف من هذه الخدعة؟.

– تفعل الشركة هذا لتقلل من قلق الركاب، وتعدهم لتحمل مرور الوقت والاستسلام للقدر، ولا يهم الشركة بعد ذلك أن يفكر الركاب في الوصول إلى المحطات التي يقصدونها.

– هل سافرت أنت كثيراً في هذه القطارات؟

– أنا يا سيدي، أنا عامل التحويلة هنا، في الحقيقة أنا عامل

تحويلة متقاعد، وأعود إلى هنا من وقت لآخر لأتذكر الأيام الخوالي، ولم أسافر في قطار مطلقاً، لكن المسافرين يقصّون عليّ حكاياتهم الكثيرة، وأعرف أيضاً أن القطارات كانت السبب في خلق قري كثيرة مثل قرية "ف" التي أشرتُ إلى حكايتها من قبل، وأحيانا يتلقى سائقو القطارات أوامر غريبة فيطلبون من المسافرين الهبوط من القطار ليتأملوا مشهداً طبيعياً جميلاً، أو يحدثوهم عن شلالات أو آثار معروفة ويقولون لهم: "لديكم خمس عشرة دقيقة للاستمتاع بهذا المشهد أو ذاك"، وعندما يبتعد المسافرون لمسافة معينة يهرب القطار بكل ما يملك من طاقة.

– ماذا يفعل الركاب؟

– يصيبهم الذعر لبعض الوقت، لكن سرعان ما يقررون البقاء في هذا المكان، وتكوين مستعمرة جديدة، على أية حال هذه الأشياء محسوبة جيداً، فالتوقف يتم في أماكن مناسبة وبعيدة جداً عن الحضارة، وغنية بالمواد الخام الطبيعية الكافية، هناك يتركون مجموعات مختارة من الشباب وبينهم نساء بالعدد الكافي، ألا يعجبك يا حضرة قضاء بضعة أيام في مغامرة بمكان مجهول، وبرفقة فتاة شابة؟

غمز العجوز بعينه، وظل يحملق في المسافر بابتسامة كريمة جداً، في هذا اللحظة وصل إلى مسامعهما صوت صفارة يأتي من بعيد، فزع عامل التحويلة وقد اعتراه القلق، وبدأ يصدر ببطاريته إشارات غريبة ومرتبكة.

سأل الغريب:

– هل هذا هو القطار؟

انطلق العجوز يجري بين القضبان بمبالغة شديدة، وعندما وصل إلى مسافة معينة، استدار زاعقاً:

– أنت محظوظ يا حضرة، سوف تصل غداً إلى محطتك الشهيرة.

ماذا قلت لى اسمك؟

أجاب المسافر:

– "اكس".

في هذه اللحظة كان العجوز قد اختفى في ضوء الصباح الباهت، لكن ضوء البطارية الحمراء ظل يجري، قافزاً بين القضبان، وكان يتجه دون احتراس للقاء القطار.

في عمق المشهد، كانت القاطرة تقترب بصوت هادر.

سانتياغو راميرو ميرينو(*)

Santiago Ramiro Merino

(البيرو)

(*) سانتياجو راميرو ميرينو Santiago Ramiro Mireno ولد في مدينة (تروخيو) بالبيروعام1944، يكتب القصة القصرة والرواية، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية كان آخر جائزة "إنكارای"، وهذه القصة التي اخترناها له لتكون نموذجا لأعماله مأخوذة عن مجموعته القصصية "قصص دافيد البينو".

شخص ما يعبر الشارع

هل تعرف أنك سوف تراه قريباً هادئاً ووديعاً، يكرر حركته اللانهائية كلعبة ميكانيكية، كما لو كان أحدهم قد قام بدفعه أمامك، أو أن الزمن لم يعد يمارس عليه سيطرته. سوف يحدث هذا فيما بين منطقتي "خونين" و"سان مارتين"، وسوف تنظر إليه في صمت وخنوع، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً سوى أن تنكمش خلف مقود سيارتك "الدودج". ربما تحاول التفكير في زوجتك وأطفالك، أو تفكر في مشروع إسكان "سانتا أينيس". أو ربما تعود إلى رشدك أثناء استلقائك على أريكة الدكتور "كلاوديت" لتعيد تكرار المشهد الأسبوعي نفسه، تعرض عليه شبابك بكلمات مملة، كما لو كنت تقص عليه حكاية أحد أفلام "ليلوش".

أنت تراه الآن: وأنت على وشك الوصول إلى إشارة المرور، وهو في موعده المحدد تماماً، يعبر الشارع، أنت تعرف أن الثواني المقبلة سوف تجري بنفس الطريقة المملة التي تكررت خلال الأسابيع الأخيرة، أو بما تكررت خلال سنوات، أو قرون مضت. عندما يشعر هو بالضوء الأحمر، يهبط من على الرصيف معتمداً على عصاه المثيرة للغثيان (قد تراها أحياناً كما لو كانت حية سامة) ثم يبدأ رحلة عبوره إلى الرصيف الآخر، سوف تغير إشارة المرور لونها إلى الأصفر ثم الأخضر، وإلى الأصفر مرة أخرى، لكنه سيظل يواصل رحلته دون أن يعير تعبيرات وجهك، ولا آلات التنبيه التي يطلقها قائدو السيارات أى اهتمام، ثم تتحول إشارة المرور إلى الأحمر ثم إلى الأصفر، ثم إلى الأخضر، لكنه سوف يظل ملتفاً في ذكرياته.

سوف يكون لديك الوقت لتفكر في زوجتك وفي مشروع الإسكان.

سوف تتساءل عن سبب لقاء المصادفة المتكرر مع ذلك الصعلوك، فتفهم على الفور أن القدر الذي لا يرحم يضعه أمامك في كل مرة.

فتفكر حينئذ في الطبيب النفسي "كلاوديت"، تفكر في أريكته القاتمة الشبقية، وتفكر في إعجابك العميق بالدكتور "جوزيب مينجل"، ونظريته النازية التي تحبذ التخلص من أى حياة عديمة الفائدة أو سلبية التوجه، وتسقط من جديد في التقاطع الذي لا مفر منه، عندما تعرف أنك المختار إجبارياً للمرور بهذه المحنة.

الآن، يعتبر الصعلوك الشارع أمامك تماماً، إنه على بعد خمسة عشرة متراً منك، فيما عين إشارة المرور تسطع بحرارة، تقترب سيارتك من تقاطع شارعي "خونين" و"سان مارتين". تيقنك الشديد بأنك المختار للمنحة يترسخ في داخلك، لكن الافتقار إلى الحل النهائي يحول بينك وبين الاستسلام للأمر، وتعرف إن ما ينقصك هو أن تسيطر عليك حالة من الفتور واللامبالاة الشديدة، أن تشعر بتلك الحالة أولاً في جبينك، بعد ذلك تشعر بها في وجنتيك، ثم تنتشر بامتداد الصدر، والبطن، حتى تصل إلى العضلات، إلى أن تنتهي إلى القدم اليمني، فتجعلها أكثر ثقلاً، أكثر قوة، وتمنحها الاستقلال التام عن الساق، لتضغط دواسة السرعة بأقصى قوة عندما تتحول عين إشارة المرور إلى اللون الأخضر، ويكون الصعلوك لا يزال يعبر الشارع، ولم يصل بعد إلى الرصيف المقابل.

بعد هذا يصبح كل شيء بسيطاً، سوف تهبط من سيارتك عندما يتجمع الناس حول الجسد المسجى والعصا القذرة، تتنفس بكامل

رئتيك كما لو كنت قد تخلصت من عبء كبير، وبعد أن تتفحص مقدمة السيارة، تسأل نفسك كيف يمكن إزالة بقع الدماء القذرة عنها، ما الذي يمكن أن يزيلها دون أن تترك أثراً يذكرك بهذا الحادث الشاذ.

استيقظ المعماري "خوستو ثانيجا"، مصاباً بصداع الرأس المعتاد، وتبدو على ملامح وجهه سنواته الأربعون، نزع عن نفسه ملابس النوم المبللة بالعرق، واتجه إلى الحمّام على عجل، وهو يفكر في زوجته "أنا"، التي قد تبدو في هذه اللحظات نظيفة وجذابة، تعد له طعام الإفطار. لكن برودة الماء النافذة في الجسد نزعت عنه بقايا الكابوس الذي كان غارقاً فيه قبل قليل، واستعد لمواجهة أعمال اليوم الاعتيادية. لكن ما إن عاد إلى غرفة النوم حتى حدث ما لم يكن متوقعاً، حدث ذلك في اللحظة التي كان يبحث فيها عن قميص، فيما كانت زوجته "أنا" تدعوه لتناول الإفطار. شعر فجأة أنه يرغبها، لكن هذه الرغبة تحولت إلى فتور مفاجئ، كما لو كان متردداً في اتخاذ قراره. ثم شعر بعد ذلك بتجمع الرغبة بقوة وحدّة، حتى أنها غيرت كل ما مر به قبل قليل، فعرف عندها أنه ليس من المستحيل أن يحصل على ما انتظره لفترة طويلة.

هبط إلى المطبخ سعيداً، وتناول طعام الإفطار البسيط، ثم قَبَّل زوجته وطفليه، واتجه إلى سيارته، وما إن أدار المحرك، حتى شعر أنه سوف يصل إلى عمله دون أدنى عائق، فقد كان على موعد هام، موعد يؤكد على أنه رجل ناجح، ويخلصه نهائياً من أريكة الطبيب النفساني "كلاوديت". فقد شعر أن الرغبة تنتشر بحدة في كامل رئتيه.

لويس أرتورو راموس(*)

Luis Arturo Ramos

(المكسيك)

(*) لـويس أرتـورو رامـوس Luis Arturo Ramos ولـد عـام 1947 في "ميناليتاتلان" بقعاطعة "فيراكروث" المكسيكية، دروس فقه اللغة الإنسانية و أدابها، مشارك في تحرير العديد من المجلات والصحف الأدبية في بلاده، من بينها "الكلمة" و "الإنسان" و"القصة"، وله العديد من الأعمال القصصية والروائية المعروفة من بينها"عندما تتوقف الساعات يمكن أن يحدث شيء غير متوقع"، التي اخترنا منها هذه القصة.

"استيلا" تسمع أصواتاً في الخزانة

كانت الأصوات الصغيرة تترنم في الخارج بتلك الأغاني الطفولية المرعبة، التي تقص حكايات وجرائم خيالية، حكايات تقشعر لها الأبدان تصدر عن تلك الأصوات الصغيرة الخفيضة، وضربات حبل على الطريق، دقات أقدام تتقافز فوق السطح، اهتزازات حبال الغسيل، كل تلك الأشياء كانت تتعانق مع مشاهد أمسيات الصيف الحارقة المملة، التي ينام فيها الأطفال على مختلف الحكايات القديمة.

فتحت "استيلا" الباب، وتشممت كما لو كانت تتشمم طبقاً لذيذاً من الحلوى، انتظرت إلى أن اعتادت عيناها على الظلام القديم الحذر الذي يرقد في داخل الخزانة، ظلام سلبي ساكن لا يهرب أمام الهواء الذي غزا الخزانة، بل انغلق على الأشباح الرقيقة المعلقة على المشاجب، ودفع في وجه "استيلا" ببخار الأشياء القديمة المحفوظة فيه.

وبينما كانت تنتظر أن تعتاد عيناها على الظلال القديمة (كانت تحولها العتمة أحياناً إلى ما يقرب من اللون الأزرق) تذكرت ذلك الصوت المميز جداً، الذي يصدر عن حركة المفتاح، صوت ظل يتردد برغم أنها أكلت فتح الضلفة، فانتشر في الغرفة كلها مرافقاً لتلك الرائحة التي انفلتت من ثنايا الخزانة.

كانت هناك الأشكال الهلامية للملابس المعلقة، والصمت الثقيل، وذلك الإحساس المبهم الذي كانت تشعر به مع احتكاك أصابعها بخيوط العنكبوت الخفيفة (عندما تأكدت أن تلك الأشكال ما هي إلا

ملابس وليست وطاويط ضخمة معلقة على المشاجب) مدّت يدها نحو أحد الفساتين فشعرت بخيوط الهواء تجذبها وتتحكم فيها، وتلتف حول أصابعها، ثم شعرت أن قواها تخور وهى تقاوم حتى لا تدخل زمناً لا تنتمي إليه، وكانت تشعر بخوف شديد، الخوف من البقاء سجينة خيوط العنكبوت، الخوف من أن تبتلعها فتحات الملابس، من أن تضمها أكمام الفساتين المفتوحة، من أن تدخل الظلال الجامدة، (ربما كانت مختبئة هناك منذ زمن بعيد) وكانت هناك قائمتان من الأسماء معلقتان تشيران إلى أن تلك الملابس مرّ عليها مئات السنين.

أخيرا استطاعت أن تنزع نفسها من خيوط العنكبوت الخفية التي ربما لم تكن موجودة أصلاً على أبواب الخزانة، وربما كان إحساسها هذا نابعاً من تلك الرائحة التي خلفها أحد الأجساد في قطعة ملابس قديمة لمستها بأصابعها.

اقتربت الأصوات الطفولية الرتيبة مرة أخرى، وتسربت إلى داخل الغرفة، فسحبت "استيلا" يدها من داخل الخزانة وانتظرت في سكون حتى تختفي قشعريرة جسدها المدهشة، تأملت الخزانة الخشبية الضخمة التي تكاد تحمل حائطاً بأكمله، ولاحظت القائمتين الطويلتين على جانبى المرآة (كانت تحمل أسماء جميع سيدات العائلة اللائى استخدمن تلك الخزانة) "استيلا" و"كارمن" الجدة، و"كارمن" الأم كانت في آخر هذه الأسماء، أما اسمها هي فلازال أمامه زمن طويل ليحتل مكانه في هاتين القائمتين، كانت الأسماء لا تزال تحتفظ بلمعانها.

اختارت "اسيتلا" أحد الفساتين، وقربته من النافذة لتتأمله في الضوء الخافت الذي ينفذ إلى الغرفة، عندها سمعت صوتاً، كانت قد سمعته مرات عديدة في حياتها، رغم أن الصوت لم يكن يصدر عن

مكان محدد فقد أدارت "استيلا" رأسها لتتبين مصدره، فشاهدت ظلاً على الحائط، اعتقدت إنه ربما كانت تلك الظلال هي السبب في هذه الأصوات، لكنها في الوقت نفسه شاهدت باب الخزانة ينغلق، ويصدر صوتاً خفيفاً يشبه ذلك الصوت المحبب الذي يصدر عن آلة التصوير أثناء التقاطها صورة ما، وفجأة شاهدت نفسها في المرآة، وهي ترتدي الفستان الأبيض الذي كان يضمها كما لو كانت الريح تدفعها به في اتجاه المرآة، فابتسمت لصورتها الباهتة المطبوعة عليها.

حاولت "استيلا" فتح الباب، لكنه لم يستسلم لها، أدارت المفتاح لكن النتيجة كانت محبطة، عندما سمعت أصواتاً نابعة من أعماق الخزانة، وانتبهت إلى أن الفستان لونه أبيض، رغم أنها أبعدته عن جسدها، إلا أنها شعرت به يلتصق بها ويحاول أن يوصل إليها إحساساً بالطراوة، يشبه ملمس نسيج العنكبوت.

شعرت "استيلا" بالتعب، وحل بجسدها خدر يشبه ذلك الذي يشعر به الإنسان بعد رحلة طويلة، اتجهت نحو "التسريحة"، وجلست على كرسي ثم بدأ في تمشيط شعرها، لاحظت عبر المرآة أن الوقت ليل، والأطفال لازالوا يقصون حكاياتهم الرتيبة، وتمايل رأسها الناعس للحظات على ترانيم حكاياتهم القديمة، إلى أن انتهت إلى ذلك الإحساس الغريب بأنه يشبه حالة جدتها الميتة، غمرها هذا الإحساس ربما من خلال الفستان الذي كانت ترتديه، وضعت أمامها صورة الجدة التي تبدو فيها واقفة على قدميها، وتعتمد بيديها على كرسي مرتفع، ومن خلفها أفق من أشجار الجوز بينما تضيع نظرتها في خارج الإطار، ربما كانت تراقب سقوط أوراق الأشجار في ذلك الوقت، أما الفستان الذي شعرت فيه "استيلا" بالتشابه مع الجدة فقد كان شبيها بالفستان الذي ترتديه الجدة في الصورة، كان لونه ممتقعاً

على جسد الحفيدة "استيلا"، لكنه صار منتمياً إلى عالم آخر غريب عن عالم الصورة.

بدا كل شيء واضحا، لقد امتلك الفستان "استيلا"، "استيلا" الجديدة (كانت تجمل ذلك العلم ورائحته الغريبة التي تسكن الخزانة) لا يستطيع أى إنسان أن ينزع منها هذا الحق، واندفع المفتاح الكبير التائه في ثقب الباب، لقد كان ملكاً لجدتها التي كان اسمها "استيلا" أيضاً، وماتت أثناء ولادتها لأم "استيلا" الحفيدة، وعلى الرغم من أنها كانت تعرف أنها سوف تموت قبل أن تأتي الحفيدة، إلا أنها أوصت (كما يقولون) بأن يكون المفتاح لها هي "استيلا" الحفيدة قالت: "إنه لحفيدتي "استيلا"" التي جاءت ولادتها بعد ذلك بثلاثين عاماً، لقد جاءت في زمن مختلف، تماماً عن ذلك الزمن الذي يبدو في الصورة.

لم تنزع "استيلا" عنها الفستان، كانت تحب الجلوس على الأرض إلى جوار الخزانة الضخمة، وتلصق أذنها بالخشب المشغول لتنصت إلى الهمهمات التي تصدر من داخلها، بينها تختلط الأغنيات الطفولية التي تأتيها من الخارج في أمسية صيفية مملة.

إلى أن جاء يوم كانت تشعر "استيلا" باقترابه، فتحت باب الخزانة، لكنها لم تكن في حاجة إلى الانتظار لتعتاد عيناها على الظلام، لم تشعر بالخوف من الأنفاس الصادرة عن الملابس، والتي كانت تجذبها كخيوط العنكبوت، فقد دخلت "استيلا" الخزانة، ومنذ تلك اللحظة لم يعرف احد أبداً ما حدث لها.

الفهرس

تقديم 5

روبين داريو 13

الطائر الأزرق 15

الحورية - حكاية باريسية 21

جابرييل جارثيا ماركيز 27

رجل عجوز جداً بأجنحة ضخمة 29

الموت دائماً بعد الحب 39

ليلة الكراون 51

نابو، الزنجي الذي انتظرته الملائكة 59

خورخي لويس بورخيس 69

التصاوير الاثنتي عشر للعالم 71

الآخر 91

بيت أستريون 101

خوان رولفو 105

قل لهم ألا يقتلوني 107

ليلة تركوه وحيدا 115

خوستو استيبان استيفانيل 121

بائع الكراملة 123

خوليو كورتاثار 131

البيت المسكون 133

زهرة صفراء 141

لوكاس في المستشفى 149

ماريو بنيديتى 151

اتفاق مُعمَّد بالدم 153

مثلث متساوي الأضلاع 165

ليلة القبحاء 171

الأنا الآخر 177

مانويل روخاس 179

كوب الحليب 181

أرتورو أوسلار بيترى 191

المطر 193

خوان خوسيه أرِّيولا 213

عامل التحويلة 215

سانتياجو راميرو ميرينو 225

شخص ما يعبر الشارع 227

لويس أرتورو راموس 231

استيلا تسمع أصواتاً في الخزانة 233

أحدث إصدارات "سنابل"

- **حكاية أيراندير البرئية**
تأليف: جابرييل جارثيا ماركيز
ترجمة: د.طلعت شاهين
- **بين انكسار الحلم والأمل**
شعر
سيد جودة
- **من حلاوة الروح**
رواية
صفاء عبدالمنعم
- **قطرات الماء**
تأليف: ميدوروما شون
ترجمة: د. أحمد فتحي
- **كتاب العشق والدم**
شعر بالعربية والأسبانية
طلعت شاهين
- **قيامة البحر**
شعر
د. قرشي ندراوي
- **رجل عدن**
رواية
تأليف: كلارا خانيس
ترجمة: د. طلعت شاهين
- **كائن العزلة**
رواية
محمود الغيطانى
- **مملكة الجوارح**
رواية
د.زينب أبو سنة